د. عبد الله شحاتة



دار الشروق

عُلُومُ التَّفْسِيرِ

طبعة دار الشروق الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نستعينه ونستهديه ونسأله الهدى والرشاد والتوفيق والسداد ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ (الكهف: ١٧) .

أمـــا بعــــد:

فهذه دراســة محررة عن التفــسير وعلومــه حاولت أن أستفــيد فيها من دراســة الأئمة السابقين والعلمــاء الباحثين الذين أبلوا بلاء حــسنا وتركوا من خلفهم ثروة علمــية هائلة، وكنوزا ثقافية زاخرة .

وكان قــصارى جهــدي أنني درست هذا التراث وعــرفت به في أسلوب ميــسر آمل أن يستفيــد به القارئ، والراغب في دراسة القرآن وعلومه، وما توفــيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

د. عبد الله شحاته

القرآن والتفسير

أنزل الله القرآن بلسان عـربي مبين، وجعله مصدرا للهداية ونامـوسا للفلاح والرشاد، قال تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ (المائدة: ١٥، ١٦). وقد جدت في أيامنا عوامل متعددة جعلت كثيرين منا، يتطلعون إلى حيـاة أفضل، ويتلمـسون سبل الإصـلاح، وميادين التـقدم والازدهار، ونرى أن نهـضة المسلمين لا تكون صحيحة عن تجربة، ولا سهلة متيسرة، ولا رائعة مدهشة، إلا عن طريق الاسترشاد بتعـاليم القرآن، ونظمه الحكيمة التي روعيت فيها جـميع عناصر السعادة للنوع البشري.

وبدهي أن العمل بهذه التـعاليم لايكون إلا بعد فهم القـرآن وتدبره، والوقوف على ما حوى من نصح ورشد، والإلمـام بمبادئه، عن طريق تلك القوة الهائلة التي يحـملها أسلوبه المعجـز وهذا لا يتحقق إلا عن طريق الكشف والبـيان لما تدل عليه ألفاظ القـرآن. «وهو ما نسميه بعلم التفسير».

خصوصا في هذه العصور الأخيرة التي فسدت فـيها ملكة البيان العربي، وضاعت فيها خصائص العروبة حتى من سلائل العرب أنفسهم.

فالتـفسـير هو مفـتاح هذه الكنوز والذخـائر التي احتـواها هذا الكتاب المجـيد النازل لإصلاح البشر، وإنقاذ الناس، وتكريم الإنسان.

وبدون التفسير لا يمكن الوصـول إلى هذه الكنوز والذخائر، مهما بالغ الناس في ترديد ألفاظ القرآن، وتوافروا على قراءته، كل يوم ألف مرة بجميع وجوهه التي نزل عليها.

وهنا نلمح السر في تأخر المسلمين في هذا الزمن على رغم وفرة المصاحف في أيديهم، ووجود ملايين الحفاظ بين ظهرانيهم، وعلى رغم كثرة عددهم، واتساع بلادهم، في حين أن سلفنا الصالح نجحوا بهذا القرآن نجاحا مدهشا، كان وما زال موضوع إعجاب التاريخ والمؤرخين. مع أن أسلافنا أولئك كانوا في قلة من العدد، وضيق من الأرض، وخشونة من العيش، ومع أن نسخ القرآن ومصاحفه لم تكن ميسورة لهم، ومع أن حفاظه لم يكونوا بهذه الكثرة الغامرة.

أجل إن السر في ذلك هو أنهم توافروا على دراسة القرآن، واستخراج كنوز هدايته، يستعينون على هذه الثقافة العليا بمواهبهم الفطرية، وملكاتهم السليمة العربية من ناحية، وبما يشرح رسول الله ﷺ، ويبينه لهم بأقواله وأعماله وأخلاقه وسائر أحواله من ناحية أخرى.

وعلى ذلك كان همهم الأول هو القرآن الكريم يتلونه ويفهمونه قبل أن يحفظوه، ثم يعملون بتعاليمه بدقة ويهتدون بهديه في يقظة بهذا وحده صفت أرواحهم، وطهرت نفوسهم، وعظمت آثارهم، لأن الروح الإنساني هو أقوى شيء في هذا الوجود. فمتى صُفِّيَ وهُذِّبَ، وحسن توجيه وتعليمه، أتى بالعجب العجاب.

وكذلك أتت الأمة الإسلامية بالعجائب في الهداية والإرشاد وإنقاذ العالم وإصلاح البشر، وكتب الله لهم النصر والتأييد، حتى على أقوى الدول المعادية لدعوة الحق والإصلاح في ذلك العهد: دولة الفرس في الشرق ودولة الرومان في الغرب.

أما غالب المسلمين اليوم. فقد اكتفوا من القرآن بألفاظ يرددونها. وأنغام يلحنونها، في المآتم والمقابر والدور. وبمصاحف يحملونها أو يودعونها بركة في البيوت. ونسوا أن بركة القرآن العظمى إنما هي في تدبره وتفهمه، وفي الجلوس إليه والاستفادة من هديه وآدابه، ثم في الوقوف عند أوامره ومراضيه، والبعد عن مساخطه ونواهيه والله تعالى يقول: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (ص: ٢٩) ويقول سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (محمد: ٢٤) ويقول جل ذكره: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر: ١٧).

فما أشـبه المسلمين اليوم بالعطشان يموت من الظمـأ والماء بين يديه، أو بالحيران يمد يده ليقترض من الآخرين، ورصيده كاف لو مد يده إليه.

ألا إن آخـر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح بـه أولها، وهو أن يعـودوا إلى كتـاب الله يستهلمـونه الرشد، ويستمنحونه الهـدى، ويتدبرون هدايته وينبعثون مع روحـه العامة، وأهدافه السامـية، وآفاقه العـالية فالقرآن روح وحـياة وبعث وإصلاح، وقد أحـيا نفوس المسلمين الأولين، وأعلى هممـهم وهذب أخلاقهم، وأرشدهم إلى الانتـفاع بقوى الكون ومنافعـه. وكان من وراء ذلك أن مهروا في العلـوم والفنون والصناعات. كما مـهروا في الأخلاق والآداب والإصلاح والإرشاد، ووصلوا إلى غاية بزوا فـيها كل أمم الدنيا. حتى قال بعض فلاسفة الغرب في كتـابه (تطور الأمم) ما نصه: (إن ملكة الفنون لا تستحكم في أمة من الأمم إلا في ثلاثة أجيال: جيل التقليد، وجيل الخضرمة، وجيل الاستقلال. وشذ العرب وحدهم فاستحكمت فيهم ملكة الفنون في جيل واحد).

أنواع التفسير:

ينقسم التفـسير إلى نوعين على وجه الإجمـال (أحدهما) تفسير جـاف لا يتجاوز حل الألفاظ وإعـراب الجمل وبيان ما يحـتويه نظم القرآن الكريم، من نكات بلاغـية وإشارات فنية، وهذا النوع أقرب إلى التطبيقات العربية منه إلى التفسير وبيان مراد الله من هداياته.

(النوع الثاني) تفسير يجاوز هذه الحـدود، ويجعل هدفه الأعلى تجلية هدايات القرآن، وتعاليم القرآن، وحكمة الله فيما شرع للناس في هذا القرآن، على وجه يجتذب الأرواح، ويفتح الـقلوب ويدفع النفوس إلى الاهتـداء بهدى الله. وهذا هو الخليق باسم التـفسـير وفائدة هذا الـتفسـير هي التـذكر والاعتـبار، ومعـرفة هداية الله في العـقائد والعـبادات والمعاملات والأخلاق، ليفوز الأفراد والجماعات بخير الدنيا والآخرة.

التفسير والتأويل

التفسير في اللغة الإيضاح والتبيين ومنه قوله تعالى:

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (الفرقان: ٣٣) أي بياناً وتفصيلاً والتفسير في الاصطلاح: علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية.

وقال بعضهم التفسير في الاصطلاح: علم نزول الآيات وشئونها وأقاصيصها والأسباب النازلة فيها ثم ترتيب مكيها ومدنيها ومحكمها ومتشابهها وناسخها ومنسوخها وخاصها وعامها ومطلقها ومقيدها ومجملها ومفصلها وحلالها وحرامها ووعدها ووعيدها وأمرها ونهيها وعبرها وأمثالها[1].

التأويل:

والتأويل مرادف للتفسير في أشهر معانيه اللغوية. قال صاحب القاموس: (أول الكلام تأويلاً وتأوله: دبره وقدره وفسره).

ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ وكذلك جاءت آيات كثيرة فيها لفظ التأويل، معناه في جميعها البيان والكشف والإيضاح ـ أما التأويل في اصطلاح المفسرين فقد تعددت أقوال العلماء فيه، فبعضهم يرى أن التأويل هو تفسير الكلام وبيان معناه، فالتأويل والتفسير على هذا متقاربان ومترادفان، ومنه دعوة رسول الله ﷺ لا بن عباس (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل).

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ١٧٤.

وبعضهم يرى أن التفسير يتعلق بالرواية والتأويل يتعلق بالدراية. وقال قوم: ما وقع مبينا في كتاب الله ومعينا في صحيح السنة سمى تفسيرا؛ لأن معناه قد ظهر ووضح وليس لأحد أن يتعرض إليه باجتهاد ولا غيره بل يحمله على المعنى الذي ورد لا يتعداه، والتأويل ما استنبطه العلماء العاملون لمعاني الخطاب الماهرون في آلات العلوم[1].

وقيل التفسير: أكثر ما يستعمل في الألفاظ ومفرداتها، والتأويل: أكثر ما يستعمل في المعاني والجمل.

وقيل التفسير هو بيان المعاني التي تستفاد من وضع العبارة، والتأويل هو بيان المعاني التي تستفاد بطريق الإشارة وقد اشتهر هذا عند المتأخرين قال الألوسي: (كل ما قيل مما ذكرنا ومما لم نذكر مخالف للعرف اليوم. إذ قد تعورف عند المؤلفين من غير نكير أن التأويل معان قدسية، ومعارف ربانية، تنهل من سحب الغيب على قلوب العارفين. والتفسير غير ذلك) اهـ. فأنت ترى أنه جعل التأويل خاصاً بما كان مأخوذا بالإشارة أي الفقه والفهم للمعاني البعيدة أو قراءة ما بين السطور ومعرفة ما تشير إليه الآيات ـ أما التفسير فإنه خاص بما كان مفهومًا بطريق العبارة أي الشرح والإيضاح لمدلول ألفاظ القرآن الكريم.

ونحن نميل إلى ترجيح القول القائل بأن التفسير ما كان راجعا إلى الرواية والتأويل ما كان راجعا إلى الدراية.

لأن التفسير معناه الكشف والبيان واعتماد ذلك على الكتاب والسنة وما أثر عن الصحابة، أما التأويل فملحوظ فيه الاجتهاد في ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدليل وبذل الجهد في استنباط المعاني من الكتاب العزيز.

وبعبارة أخرى أكثر اعتماد التفسير على النقل، وأكثر اعتماد التأويل على العقل.

وحين نفسر القرآن، فلا غنى لنا عن الاعتماد على النقل والعقل كلاهما.

---

(١) الإتقان ٢/ ١٧٣.

الفصل الأول

تاريخ التفسير

١ ـ التفسير في عهد النبي ﷺ .
٢ ـ التفسير في عهد الصحابة.
٣ ـ التفسير في عهد التابعين.
٤ ـ التفسير في عهد تابعي التابعين.
٥ ـ تفسير ابن جرير الطبري.
٦ ـ التفسير النقلي والعقلي.
٧ ـ التفسير بين القديم والحديث.
٨ ـ الإمام محمد عبده.
٩ ـ تفسير المنار.
١٠ ـ منهج الإمام محمد عبده في التفسير.

١ ـ التفسير في عهد النبي ﷺ

نزل القرآن الكريم بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا يفهمونه، ويدركون أغراضه ومراميه، وإن تفاوتوا في هذا الفهم والإدراك، تبعا لاختلاف درجاتهم العلمية، ومواهبهم العقلية، ولعل ابن خلدون كان مبالغاً حين ذهب إلى أن الصحابة جميعاً كانوا في فهمه سواء[١]، فقد قال ابن قتيبة، وهو ممن تقدم على ابن خلدون ببضعة قرون: (إن العرب لا تستوى في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه، بل إن بعضها يفضل في ذلك على بعض)[٢].

وقال مسروق: «جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ[٣]. فالإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم، فوجدت عبد الله بن مسعود من ذلك الإخاذ»[٤].

وكان الصحابة رضوان الله عليهم، إذا أشكل عليهم معنى من معاني القرآن، لجئوا إلى رسول الله ﷺ فيوضحه لهم، ويبينه، كما قال تعالى: ﴿وأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٤).

فمن ذلك ما رواه أحمد والشيخان وغيرهم عن ابن مسعود قال: «لما نزلت الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ (الأنعام: ٨٢) شق ذلك على الناس

---

(١) المقدمة ص ٤٨٩.

(٢) ابن قتيبة المسائل والأجوبة ص ٨.

(٣) الإخاذ جمع إخاذة وهي كالغدير يجتمع فيه الماء، وجمع الإخاذ أخذ مثل كتاب وكتب، (صحاح الجوهري٢/ ٥٦٠).

(٤) طبقات ابن سعد ٢/ ١٠٥.

فقالوا: يارسول الله وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: إن الشرك لظلم عظيم؟ إنما هو الشرك».

وما رواه الترمذي وابن حبان، أن رسول الله ﷺ قال: «الصلاة الوسطى صلاة العصر».

وما أخرجه مسلم أن رسول الله ﷺ قال:ـ وهو على المنبر ـ «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» ألا وإن القوة الرمي.

وما أخرجه الترمذي. . أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر. وأن كلمة التقوى[1] هي لا إله إلا الله.

وما أخرجه أحمد ومسلم عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «الكوثر نهر أعطانيه ربي في الجنة»[2].

وغير هذا كثير مما صح عن رسول الله ﷺ .

«وفي صحيح البخاري كتابان هما: كتاب تفسير القرآن وكتاب فضائل القرآن، يشغلان حيزا واضحاً من الكتاب ربما كان نحو الثمن منه»[3].

وقد اختلف العلماء في المقدار الذي بينه النبي ﷺ لأصحابه من القرآن.

فمنهم من ذهب إلى أنه بين لأصحابه كل معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه[4].

ومنهم من ذهب إلى أنه لم يبين لأصحابه من معاني القرآن إلا القليل[5] وقد استدل كل فريق لرأيه بعدد من الأدلة[6].

---

(١) في قوله تعالى: ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾.

(٢) الإتقان ١٩١/٢ ـ ٢٠٥.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية مادة تفسير: ٣٤٩/٥ (تعليق الأستاذ أمين الخولي).

(٤) ابن تيمية مقدمة في أصول التفسير ص٥.

(٥) الإتقان ١٧٩/٢.

(٦) الإتقان ٢٠٥/٢ وفي أدلة الفريق الآخر انظر القرطبي ٣١/١ والإتقان: ٢ـ١٧٤.

والحق أن رسول الله ﷺ بين الكثير من معاني القرآن لأصحابه كما تشهد بذلك كتب الصحاح، ولم يبين كل معاني القرآن، لأن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه، ومنه ما يعلمه العلماء: ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها، ومنه مالا يعذر أحد في جهالته.

قال ابن عباس: «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تعرفه العلماء وتفسير لا يعلمه إلا الله»[1].

ولعل الروعة الدينية لهذا العهد، والمستوى العقلي لأهله، ووضوح حاجات حياتهم العملية، وتطبيق الرسول ﷺ للقرآن تطبيقاً عملياً في حياته، حتى قالت عائشة: كان خلقه القرآن، كل هذا جعل حاجتهم إلى التفسير غير كبيرة، خصوصاً أنهم كانوا يعيشون في معاني القرآن، ويتسابقون إلى العمل بآياته قبل أن يحفظوا الجديد منها، إلى جوار بيان الرسول ﷺ لمجمل القرآن، وتوضيحه لمشكله، وتخصيصه لعامه، وتقييده لمطلقه، فمن ذلك بيانه لمواقيت الصلوات الخمس وعدد ركعاتها وكيفيتها، وبيانه لمقادير الزكاة وأوقاتها وأنواعها، وبيانه لمناسك الحج.

فكان القدوة الحسنة في السلوك القرآني، والتطبيق العملي لأوامر القرآن، ولذا ورد في الحديث: «صلوا كما رأيتموني أصلي».

ومن توضيح المشكل: تفسيره ﷺ للخيط الأبيض والخيط الأسود في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾[2] بأنه بياض النهار وسواد الليل.

ومن تقييد المطلق، تقييده اليد باليمين في قوله تعالى: ﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ (المائدة:٣٨).

وكان ﷺ يبين لهم معاني القرآن وأهدافه، وروحه العامة، في سفره وإقامته،

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري: ١/٢٥

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٧.

وحربه وسلمه، وغزوه وجهاده، حتى قال يحيى بن كثير: السنة قاضية على الكتاب وليس الكتاب بقاض على السنة، وعن الفضل بن زياد: سمعت أحمد بن حنبل، وقد سئل عن قول يحيى هذا، فقال: ما أجسر على هذا أن أقوله، ولكني أقول: إن السنة تفسر الكتاب وتبينه.

٢ ـ التفسير في عهد الصحابة

كان القرآن هو المرجع الأول للمسلمين في ذلك العصر أيضا، يقرءونه في صلاتهم، ويهدرون به في غزوهم ويرتلونه في قيام ليلهم.

وكان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، إذا لم يجدوا التفسير في كتاب الله تعالى، ولم يتيسر لهم أخذه عن رسول الله ﷺ، رجعوا في ذلك إلى اجتهادهم وإعمال رأيهم، وساعدهم على التفسير، أنهم عرب خلص، يعرفون معاني اللغة وأسرارها، وأنهم عاشوا فترة نزول الوحي مع النبي، فعرفوا أسباب النزول، وأدركوا ما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات تعين على فهم كثير من الآيات، لهذا قال الواحدي: «لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان سبب نزولها».

غير أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا متفاوتين في قدرتهم على تفسير القرآن، تبعا لمقدار سماعهم التفسير من رسول الله ولمقدار ما شاهدوا من أسباب النزول، ولمدى ما فتح الله عليهم من طريق الرأي والاجتهاد، قال تعالى: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ (البقرة: ٢٦٩).

قال السيوطي في الإتقان: «ولقد اشتهر بالتفسير من الصحابة: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير».

وهناك من تكلم من الصحابة في التفسير كأبي هريرة (ت ٥٧ هـ) وجابر بن عبد الله (ت ٧٤ هـ) وعبد الله بن عمر (ت ٧٣ هـ) وعبد الله بن عمرو بن العاص (ت ٦٣ هـ) وأنس بن مالك (ت ٩١ هـ)، غير أن ما نقل عنهم في التفسير قليل جدا بالنسبة للعشرة الذين ذكرهم السيوطي.

وأكثر من روى عنهم من هؤلاء العشرة، أربعة هم: عبد الله بن عباس، عبد الله ابن مسعود، ثم على بن أبي طالب، ثم أبي بن كعب، رضي الله عنهم جميعاً.

٣- التفسير في عهد التابعين

لم يدون التفسير في عهد الصحابة، لقرب العهد برسول الله ﷺ، ولقلة الاختلاف والتمكن من الرجوع إلى الثقات.

فلما انقضى عصر الصحابة أو كاد، وصار الأمر إلى تابعيهم، انتشر الإسلام واتسعت الأمصار وتفرقت الصحابة في الأقطار، وحدثت الفتن واختلفت الآراء، وكثرت الفتاوي والرجوع إلى الكبراء، فأخذوا في تدوين الحديث والفقه وعلوم القرآن[١].

فأول ما دونوه من العلوم التفسير، ومن أقدم التفاسير تفسير أبي العالية رفيع بن مهران الرياحي (ت ٩٠ هـ)، ومجاهد بن جبر (ت ١٠١ هـ) ثم تفسير عطاء بن أبي رباح (ت ١١٤ هـ) ثم تفسير محمد بن كعب القرظي (ت ١١٧ هـ)[٢].

وقد انقسمت جماعة المفسرين إلى ثلاث مدارس:

الأولى: مفسرو مكة المكرمة، وهم تلاميذ عبد الله بن عباس.

والثانية: مفسرو الكوفة، وهم تلاميذ عبد الله بن مسعود.

---

(١) حاجي خليفة ١/ ٣٣.

(٢) حاجي خليفة ١/ ٤٢٧.

والثالثة: مفسرو المدينة، وهم أصحاب زيد بن أسلم العدوي.

وإذا قارنا بين التفسير في عهد الصحابة، والتفسير في عهد التابعين خرجنا بالنتائج الآتية:

(أ) التفسير في عهد الصحابة:

١ ـ لم يفسر القرآن جميعه إنما فسر ما غمض منه.
٢ ـ قلة الاختلاف في فهم معاني القرآن.
٣ ـ الاكتفاء بالمعاني الإجمالية للآيات.
٤ ـ قلة الخلاف المذهبي حول الآيات.
٥ ـ لم يدون التفسير.
٦ ـ اتخذ التفسير شكل الحديث.
٧ ـ قلة الرجوع إلى أهل الكتاب.

(ب) التفسير في عهد التابعين:

١ ـ ظهرت تفاسير شاملة لأكثر آيات القرآن.
٢ ـ زاد الخلاف نسبيا في فهم معاني القرآن عما كان في عصر الصحابة.
٣ ـ ظهر تفسير لكل آية ولكل لفظة.
٤ ـ زاد الخلاف المذهبي حول الآيات مثل تفسير قتادة والحسن البصري حول القدرة.
٥ ـ دون التفسير.
٦ ـ استقل التفسير في كتب مستقلة وإن ظل في شكل رواية الحديث.
٧ ـ كثر الرجوع إلى أهل الكتاب ودخل في التفسير كثير من الإسرائيليات وذلك لكثرة من دخل من أهل الكتاب في الإسلام وتساهل التابعين في الاستماع إليهم.

ابتداء التدوين في عصر التابعين:

ابتدأ في هذا العصر تدوين التفسير والتصنيف فيه. وأول كتاب ظهر في التفسير كان لسعيد بن جبير بن هشام الكوفي الأسدي بالولاء، ولي بني والبة بن

الحارث بطن من بني أسد بن خزيمة المتوفي سنة ٩٥هـ، قتله الحجاج، وكان أعلم التابعين في التفسير. نص على ذلك قتادة وحكاه السيوطي في الإتقان، كما نسب تدوين التفسير إلى مجاهد قال ابن أبي مليكة: «رأيت مجاهدا يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه فيقول ابن عباس: اكتب. قال: حتى سأله عن التفسير كله»[1].

وتميزت في عصر التابعين أيضاً ثلاث مدارس في التفسير:

١ ـ مدرسة مكة، وأصحابها تلاميذ ابن عباس رضي الله عنهم ومنهم:

أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكي المتوفي سنة ١٠١هـ، حكى عن نفسه أنه عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، وقد اعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري.

وعكرمة مولى ابن عباس المتوفي سنة ١٠٥هـ.
وطاووس بن كيسان اليماني المتوفي بمكة سنة ١٠٦هـ.
وعطاء بن أبي رباح المكي المتوفي سنة ١١٤هـ.

٢ ـ ومدرسة العراق، وأصحابها تلاميذ ابن مسعود ومنهم:

مسروق بن الأجدع الكوفي المتوفي سنة ٦٣هـ[2]. والأسود بن يزيد المتوفي سنة ٧٥هـ.

وعلقمة بن قيس المتوفي سنة ١٠٢هـ.
وعامر الشعبي المتوفي سنة ١٠٥هـ.
وقتادة بن دعامة السدوسي البصري المتوفي سنة ١٧٧هـ.
والحسن البصري المتوفي سنة ١٢١هـ.

---

(١) ابن جرير الطبري. تفسير ١/ ٣٠

(٢) انظر تهذيب التهذيب ١٠/ ١٠٩ ـ ١١١.

٣ ـ ومدرسة المدينة، ورجالها تلاميذ أبي بن كعب، وأصحاب زيد بن أسلم المتوفي سنة ١٣٦هـ. ومنهم:

أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي المتوفي سنة ٩٠هـ.

ومحمد بن كعب القرظي المتوفي سنة ١١٨هـ.

ومحمد بن كعب القرظي المتوفي سنة ١١٨هـ.

٤ـ التفسير في عهد تابعي التابعين

في هذا العهد اتجهت الهمم إلى جمع ما أثر من التفسير عن رسول الله ﷺ، وعن صحابته وعن التابعين بدون تفرقة بين المدارس الثلاث التي امتازت في عصر التابعين بروايات مخصوصة.

فدونوا علم التفسير في الكتب الصغار والكبار، وصارت كتبهم أجمع للعلم من الكتب السابقة.

واشتهر من بينهم:

مقاتل بن سليمان المتوفي سنة ١٥٠هـ.

وشعبة بن الحجاج المتوفي سنة ١٦٠هـ.

وسيفان بن سعيد الثوري المتوفي سنة ١٦١هـ.

ووكيع بن الجراح المتوفي سنة ١٩٧هـ.

وسيفان بن عيينة المتوفي سنة ١٩٨هـ.

ويزيد بن هارون المتوفي سنة ٢٠٦هـ.

وروح بن عبادة القيسي المتوفي سنة ٢٠٧هـ.

وعبد الرزاق بن همام الصنعاني شيخ الإمام البخاري في الحديث، المتوفي سنة ٢١١هـ، وتفسيره مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية وتوجد نسخة منه بمكتبة إستانبول بتركيا.

وإسحاق بن راهويه المتوفي سنة ٢٣٨هـ.

وآدم بن أبي إياس العسقلاني المتوفي سنة ٢٢٠هـ.

وقد ضاع أكثر هذه التفاسير فلم يبق منها، في علمي، إلا تفسير سفيان الثوري، وقد طبع حديثا بالهند، وتفسير عبد الرزاق بن همام الصنعاني، وتفسير مقاتل بن سليمان، وقد جمعت نسخة من أنحاء العالم وقمت بتحقيقه تمهيداً لنشره إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

٥- تفسير ابن جرير الطبري المتوفي سنة ٣١٠هـ

إذا كان معظم التفاسير في عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم لم تصل إلينا، فإن مضمون ما فيها قد نقله إلينا محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير الكبير المتداول بين الناس الآن.

قال السيوطي: (وكتابه أجل التفاسير وأعظمها، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، والإعراب والاستنباط فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين).

وقال النووي: أجمعت الأمة على أنه لم يصنف في التفسير مثل تفسير الطبري.

ويقع تفسير ابن جرير في ثلاثين جزءاً من الحجم الكبير، وقد كان هذا الكتاب من عهد قريب يكاد يعتبر مفقوداً لا وجود له، ثم قدر الله له الظهور والتداول، فكان مفاجأة سارة للأوساط الإسلامية، والعلمية أن وجدت في حيازة أمير حائل: الأمير حمود ابن الأمير عبد الرشيد من أمراء نجد، نسخة مخطوطة كاملة من هذا الكتاب. طبع عليها التفسير في مطبعة بولاق بالقاهرة فأصبحت في يدنا دائرة معارف غنية في التفسير المأثور[1].

---

(١) المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص٨٦، وقد طبع تفسير الطبري عدة طبعات بعد ذلك، ومن أحدث الطبعات طبعة دار المعارف بتحقيق وتخريج الأسانيد للعلامة أحمد شاكر وأخيه العلامة محمود شاكر، وقد توقفت هذه الطبعة بعد الجزء السادس عشر.

قال ابن تيمية: «وأما التفاسير التي بأيدي الناس، فأصحها تفسير محمد بن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين، كمقاتل بن بكير[1]، والكلبي»[2].

وقد ظهر بعد ابن جرير عدة تفاسير بالمأثور منها تفسير أبي بكر بن المنذر النيسابوري المتوفي سنة ٣١٨هـ. وابن أبي حاتم المتوفي سنة ٣٢٧هـ، وأبو الشيخ ابن حيان المتوفي سنة ٣٦٩هـ، والحاكم المتوفي سنة ٤٠٥هـ، وابن مردويه المتوفي سنة ٤١٠هـ، وغيرهم.

٦ـ التفسير النقلي والتفسير العقلي

كان جمهور الصحابة والتابعين وتابعيهم يتحرون التفسير بالمأثور.

بل كان منهم من يفضل المشي في النار على القول في القرآن بالرأي.

وكان ابن جرير يورد المأثور من الأقوال في الآية ويرجح بعضها على بعض، وغالباً ما يعتمد في الترجيح على قوة السند.

وقد أنكر بشدة على من فسر القرآن برأيه بدون اعتماد على شيء إلا على مجرد اللغة[3].

ولكنا مع ذلك نعتبر ابن جرير ممن جمع بين النقل والعقل وإن كان تفسيره من أهم مراجع التفسير النقلي، إلا أنه مع ذلك يعتبر مرجعاً عظيم الأهمية من مراجع التفسير العقلي، نظراً لما فيه من الاستنباط وتوجيه الأقوال، واختيار أولاها بالصواب اختيارا يعتمد على صحة السند، كما يعتمد على النظر العقلي والبحث الحر الدقيق، فهو قد احتكم إلى المعروف من كلام العرب، ورجع إلى الشعر القديم بشكل

---

(١) هكذا بالأصل وصوابها بشير.

(٢) فتاوى ابن تيمية ٢/ ١٩٢.

(٣) انظر تفسيره للاية ٤٩ من سورة يوسف جـ ١٢ ص ١٣٨.

واسع، متبعا في هذا ما أثاره ابن عباس سابقا[1]، كما اهتم بالمذاهب النحوية[2] والأحكام الفقهية[3] وبعض مسائل علم الكلام[4].

فيمكن أن نعتبر تفسير ابن جرير من التفاسير التي جمعت بين النقل والعقل.

ونلاحظ أن المأثور عن رسول الله ﷺ في تفسير القرآن كان محدوداً، ثم كثر التفسير النقلي عن الصحابة والتابعين، ثم نشأت طبقة جمعت المأثور من التفسير عن النبي ﷺ وأصحابه وتابعيهم، منهم من أضاف إلى التفسير رأيه واجتهاده، ومنهم من جمع التفسير النقلي ثم فسر الآيات التي لم يرد فيها تفسير بالمأثور تفسيرا اجتهاديا عقليا، معتمداً على ما عرف من لغة العرب وأساليبها، وما ورد من التاريخ في الأحداث التي حدثت في عصر النبي ﷺ.

«وقد وقف الناس في ذلك موقفين وانقسموا فريقين. فقوم تشددوا في التفسير فلم يروا أن يجرءوا على تفسير شيء من القرآن ما لم يرد فيه قول للنبي ﷺ أو للصحابة، كالذي روى عن عبد الله بن عمر أنه قال: «لقد أدركت فقهاء المدينة وأنهم ليعظمون القول في التفسير، منهم سالم بن عبد الله والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيب ونافع»[5].

وقال الشعبي: ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت: القرآن، والروح، والرأي[6].

ومن أمثلة ذلك الأصمعي، فهو مع علمه الواسع باللغة، كان شديد الاحتراز في تفسير الكتاب والسنة، فإذا سئل عن شيء منها قال: العرب تقول معنى هذا كذا، ولا أعلم المراد منه في الكتاب والسنة أي شيء هو[7].

---

(١) انظر تفسيره للآية ٢٢ من سورة البقرة ١/ ١٢٥.

(٢) انظر تفسيره للآية ١٨ من سورة إبراهيم ١٣/ ١٣١.

(٣) انظر تفسيره للآية ٨ من سورة النحل ٤/ ٥٧ ـ ٥٨.

(٤) انظر تفسيره للآية ٧ آخر سورة الفاتحة ١/ ٦٤.

(٥) أحمد أمين ضحى الإسلام ٢/ ١٤٤ ط ٦.

(٦) تفسير الطبري ١/ ٢٩.

(٧) ابن خلكان ١/ ٤٠٩.

وأمثال هؤلاء حملوا على المفسرين بالرأي، ورووا حديث (من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ).

وفريق آخر لم يجدوا بأسا ولا حرجا من تفسير القرآن باجتهادهم معتمدين على درايتهم باللغة وأساليبها، وما يتصل بذلك من العلم بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ.

قال الماوردي: «قد حمل بعض المتورعين هذا الحديث على ظاهره، وامتنع من أن يستنبط معاني القرآن باجتهاده، ولو صحبها الشواهد ولم يعارض شواهدها نص صريح، وهذا عدول عما تعبدنا بمعرفته من النظر في القرآن واستنباط الأحكام، كما قال تعالى ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (النساء: ٨٣) ولو صح ما ذهب إليه لم يعلم شيء من الاستنباط، ولما فهم الأكثر من كتاب الله، وإن صح الحديث فتأويله: «من تكلم في القرآن بمجرد رأيه فقد أخطأ».

وقد كان أكثر من قام بالتفسير العقلي علماء العراق أصحاب مدرسة الرأي في التشريع، وتلاميذ ابن مسعود أستاذ أصحاب الرأي.

وقد فرق قوم بين التفسير والتأويل، بناء على الاعتماد على النقل والعقل.

فعنوا بالتفسير ما اعتمد فيه على النقل، مما ورد عن رسول الله ﷺ والصدر الأول، وبخاصة في الأمور التوقيفية التي ليس للعقل فيها كبير مجال، كتفسير الحروف المقطعة: آلم، حم، يس، وكأسباب النزول والناسخ والمنسوخ. وعنوا بالتأويل ما يعتمد فيه على الاجتهاد، ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ، ومدلولاتها في لغة العرب واستعمالها بحسب السياق، ومعرفة الأساليب العربية واستنباط المعاني من كل ذلك.

وقد انقسمت كتب التفاسير إلى هذين النوعين: كتب التفسير بالمأثور، وكتب التفسير بالمعقول.

وفي ختام هذا المبحث نذكر خلاصة موجزة عن تاريخ التفسير:

١ ـ بدأ التفسير بتوضيح النبي ﷺ لبعض الآيات، وبذلك يعتبر النبي الأمين أول مفسر للقرآن.

٢ ـ اتسع نطاق التفسير كلما بعد العهد بالنبوة لحاجة الناس إلى التفسير وبعدهم عن ملابسات نزول القرآن.

٣ ـ لم يكن التفسير لذات التفسير بل نشأ التفسير إجابة عما غمض وتوضيحا لما أشكل وتفسيرا لما أبهم.

فلم يفسر النبي الأمين جميع القرآن بل فسر آيات منه، وتعهد أصحابه القرآن قراءة وفهما وتوضيحا، فاتسع نطاق التفسير نسبيا، ولكنه لم يشمل جميع القرآن، ويؤيد هذا قول الإمام الشافعي (لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث)[1].

٤ ـ أقدم تفسير مطبوع الآن هو تفسير الثوري (ت ١٦١هـ)، وهو تفسير بالمأثور، وقاصر على تفسير بعض الآيات، وقد طبع حديثاً بالهند.

٥ ـ أقدم تفسير كامل للقرآن وصل إلينا هو تفسير مقاتل بن سليمان البلخي (ت ١٥٠هـ) وقد تناول تفسير القرآن آية آية، حتى فسر جميع القرآن.

٦ ـ كثير من التفاسير المبكرة ضاعت ولم تصل إلينا، ويعتبر تفسير ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) أقدم وثيقة تجمع هذه التفاسير.

٧ ـ استمرت عناية المسلمين بالقرآن في جميع العصور الإسلامية، فألف حوله من الكتب مالا يحصى. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (سورة الحجر: ٩).

٧ـ التفسير بين القديم والحديث

القرآن كتاب الله الخالد، والمعجزة الأبدية، أنزله الله هدى ونورا وشفاء لما في

---

(١) الإتقان ٢/١٨٩.

الصدور. وتكفل النبي ﷺ بشرحه وتبيينه للناس، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٤).

ولحق الرسول الأمين بالرفيق الأعلى وظل القرآن الكريم في مكان الصدارة يقرؤه المسلمون في غدوهم ورواحهم ويهتمون بدراسته وتفسيره على مر العصور.

مدارس التفسير:

نشأت مدارس للتفسير بمكة، والمدينة، والعراق. وتميز الحجاز بلزوم التفسير بالمأثور، كما تميز العراق بالتفسير المعقول، ونشأ اتجاهان في تفسير القرآن إلى يومنا هذا، هما التفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي.

ونشأت مساجلات حول تفضيل أحدهما على الآخر. لكنا في النهاية نرى أنه لا غنى لأحدهما عن الآخر فمفسر القرآن ملزم بمعرفة تاريخ التشريع وأسباب النزول ومعرفة المكي والمدني والناسخ والمنسوخ وما أثر عن النبي ﷺ وصحابته، والتابعين في تفسير الآية ثم هو ملزم باستخدام العقل والرأي إذا لم يجد أثراً في الآية، أو وجد أثرا معلوما أو مضطربا، فعليه أن يجتهد برأية إذا كان من أهل الاجتهاد والاستنباط كما قال سبحانه: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (النساء: ٨٣) .

قال القرطبي: «النهي عن التفسير بالرأي يحمل على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكون له في الشيء رأي، وإليه ميل من طبعه وهواه لينجح على تصحيح غرضه، ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى.

أما الوجه الثاني: فإنه يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهاره بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيه من الألفاظ المبهمة وما فيه من الاختصار والحذف، والتقديم والتأخير فمن لم يحكم بظاهر التفسير، وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه، ودخل في زمرة من فسر القرآن

بالرأي، والنقل والسماع لابد منهما لمن أراد التفسير أولاً، ليتقي بهما مواضع الغلط، ثم بعد ذلك ليتسع الفهم والاستنباط»[1].

فالتفسير بالرأي المذموم هو الذي يعتمد في تفسير الآية على مجرد الهوى ولا يعتمد في رأيه على نص أو إجماع أو شهادة من اللغة أو يتلاءم مع روح الشريعة.

أما إذا كان الغرض هو الكشف عن المعاني الدقيقة التي يحتملها اللفظ في الآيات الكريمة بحيث لا ينكره الدين، وكان المفسر أهلا لذلك بأن كان حائزا لمبادئ العلوم اللازمة له، كالنحو والصرف وعلم البلاغة، متمكنا من أصول الدين ومن الفقه وأصوله فجائز[2].

العناية بالقرآن:

لقد عَنِيَ المسلمون الأولون بالقرآن قراءة وفهما ودراسة وحفظا وعلماً وعملاً، فكان القرآن كتاب حياة ووجود، اتبعوا أحكامه ونفذوا أوامره، وأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، فكانوا سادة الدنيا وأساتذة العالمين، ثم تحول القرآن إلى كتاب دراسة، بعد أن كان دستور الحياة، فنشأت حول القرآن دراسات متعددة كان المقصود منها خدمة القرآن الكريم، فالنحو الذي يقوم اللسان ويعصمه من الخطأ، أريد به خدمة النطق الصحيح للقرآن، وعلوم البلاغة التي تبرز خصائص اللغة العربية وجمالها، أريد بها بيان نواحي الإعجاز في القرآن، والكشف عن أسراره الأدبية، وتتبع مفردات اللغة والتماس شواردها وشواهدها وضبط ألفاظها، وتحديد معانيها، وصيانة ألفاظ القرآن ومعانيه، أن تعدو عليها عوامل التحريف أو الغموض، والتجويد والقراءات لضبط أداء القرآن وحفظ لهجاته والتفسير لبيان معانيه والكشف عن مراميه.

والفقه لاستنباط أحكامه والأصول لبيان قواعد تشريعه العام وطريقة الاستنباط منه، وعلم الكلام لبيان ما جاء به من العقائد، وأسلوبه في الاستدلال عليها.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٣٤.

(٢) مجمع البحوث المؤتمر السادس، التفسير بالرأي.

وقل مثل هذا في التاريخ الذي يشتغل به المسلمون تحقيقا لما أوحى به الكتاب الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ (سورة يوسف: ٣).

وهكذا علوم الفلك والنجوم والطب وعلوم الحيوان والنبات وغير ذلك من العلوم.

اختلاف التفاسير باختلاف ثقافة المفسر

وتبعا لهذه الأنحاء المختلفة في نظر المسلمين إلى القرآن واشتغالهم به، نرى التفاسير ذات ألوان متعددة، فمنها ما يغلب عليه تطبيق قواعد النحو وبيان إعراب الكلمات وبنائها، ومنها ما يغلب عليه بيان نواحي البلاغة والإعجاز، ومنها ما يهتم بالفقه والتشريع وبيان أصول الأحكام وهكذا.

مقارنة:

وإذا قارنا بين تاريخ التفسير والأدوار التي مر بها وتاريخ التشريع الإسلامي والأدوار التي مر بها، وجدنا تلازما وتوافقا بينهما في القوة والضعف، فكلاهما مر بأطوار النشأة والنمو، ثم النضج والكمال، ثم التقليد والجمود، وأخيرا جاء عصر النهضة الحاضر.

فدور النشأة والنمو من البعثة المحمدية إلى سنة ١٠٠هـ، ودور النضج والكمال من سنة ١٠٠هـ إلى سنة ٣٥٠هـ، ودور التقليد والجمود من سنة ٣٥٠هـ إلى سنة ١٢٨٦هـ، ودور النهضة من سنة ١٢٨٦هـ إلى الوقت الحاضر.

التفسير في دور التخلف:

نشأ تفسير القرآن شرحا للفظ غامض أو توضيحا لمعنى بعيد، ثم تطور إلى تفسير بالمأثور وتفسير بالرأي. وفي عهد التقليد والجمود تأثر التفسير بثقافة المفسر وليس ذلك عيبا بذاته، ولكن العيب أن يتحول التفسير إلى كتاب في القواعد والإعراب، أو البلاغة والبيان، أو آراء الفرق والرد عليها، فينصرف الناس عن القرآن وهدايته وروحه السامية، إلى ما كتبه المفسرون من علوم واصطلاحات وفنون ومعارف فيها كل شيء إلا التفسير.

قال السيد رشيد رضا في مقدمة تفسير المنار:

«كان من سوء حظ المسلمين أن أكثر ما كتب في التفسير يشغل قارئه عن مقاصد القرآن العالية وهدايته السامية، فمنها ما يشغله عن القرآن بمباحث الإعراب، وقواعد النحو، ونكت المعاني، ومصطلحات البيان.

ومنها ما يصرفه عنه بجدل المتكلمين وتخريجات الأصوليين واستنباط الفقهاء المقلدين وتأويلات المتصوفين، وتعصب الفرق والمذاهب بعضها على بعض، وبعضها يلفته عنه بكثرة الروايات وما مزجت به خرافات الإسرائيليات، وقد زاد الفخر الرازي صارفا آخر عن القرآن هو ما يورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة على ما كانت عليه في عهده كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها، وقلده بعض المعاصرين بإيراد مثل ذلك من علوم هذا العصر وفنونه الكثيرة الواسعة، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصولا طويلة ـ بمناسبة كلمة مفردة كالسماء والأرض ـ من علوم الفلك والنبات والحيوان تصد قارئها عما أنزل الله لأجله القرآن، فكانت الحاجة شديدة إلى تفسير تتوجه العناية الأولى فيه إلى هداية القرآن على الوجه الذي يتفق مع الآيات الكريمة المنزلة في وصفه، وما أنزل لأجله من الإنذار والتبشير والهداية والإصلاح وهو ما ترى، تفصيل الكلام عليه في المقدمة المقتبسة من دروس شيخنا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله تعالى وأحسن جزاءه.

ثم إلى العناية إلى مقتضى حال هذا العصر في سهولة التعبير ومراعاة أفهام صنوف القارئين، وكشف شبهات المشتغلين بالفلسفة والعلوم الطبيعية وغيرها».

التفسير في عصر النهضة:

١ ـ كان السيد جمال الدين الأفغاني أساس النهضة الإسلامية الحديثة، ورجل الإصلاح الذي نفخ في هذا الشرق من روحه الفياضة فدبت فيه الكرامة والعزة وعادت إليه ذكريات أمجاده وماضيه العريق.

٢ ـ حمل راية الإصلاح تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده، وكان إصلاحه دينيا اجتماعيا واهتم لذلك بتفسير القرآن الكريم وجعله أساسا لتربيته، ونهضته الاجتماعية، وأفكاره التربوية للنهوض بالأمة المصرية والإسلامية.

٣ ـ انتقل الإمام إلى رحمة الله، واستمر السيد رشيد رضا في تفسير المنار إلى سورة يوسف: ويعتبر هذا التفسير مرجعاً ممتازاً لكل مفسر في العصر الحديث.

وقد فتح الإمام محمد عبده عين الطريق لمن جاء بعده من المفسرين الذين استفادوا من تفسيره وتابعوا مسيرته، وعاد للتفسير نضارته ويسره، وقوته وروحه ولعل هذا من أسرار حفظ الله لكتابه كما قال الحق سبحانه ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ (الحجر: ٩).

٨ـ الإمام محمد عبده وأثره في التفسير

هو محمد بن عبده بن حسن خير الله، ولد سنة ١٨٤٩م وتوفي سنة ١٩٠٥م وقد نشأ في قرية محلة نصر مركز شبراخيت مديرية البحيرة وهي قرية تبعد عن دمنهور بنحو خمسة عشر كيلو مترا، وتقع على ترعة تسمى الأنصارية.

وكانت أسرته متوسطة الحال ويقول عن نفسه: «إنه تعلم القراءة والكتابة في منزل ولده، ثم انتقل إلى دار حافظ للقرآن فقرأ عليه القرآن، وأتم حفظه في سنتين» ثم ذهب إلى المسجد الأحمدي بطنطا ليتعلم تجويد القرآن وقواعد اللغة العربية.

ونجح الإمام في تعلم التجويد وأتم فنونه في سنتين على الوجه الأكمل وفي سنة (١٢٨١هـ: ١٨٦٤م) جلس في دروس العلم في المسجد الأحمدي لكن منهج التعليم كان وعرا شاقا يتبع الطريقة التقليدية التي تعتمد على الحفظ وحشو الذهن بالمعلومات وعلى أن المعرفة مقصودة لذاتها قال الإمام في الترجمة التي كتبها لنفسه:

«وقضيت سنة ونصفا لا أفهم شيئاً لرداءة طريقة التعليم فأدركني اليأس من النجاح وهربت من الدرس، واختفيت عند أخوالي مدة ثلاثة أشهر، ثم عثر عليَّ

أخي وأخذني إلى المسجد الأحمدي وأراد إكراهي على طلب العلم، فأبيت وقلت له: قد أيقنت أن لا نجاح لي من طلب العلم ولم يبق على إلا أن أعود إلى بلدي وأشتغل بملاحظة الزراعة كما يشتغل الكثرة من أقاربي، وانتهى الجدل بتغلبي عليه، وأخذت ما كان لي من ثياب ومتاع ورجعت إلى محلة نصر على نية ألا أعود إلى طلب العلم، وتزوجت في سنة (١٢٨٢هـ: ١٨٦٥م على هذه النية)[1].

عاد الإمام إلى طلب العلم مكرها مجبرا فقد أجبره أبوه وأخوه على العودة إلى الجامع الأحمدي، ولما كان الإمام يائسا من متابعة الدراسة بهذا المعهد بعد أن قضى به سنة ونصفا لا يفهم شيئاً، فقد هرب في قرية (كنيسة أورين) وهي قرية من قرى شبراخيت غالب سكانها من خئولة أبيه، وهناك اتصل بمعلمه الأول ومفتاح سعادته الشيخ درويش خضر أحد أخوال أبيه، وهو رجل سبقت له أسفار إلى صحراء ليبيا، ووصل إلى طرابلس الغرب وجلس إلى السيد محمد المدني، وتعلم عنده شيئا من العلم وأخذ عنه الطريقة الشاذلية، وكان يحفظ كتب الحديث ويجيد حفظ القرآن وفهمه: ثم رجع من أسفاره إلى قريته واشتغل بالزراعة.

كان الشيخ درويش خضر موجها ومربيا ومعلماً وفيه قوة نفسية تؤثر وتجذب، وقد استشف ما في نفسية الفتى الهارب واستطاع أن يكبح جماحه، وأن يحول بغضه للمعرفة والعلم إلى حب شديد وأخذ يبث فيه النزوع إلى المثل الإنسانية، والدينية العليا والتلميذ يتلقى ما يلقى عليه، تلقى الصادى للماء العذب الفرات، وتجاوبت النفسان والتقى القلبان، وقد حكى الإمام لنا هذه الطريقة التربوية فقال:

«جاءني هذا الشيخ وبيده كتاب يحتوي على رسائل كتبها السند محمد المدني إلى بعض مريديه بالأطراف بخط مغربي دقيق، وسألني أن أقرأ له فيها شيئاً لضعف بصره، فدفعت طلبه بشدة ولعنت القراءة ومن يشتغل بها، ونفرت منه أشد النفور، ولما وضع الكتاب بين يدي رميته إلى بعيد، لكن الشيخ تبسم وتجلى في ألطف مظاهر الحلم، ولم يزل بي حتى أخذت الكتاب وقرأت منه بضعة أسطر، فاندفع

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ١/ ٢٠.

يفسر لي معاني مـا قرأت بعبارة واضحة تغالب إعراضي فتـغلبه وتسبق إلى نفسي، وبعد قليل جاء الشـبان يدعونني إلى ركوب الخيل واللعب بالسلاح، والـسباحة في نهر قريب من القرية فـرميت الكتاب، وانصرفت إليهم، وبعد العـصرجاءني الشيخ بكتابه وألح علي في قراءة شـيء منه فقرأت وفسر، ثم تركـته إلى اللعب وفعل في اليوم الثاني كـما فعل في اليوم الأول، أما اليـوم الثالث فقد بقيت أقـرأ له فيه وهو يشرح لي معاني ما أقرأ نحو ثلاث ساعات لم أمل فيها، فقال لي إنه في حاجة إلى الذهاب إلى المزرعة، ليعمل بعض العمل فيها فطلبت منه إبقاء الكتاب معي فتركه، ومضيت أقرؤه وكلما مررت بعبارة لم أفهمـها وضعت عليها علامة لأسأله عنها إلى أن جاء وقت الظهر، وعصيت فـي ذلك اليوم كل رغبة في اللعب وهو ينازعني إلى البطالة، وعصر ذلك اليوم سـألته عما لم أفهمه فأبان مـعناه على عادته وظهر عليه الفرح بما تجدد عندي من الرغبة في المطالعة والميل إلى الفهم.

كانت هذه الرسائل تحتـوي على شيء من معارف الصوفية وكثـير من كلامهم، في آداب النفس وترويـضهـا علـى مكارم الأخـلاق وتطهـيـرها من دنس الرذائل، وتزهيدها في الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا.

لم يأت على اليوم الخامس إلا وقد صار أبغض شيء إلى ما كنت أحبه من لعب ولهو، وفـخفخة وزهو، وعـاد أحب شيء إلى ما كنت أبغضه من مطالعـة وفهم، وكرهت صور أولئك الشبان الذين كانو يدعونني إلى ما كنت أحب، ويزهدونني في عشـرة الشيخ رحمـه الله فكنت لا أحتـمل أو أرى واحدا منهم بل أفـر من لقائهم جميعاً كما يفر السليم من الأجرب.

وفي اليوم السـابع سألت الشيخ ـ ما هي طـريقتكم؟ فقال: طريقـتنا الإسلام، فقلت: أو ليس كل هؤلاء مسلمين؟ قال: لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمر، ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب.

هذه الكلمات كانت كأنها نار أحرقت جمـيع ما كان عندي من المتاع القديم ـ متاع تلك الدعاوى الباطلة والمزاعم الفاسدة، متـاع الغرور بأننا مسلمون ناجون وإن كنا في

غمرة ساهين، سألته مـا وردكم الذي يتلى في الخلوات أو عقب الصلوات؟ فقال: لا ورد لنا سوى القرآن، نقرأ بعد كل صلاة أربعة أرباع مع الفهم والتدبر. قلت له: أنى لي أن أفهم القرآن ولم أتعلم شيئاً؟ قال: أقرأ معك ويكفيك أن تفهم الجملة وببركتها يفيض الله علـيك بالتفصـيل، وإذا خلوت فاذكـر الله ـ على طريقة بينهـا ـ وأخذت أعمل على مـا قال من اليـوم الثامن فلم تمض على بضـعة أيام إلا وقد رأيـتني أطير بنفسي في عالم آخر، غير الذي كنت أعهده، واتسع لي ما كان ضيقاً، وصغر عندي من الدنيـا ما كان كـبيـراً وعظم عندي من أمر العـرفان والنزوع بالنفس إلـى جانب القدس ما كان صغيراً، وتفرقت عني جميع الهموم، ولم يبق لي إلا هم واحد، وهو أن أكون كامل المعرفة، كامل أدب النفس، ولم أجـد إماماً. . يرشدني إلى ما وجهت إليه نفسي، إلا ذلك الشيخ الذي أخرجني في بضـعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة، ومن قيود التقليـد إلى إطلاق التوحيد ـ هذا هو الأثر الذي وجدته في نفسي من صحبة أحد أقاربي، وهو الشيخ درويش خضر من أهل (كنيسة أورين) من مديرية البحيرة، وهو مفتاح سعادتي إن كانت لي سعادة في هذه الدنيا، وهو الذي رد لي ما كان قد غاب عن غريزتي، وكشف لي ما كان خفيا عني مما أودع في فطرتي»[1].

ونلمح أثر الصدق في حـديث الإمام عن نفسه، ونحس مدى الحـسرة التي كان يلقـاها طالب العلم الديني آنذاك حين يذهب إلى منابـع العلم، فلا يجـد إلا منابع آسنة قد تغير طعمها من طول الركود.

وقد عمل الإمــام جاهداً في كبره على تطوير مناهج التـعليم في الأزهر، بحيث يخرج الأزهر رجالا عـاملين وعلماء مستنيرين وبذل جـهداً كبيراً في سـبيل تأسيس جامعة مدنية بجوار الجامعة الأزهرية.

عودة إلى طنطا:

رجع الشيخ محمـد عبده إلى المسجد الأحمـدي وأقبل على المدرسين في شغف وتلهف للمعرفة، ففهم الدروس ثم تميز على زملائه فالتفوا حوله ليطالع لهم. .

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ١/٢٣.

واستقـرت في ذهن الإمام هذه النوازع الصوفيـة التي غرسها فـيه الشيخ درويش خضر، وساعد عـلى استقرارها مظاهر الدراويش والأولياء في مسجد سـيدي أحمد البدوي، ولكنه كـان تصوفا سلبـيا يميل إلى المعـرفة وهضم النفس والاعتـماد على الإشارات، والفيوضات والإلهامات. وقد اعتمد الإمام على إشارة أحد الدراويش له بالسفر إلى القاهرة.

قـال الإمام: «وفـي يوم من شهـر رجب من تلك السـنة، سنة ١٢٨٢هـ» كنت أطالع بين الطلبة، وأقرر لهم مـعاني شرح الزرقاني فرأيت أمامي شخـصاً، يشبه أن يكون من أولئك الذين يسـمونهم بالمجـاذيب فلما رفعت رأسي قـال ما مـعناه: ما أحلى حلواء مصر البيضاء، فقلت لـه: وأين الحلوى التي معك؟ فقال: سبحان الله من جد وجد. ثم انصـرف، فعددت ذلك القول ساقه الله لـي ليحملني على طلب العلم في مصر دون طنطا».

٦ـ دراسته في الجامع الأزهر:

ذهب الشيخ محمد عبده إلى الجامع الأزهر في شوال سنة ١٢٨٢هـ ـ فبراير سنة ١٨٦٦م.

ولم تكن طريقـة التـعليم فـيه تخـتلف كـثـيراً عن طريـقة التـعليم في الجـامع الأحمـدي، تلك الطريقـة الجامـدة العقـيمـة التي كانت تفـرض على طلاب العلم مخـتصـرات، لا تفـهم إلا بشروح وحـواشي وتقارير وإنما تزحم ذاكـرتهم بحـشد مشـوش من المعلومات النحوية المتـشابكة، والتدقـيقات اللفظيـة التي تزهق الفكر، وتعـوقه عن النمـو ولا تنمي في التلـميـذ الملاحظة والاسـتنتاج، وقـد وصف هذه الطريقة بعض علمـاء الفرنجة فـقال: «ولئن كانت أنماط التـعليم والبحث في الأزهر تختلف عما هو مستعمل في الغـرب الآن اختلافاً أساسيا، فهي لا تختلف في شيء عن الأنماط التي كانت عندنا قديماً».

أثر العلوم النقليـة في قهر العـقول الذي أخذ في التـلاشي عندنا منذ قرون، لا يـزال في عنفـوان سطوتـه في الجـامعات الإسـلامية ـ «ليس الغـرض من العلم عند

أهل الأزهر، هو البحث للتحقيق والمقارنة والتمحيص، ولكنه النقل الصحيح لما ترك الأقدمون».

«والمفروض أن الأجيال متراجعة إلى الانحطاط، والأجيال الحاضرة والمقبلة تتصل بعصر النبي ﷺ من طريق هابط من أعلى إلى أسفل، والأئمة المجتهدون بعداء في عصور ذاهبة في أعماق الماضي، لا يستطيع الحاضر أن يدرك غبارها»[1].

ضاق الإمام بطريقة التدريس في الأزهر، ولكن الأقدار التي هيأت له الشيخ درويش خضر عند أزمته من الجامع الأحمدي قد هيأت له في الأزهر أساتذة ممتازين، استطاعوا أن يجذبوا انتباهه وأن يحببوا إليه أنواعاً من العلوم، والمعارف التي لم تكن تدرس في الأزهر، منهم الشيخ حسن الطويل، وهو رجل عشق الحكمة وقت أن كرهها الناس، وعشق الفلسفة يوم أن كانت تعد لونا من ألوان الإلحاد.

كان الشيخ الطويل يدرس كتب ابن سينا ومنطق أرسطو، وهي كتب لم تكن مألوفة في الأزهر، فتعرف عليها الشيخ محمد عبده عن طريق أستاذه هذا، وضم بذلك في تحصيل معرفته إلى كتب الأزهر التقليدية هذه الكتب الفلسفية، وكما هيأ له القدر أن يتتلمذ على الشيخ حسن الطويل وهو رجل يعالج الحكمة، هيأ له أن يتتلمذ على الشيخ البسيوني الأديب، وهو شيخ يعني بمعالجة الأسلوب الأدبي، وبالفصاحة والبيان العربي. لا كما عنى صاحب شروح التلخيص بذلك، وإنما على نحو آخر هو أن الأدب والبيان دربة وملكة، وذوق وإحساس، أكثر منها قواعد ومناهج.

فلم ينشأ الشيخ محمد عبده باتجاه واحد وإنما تأثر بتصوف الشيخ درويش، وفلسفة الشيخ الطويل، وأدب الشيخ البسيوني، وتزمت الشيخ عليش وزملائه من أساتذة الأزهر، وكل هذه العوامل والمؤثرات تفاعلت في ذهنه وساعدت على تكوين شخصيته، وتنمية مواهبه واستعداده الفطري.

إلى جوار نفس أبيه وهمة عالية ورغبة في الإصلاح وأفق واسع يفهم الإسلام، ويدرس القرآن فيرى فيه موسوعة إلهية تكفلت بالصلاح والإصلاح، وكانت نورا

---

(١) ترجمة الأستاذ الإمام، لفضيلة الأستاذ مصطفى عبد الرازق. كتاب الهلال العدد ٩٦ مارس سنة ١٩٥٩م.

وهدى للسابقين وهي الملاذ والنجاة للحاضرين، ولذلك اهتم الإمـام بتفسير القرآن، وكان تفسيره فتحا إلهيا ونهضة دينيـة، وثورة تشريعية استفاد بها المسلمون وكان لها أكبر الأثر في التطور، والإصلاح في العصر الحديث.

٩ـ الإمام محمد عبده وتفسير المنار

من معالم التفسـير البارزة في العصر الحديث، تفسير الإمام مـحمد عبده للقرآن الكريم، ذلك أن الإمام كـان شعلة أضاءت الطـريق لمن جاء بعده، وكـان علماً من أعلام التوجيه والحرية والإصلاح الديني والاجتماعي.

وقـد أيقـن الأسـتـاذ الإمـام «أن التربيـة الحـقيـقية وإصـلاح شأن الأمـة وتقويم أخلاقهـا وتعليـم بنيهـا ومحاربـة الفسـاد فيهـا كل ذلك كفـيل بأن يهيئ البلاد لحالة أسلم وأحسن».

وقد تأثر الشـيخ محمد عبـده في منهجه الإصلاحي والديني بـعدد من الأساتذة والمصلحين، وكان من أبرز من تأثر بهم السـيد جمال الدين الأفـغاني الذي قدم إلى مصر سنة ١٨٨٧م، ثم التقى به الشيخ محمد عـبده، ولازم مجالسه، واتخذ جمال الدين أخاً وصديقاً وترجمانا لأفكاره.

كان جمال الدين يعلم الحكمة ويوعز بالتفكير الحر واستقلال الفكر مع غيرة على الإسلام وأهله، ورغبة في جمع أشتات المسلمين.

وكان من أثر جـمال الدين اتجاه المجـاور الشيخ محـمد عبـده إلى الإصلاح، إذ شرع يكتب في جـريدة (الأهرام) فصولاً متـتابعة سامـية المنزع مشتـملة على أصول الدعوة الإصلاحيـة التي صرف حياته في سبيلها، وقد اسـترعت تلك الفصول نظر الناس إلى ذلك الفتى الناهـض إلى السابعة والعشـرين من عمره، نهـضة المصلحين الكبار عاقلاً جريئاً.

وصل صدى تلك المقالات إلى أسماع الجامدين من الشـيوخ والتقى فيها بحديث

ملازمة كاتبها للسيد جمال الدين الأفغاني، واشتغاله بالفلسفة وترجيحه لبعض مذاهب المعتزلة، ونهيه عن التقليد، ودعوته إلى الاشتغال بالعلوم الحديثة، وتحبيذه لعلوم الفرنجة وإطالة شعره أيضا.

دخل الشيخ محمد عبده مجلس الامتحان سنة (١٢٩٤هـ ـ ١٨٧٧م) وكل ذلك ينتظره في صدور أعضائه، ما عدا الرجل المنصف الشيخ محمد المهدي العباسي، شيخ الأزهر لذلك العهد ورئيس لجنة الامتحان.

ولولا قوة الشيخ محمد عبده في علمه، وفي نفسه قوة باهرة وترفع الشيخ المهدي عن الظلم، لقضى مجلس الامتحان بأن ذلك المجاور المضطهد لا يستحق نجاحاً.

نال الشيخ محمد عبده شهادة العالمية من الدرجة الثانية. وهو ابن ثمان وعشرين سنة، فشعر لأول مرة بأنه انتصر على خصومه الجامدين، أعداء الإصلاح برغم جاههم وكثرتهم، وزاده ذلك نشاطاً، فأخذ يكتب في الصحف، وقد بدأت العقول تتفتح، كما تتفتح أكمام الورد، وتولى رياسة تحرير الوقائع، فاتخذ منها منبراً للتوجيه والدعوة إلى الهدى وإلى صراط مستقيم، وانضم إليه من تلاميذه وصحبه من عاونوه في رسالته وقد قبسوا من علم جمال الدين ما قبس، وكان لبعضهم في الوطنية والعلم مقام مشهود.

كل ذلك وبوادر الثورة السياسية قد ظهرت فخب فيها الإمام محمد عبده ووضع، ولما احتلت مصر بعد خيانة كبير حكامها، كان الشيخ ممن أصابتهم عقوبتها، فسجن ونفي، ولكنه همة لا تقل، وعزيمة لا تكل، فالتقى بشيخه وصديقه جمال الدين، وأخذا يعملان على جمع شمل المسلمين، وبعد جهود مضنية من الرجلين رأى التلميذ أن أسلم طريق لإيقاظ الأفهام هو تعليم المسلمين، ورأى الشيخ الأستاذ مع ذلك ضرورة إيقاظ الهمم، فافترقا كل يعمل على منهاجه.

أخذ يلقي محمد عبده دروسه في الشام، ثم لما عاد من منفاه أخذ يلقي دروسه الباعثة الموقظة بين الأزهريين، وقد عين في منصب من أعلى مناصب القضاء، عسى أن يصرف عن رسالته التي حملها وصار وحده الحامل لها، خصوصاً بعد وفاة

صديقه جمال الدين، ولكنه لم يصرف عنها، لأنها منبعثة من قلبه وإيمانه، لا من تكليف حاكم، أو من تعيين في منصب، ورسالته هي التعليم، فأنشأ الجمعية الخيرية الإسلامية للتعليم وعقد الندوات العلمية، وألقى الدروس والمحاضرات، وكان الدرس الذي يمكنه من أداء رسالته العلمية هو تفسير القرآن، فهو معجزة الإسلام، وفيه شريعته، وهو حبل الله الذي يعتصم به المسلمون، وهو برهان الله ونوره المبين ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة: ١٦).

لقد وجهه شيخه الصوفي إلى القرآن وتدبره، وأسلم منهج لتفسيره، وهو فهم المعنى الإجمالي ثم التوجه بعد ذلك بصفاء نفسي إلى معانيه السامية، فإنه لابد من أن تسمو نفس طالب علم القرآن، حتى يعلو إلى إدراك سموه، وإنك لترى الإمام محمد عبده يتجه في تفسيره اتجاها لم يملكه أحد من المفسرين، فإن المفسرين من قبله كانوا إما أن يعتمدوا على الأثر، وإما أن يعتمدوا على ما تؤديه الألفاظ من معان، وما يشتمل عليه القرآن في ألفاظه وجمله وأساليبه من بلاغة، وقليل منهم من كان يغوص في تدبر هذه المعاني - كما قال الغزالي - فوراءها آفاق للتدبر والتأمل، وقد حاول الإمام بالتزامه منهاج التدبر في المعاني أن يوجه أذهان تلاميذه إلى أسرار المعاني القرآنية، وإنك تقرأ ما نقل من تفسيره - وأحسب أن النقل كان مقرباً لما قاله الإمام وليس محققا لكل ما قال، ولا مصورا لكل ما أراد - فتجد المحاولة الجدية لمعرفة ما في آيات القرآن من مرام وغايات، وتقرأ تفسير آيات كتبها بقلمه كتفسير قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (البقرة: ٢١٣) فتجد فيها المحاولة بينة رائعة عظيمة.

والإمام في تفسيره كان حريصاً على تنقية الإسلام وتفسير القرآن من الشوائب، وإن طائفة كبيرة من الإسرائيليات دخلت في تفسير القرآن، فكانت حجابا حاجزاً عند بعض المفسرين دون التغلغل في إدراك معانيه فكان من عمل الإمام في دروسه أن أزال هذه الغواشي، فيما نشر، لتبدو صفحة القرآن متألقة ونورها بينا.

وإن تلك الغواشي كـانت كثيفة إلى درجـة أن وقع بعض كبار المفسـرين في أغلاط بسببها، وإذا كان العابثون بالديانات السمـاوية قد حرفوا الكلم عن مواضعه في بعضها، فـأنهم قد عـجزوا عن ذلك في القـرآن، لأن الله حـفظه، ولأنه بأسلوبه فوق تحـريف المحـرفين، وأي كلام يلحق به يبـدو بادي الرأي مميـزاً، ولم يحاول أحـد ذلك لعجـزه ابتداء، وقـد حفظ متواترا في الصـدور لا في السطور فلا سبيل لمحـرف أن يصل إليه، ولكن أولئك جاءوه من تلك الإسرائيليات ليشوهوا جماله، ومع ذلك جعل الله في كل عصر من أئمة الحق من يرد زيفهم، وكان من أبرزهم في العصر الحديث الأستاذ الإمام.

ولقد كان الإمام يقرأ مايقرأ حتى أنه كان يقرأ نحو خمسة وعشرين تفسيراً ما بين مطبوع ومخطوط، ولكنه يستعين بمجموعها، إلى لباب المعنى، لا لينقل ما فيها، أو يتيه فيما يقرأ.

وكان يتخـذ من منبر القرآن طريقا لـبيان البدع والأوهام، وما فـرق أمر المسلمين بعد الإجماع، ويوضح الفـرقة الفكرية والسبيل إلى تلافيها، بالاجـتماع على مائدة القرآن والأخـذ من ورده الصفي، وعلمه النقـي، ولقد تكونت مدرسـة من العلماء والمثقـفين تطلب علم الإمام وترويـه وتنشره، ومن أقوى هذه المدارس تـأثراً بالإمام السيد رشـيد رضا، فقد حـاول في تفسير المنار حكاية طريقة الـشيخ، ولكن طريقة الإمام كانت طاقة نفسية، وليست منهاجاً فقط، ولذلك لا نجد في الأجزاء التي أتمها السيد رشيد رضا التغلغل الذي كنا نراه في المنقول عن الإمام. ولكن تفسير المنار قد اشتمل على أمرين لم يكونا في تفسير الإمام محمد عبده.

أولهما: العناية بدعم التفسير بالمأثور عن النبي ﷺ وذلك بلا ريب خير كله.

وثانيهمـا: النقل الكثير عن المفسرين، وأن السـبب في ذلك أن الإمام كان يلقي درساً، فكان يلقي ما تمثل في عقله وقـلبه مما قرأ وتأمل وتدبر في القرآن، ولأن كل همة نفسه كانت متجهة إلى لباب القرآن.

قال السيد رشيد رضا في مقدمـة تفسير المنار: «هذا وإنني لما استقللت بالعمل بعد وفاته، خالفت منهجه رحمه الله بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة، سواء

كان تفسيراً لها أو في حكمها، وفي تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية، والمسائل الخلافية بين العلماء، وفي الإكثارمن شواهد الآيات في السور المختلفة وفي بعض الاستطرادات، لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها بما يثبتهم بهداية دينهم في هذا العصر، أو يقوي حجتهم على خصومهم من الكفار والمبتدعة، أو يحل بعض المشكلات التي أعيا حلها بما يطمئن به القلب، وتسكن إليه النفس، واستحسن للقارئ أن يقرأ الفصول الاستطرادية وحدها، في غير الوقت الذي يقرأ فيه التفسير لتدبر القرآن والاهتداء به في نفسه، وفي النهوض بإصلاح أمته وتجديد شباب ملته»[1].

والمتأمل في نهضة التفسير في العصر الحديث يرى أن منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم كان قبسا أضاء الطريق لمن جاء بعده من المفسرين، وأن أول من استضاء بهدى الإمام في التفسير، هو تلميذه السيد رشيد رضا الذي أتم تفسير المنار من أول سورة البقرة إلى منتصف سورة يوسف، حيث ينتهي إلى الجزء الثاني عشر من القرآن الكريم، وكتب في نهايته: «تم تفسير الجزء الثاني عشر في المحرم ١٣٥٤هـ والله نسأل توفيقنا لإتمام سائر هذا التفسير بما يرضاه وله الحمد والمنة».

ولكن المنية عاجلته فلقى ربه قبل إتمامه.

وعلى الصفحة الأولى من تفسير المنار نجد العنوان التالي:

تفسير القرآن الحكيم

«تفسير سلفي أثري مدني عصري إرشادي اجتماعي سياسي».

هذا هو التفسير الوحيد الجامع بين صحيح المأثور، وصريح المعقول، وتحقيق الفروع والأصول وحل جميع مشكلات الدين، ودحض شبهات الماديين والجاحدين وإقامة حجج الإسلام، وبيان سياسته المثلى في إصلاح الأنام، مع حكم التشريع وسنن الله في الاجتماع. وكون القرآن هداية عامة للبشر في كل زمان ومكان،

---

(١) تفسير المنار ١٦/١.

وحجة الله البالغة، وآيته المعجزة الخالدة، ويوازن بين هدايته وما عليه المسلمون في هذا العصر من الضعف والعجز، وقد أعرض أكثرهم عنها، وما كان عليه سلفهم من السيادة والعزة إذ كانوا معتصمين بحبلها، بما يثبت أنها هي السبيل لسعادة الدنيا والدين مراعى فيه السهولة في التعبير، مجتنبا كثرة مزج الكلام باصطلاحات العلوم والفنون، بحيث تهتدي به العامة وهو منتهى طلبة الخاصة وهذه هي الطريقة التي توخاها في دروسه في الأزهر حكيم الإسلام الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.

(الأجزاء من ١ ـ ١٣) تأليف السيد محمد رشيد رضا ـ منشئ مجلة المنار.

وهذا العنوان المطول يعطي فكرة صادقة عن تفسير المنار، كما تميز تفسير المنار ـ أيضاً ـ بفهرس أبجدي ييسر للباحث الوصول إلى هدفه ويرشد إلى عقلية مرتبة في التأليف والتفسير جعلت من تفسير المنار موسوعة إسلامية في الفقه والأصول والتشريع والسياسة الشرعية، والتاريخ، وغير ذلك من العلوم الإسلامية.

١٠ ـ منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن

ظل القرآن الكريم على مر القرون مصدر الهداية وطريق الإصلاح، لقد جمع العرب بعد تفرق، ووحدهم بعد شتات، وأعطاهم مفاتيح الأرض، فأداروها في أقفالها، ففتحوا المشارق والمغارب وكانوا خير أمة أخرجت للناس.

ومرت الأمة الإسلامية بفترات من التخلف والركود، هجر فيها القرآن، وتركت تعاليمه، فتغيرت حال الأمة من عز إلى ذل، ومن نصر إلى هزيمة، مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

وقد ظهر الإمام محمد عبده في فجر النهضة الحديثة، فاتخذ من تفسير القرآن الكريم منبراً لتوجيه الأمة، وتربية أبنائها وبث روح الإيمان في قلوبها، وكان تفسيره فتحاً جديداً وطريقة رائدة تأثر بها كثير من أئمة الإصلاح والتوجيه، وأساتذة التفسير والتشريع في العصر الحديث.

ويعتمد منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن على تسعة أسس:

الأساس الأول ـ عموم القرآن وشموله:

لقد ختم الله الرسالات برسالة محمد ﷺ، وختم الكتب السماوية بالقرآن الكريم، وهو كتاب البشرية الخالدة ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)، «ومعاني القرآن عامة وشاملة وإرشاده مستمر إلى يوم القيامة فلا يحمل وعظه ووعده ووعيده على أشخاص بعينهم، وإنما نيط وعده ووعيده وتبشيره وإنذاره بالعقائد والأخلاق والعادات والأعمال التي توجد في الأمم والشعوب»[١].

وكثيرًا ما كان يتوسع الأستاذ الإمام في معنى الآيات أو يحمل النظير على النظير ليطبق القرآن على ما هو واقع بين الناس: فهو إذ يفسر الآيات الواردة في صفات المنافقين من أول سورة البقرة، يطبق هذه الصفات على المنافقين في عصرنا، وفي كل عصر «فلا يغترن أحد بقول بعض المفسرين إن هذه الآيات نزلت في المنافقين الذين كانوا في عصر النبي ﷺ، فيتوهم أنها لا تتناوله وإن كانت منطبقة عليه، لأنه لم يتخذ القرآن إماما وهاديا، ولم يستعمل عقله ومشاعره فيما خلقت له، بل اكتفى من ذلك بتقليد آبائه ومعاصريه في كل ما هم فيه».

الأساس الثاني ـ الوحدة الموضوعية للسورة ووصل الآيات بعضها ببعض:

لكل سورة من سور القرآن روح تسري في أجزائها وفكرة عامة تربط بين آياتها وقد كانت فكرة التناسب والتناسق بين الآيات المتجاورة تسيطر عليه في تفسيره وفي ترجيح بعض آراء سابقيه على بعض، بل ربما روى آراء السابقين من المفسرين ثم رفضها جميعها لأنها لا تحقق التناسق بين الآيات، فنراه يستهل تفسيره لسورة الفجر قائلاً: «كثر الخلاف بين المفسرين والرواة في معنى كل من الفجر وليال عشر، وقد يفسر الواحد منهم الفجر بمعنى، ثم يأتي في الليالي العشر بما لا يلائمه، وغالب ذلك يجري على خلاف ما عودنا الله في نسق كتابه الكريم».

---

(١) تفسير المنار، ١/١٧٩ ـ ١٨٠.

ثم يفسر الفجر بأنه جنس ذلك الوقت المعروف الذي يظهر فيه بياض النهار في جلد الليل، وينبعث الضياء لمطاردة الظلام. ويفسر الليالي العشر بالليالي العشر الأول من كل شهر، وهي الليالي التي يبتدئ فيها تكون الهلال، ولا يزال يشق الظلام إلى أن يغلبه فينشر نوره على الأفق، فكأنه وضع التناسب على شيء من التقابل، فضوء الصبح يهزم ظلمة الليل، وضوء الأهلة يغالب الظلام إلى أن يغلبه فيسدل على الكون حجبه.

والوحدة في منهج السور القرآنية تتميز عن الوحدة الفنية في الإنتاج الأدبي للإنسان، فالقصة مثلاً، لها قواعد فنية تحكم تأليفها مثل العقدة والصراع والمأزق والحل.

ولكن القرآن الكريم كتاب هداية، قد يكتفي من ذكر القصة أو الحادثة بما يحقق هذه الهداية، وأحياناً يبسط الموضوع وأحياناً يوجزه حسب مقتضى الحال.

وأحياناً يترك الموضوع ويتكلم عن شيء مناسب أو مجانس، ثم يرجع إلى الموضوع الأول أو ينتقل إلى غيره، وهذا مسلك لو اتبعه بشر لكان تأليفه تافها ساقطا، ولكن القرآن كتاب الله وهو على كل شيء قدير. ومن قدرته أنه يؤلف بين الأجناس المختلفة، فترى بينها نهاية التضام والالتحام. وكل امرئ يستطيع أن يجرب نفسه حين يطول به الوقوف أمام منظر واحد جميل، هل يجد لديه من هزة الاستحسان في هذا الاستمرار ما يجده لو اعترض سلسلة من المناظر الرائعة، قد صفت فيها ضروب الفوائد والمتع، ثم جعلت تمر في أبدع تنسيق وأحسن تقويم؟ اللهم لا فذلك كذلك[1].

ويميل الأستاذ الإمام إلى أن فكرة السورة يجب أن تكون أساسا في فهم آياتها، والموضوع يجب أن يكون أساساً في فهم الآيات التي نزلت فيه، وكان هذا من أسباب رفضه كل تفسير لا يحقق التناسق والتوافق بين أجزاء السورة[2].

وتأثر به في ذلك أساتذة التفسير في العصر الحديث كالسيد الأستاذ رشيد رضا،

---

(١) د. محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم: ص ١٦٢ حاشية.

(٢) انظر تفسيره لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ (آل عمران: ٣٧) تفسير المنار، ٣/ ٢٩٣.

وفضيلة الأستاذ محمد مصطفى المراغي، وفضيلة الدكتور محمد عبد الله دراز، وفضيلة الأستاذ محمود شلتوت. . وغيرهم.

الأساس الثالث: اعتبار القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع وتقديمه على كلام الفقهاء ومذاهبهم المشهورة:

وقد اعتمد الإمام على القرآن وحده في إباحة التيمم للمسافر مع قدرته على استعمال الماء مخالفاً في ذلك جميع المذاهب، معتمداً على قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ (النساء: ٤٣)، وتكرر ذلك في سورة المائدة آية ٦. وقد شايعه في هذه الطريقة تلميذه السيد رشيد رضا، فاسترسل مؤكداً أن القرآن هو الأصل الأول لهذا الدين وأن حكم الله يلتمس فيه أولاً فإن وجد فيه يؤخذ وعليه يعول، فإن لم يوجد الحكم في القرآن نلتمسه من سنة الرسول ﷺ قال السيد رشيد رضا:

«سيقول أدعياء العلم من المقلدين: نعم إن الآية واضحة المعنى على الوجه الذي قررتم ولكنها تقتضي أن التيمم في السفر جائز ولو مع وجود الماء وهذا مخالف للمذاهب المعروفة عندنا، ونقول لهؤلاء المقلدين: إن ظاهر الآية متفق مع غيره من الرخص الشرعية للمسافر التي منها قصر الصلاة وجمعها، وإباحة الفطر في رمضان، فهل يستنكر مع هذا أن يرخص للمسافر في ترك الغسل والوضوء، وهما دون الصلاة والصيام في نظر الدين؟».

«هل يقول منصف إن صلاة الظهر أو العصر ـ أربعا في السفر ـ أسهل من الغسل أو الوضوء فيه؟

إن السفر مظنة المشقة يشق فيه غالباً كل ما يؤتى في الحضر بسهولة، وأشق ما يشق فيه الغسل والوضوء، وإن كان الماء حاضراً مستغنى عنه»[1].

---

(١) تفسير المنار ٥/ ١٢١.

ومما ينبغي مراعاته في هذا المقام أن الفقه الإسلامي قد مر بمراحل يمر بها الكائن الحي وهي عصر النشأة وعصر الشباب، وعصر النضج والكمال وأخيراً عصر التقليد.

وفي عصر التقليد التزم الفقهاء والمفسرون مذاهب أئمتهم وتعصبوا لها بل حملوا القرآن عليها وفهموه في ضوئها، فانتقد الإمام محمد عبده وتلميذه رشيد رضا هذه التفاسير التي تقدم آراء المذاهب على كتاب الله، وبينا أن القرآن إمام غير مأموم وأصل وما عداه تبع له.

الأساس الرابع: محاربة التقليد والجمود:

(أ) لقد ذم الإمام التقليد في تفكير المسلم المتأخر وأوجب الرجوع إلى فهم المسلمين الأولين للقرآن.

ووجد أن آيات القرآن الكريم حافلة بالدعوة إلى استخدام العقل والفكر وحث الإنسان على التأمل والنظر والاستنباط. كما ذم القرآن تقليد السابقين تقليدا أعمى لا تدبر فيه. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٠).

فالتقليد المذكور في هذه الآية قبيح مذموم، وقريب من هذا النوع عند الإمام، تقليد العلماء الذين يصرحون بأنهم مقلدون لا يلزمهم النظر في الكتاب والسنة بل يعتمدون على ما كتب غيرهم في الفقه ويدينون لكتب المتقدمين على تعارضها وتناقضها ويكتفون بقولهم: وكلهم من رسول ملتمس.

وفي تفسير الإمام لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١)، نراه يستدل بآخر هذه الآية على أن «القرآن علم أهله أن يطالبوا الناس بالحجة، لأنه أقامهم على سواء المحجة. وجدير بصاحب اليقين أن يطالب خصمه به ويدعوه إليه. وعلى هذا درج سلف هذه الأمة الصالح، قالوا بالدليل، وطالبوا بالدليل ونهوا

على الأخذ بشيء أبداً من غير دليل، ثم جاء الخلف الطالح فحكم بالتقليد وأمر بالتقليد ونهى عن الاستدلال على غير صحة التقليد حتى كأن الإسلام خرج عن حده، أو انقلب إلى ضده، وصار الذين يعلمون أن الإسلام امتاز عن سائر الأديان بإبطال التقليد، وبالمطالبة بالبرهان والدليل، وعلم الناس استقلال الفكر مع المشاورة في الأمر يطالبون المسلمين بالرجوع إلى الدليل ويعيبون عليهم الأخذ بقال وقيل، وياليته الأخذ بقول الله وقيل فيما يروى عن رسول الله، ولكنه الأخذ بقال فلان وقيل عن علان[1]. ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ (النجم: ٢٣).

(ب) وقد كان الأستاذ الإمام متأثراً في ذلك بحالة المسلمين الراهنة وما أصابهم من ضعف سياسي وضعف في الثقافة الإسلامية الموروثة التي لصق بها من عوامل الضعف والتقليد ما جعلها عاجزة عن أن تواجه تيار الحياة المتجدد، وعاجزة عن أن تواجه الحياة الحديثة في أسلوبها وأن تلائم بين أحداثها وتعاليم الإسلام، بينما كان لطوافه في أوروبا واطلاعه على نهضة القوم واتباعهم المنهج العلمي الحديث في البحث والمقارنة والاستنتاج أثره في دعوته المسلمين إلى ترك التقليد واحترام عقولهم والاعتماد عليها في الفهم والاستنتاج والاستنباط.

وهو لذلك يدعو العلماء إلى الاعتماد على كتب القرون المتوسطة كالقرن الثالث والرابع الهجري. وعدم الاعتماد على كتب القرون المتأخرة التي ألفت في عهد الضعف السياسي والفكري، ويضرب مثلا فيقول: «هذا الشوكاني لما كسر قيود التقليد الأعمى، حيث كان وهابيا معتدلاً صار عالماً وفقيها. إن حالة الفقهاء هي التي ضيعت الدين، إن الناس تعرض لهم باختلاف الزمان أمور ووقائع لم ينص عليها في الكتب فهل يوقف سير العالم لأجل كتبهم؟ هذا لا يستطاع ولذلك اضطر العوام والحكام إلى ترك الأحكام الشرعية ولجئوا إلى غيرها. إن أهل بخارى جوزوا الربا لضرورة الوقت عندهم. والمصريون قد ابتلوا بهذا فشدد الفقهاء على أغنياء

(١) المنار ١/ ٢٢٤.

البلاد فصاروا يرون أن الدين ناقص، فاضطر الناس إلى الاستدانة من الأجانب بأرباح فاحشة استنزفت ثروة البلاد وحولتها للأجانب، والفقهاء هم المسئولون عند الله عن هذا وعن كل ما عليه الناس من مخالفة للشريعة، لأنه كان يجب عليهم أن يعرفوا حالة العصر والزمان، ويطبقوا عليه الأحكام بصورة يمكن اتباعها (أي كأحكام الضرورات) لا أنهم يقتصرون على المحافظة على نقوش هذه الكتب ورسومها، ويجعلونها كل شيء ويتركون لأجلها كل شيء، يقرءون الأصول ولا يخطر ببال أحد منهم أن يرجع فرعاً من هذه الكتب إلى أصله أو يبحث عن دليله، بل لم يخجلوا أن يقولوا نحن مقلدون لا يلزمنا النظر في الكتاب والسنة»[1].

(جـ) وقد كان تفسير الأستاذ الإمام للقرآن الكريم محاولة موفقة لإظهار هذا التراث الإسلامي مسايرا للتطور موافقاً لمصالح الناس في كل زمان ومكان.

ودعا الإمام المسلمين إلى الاجتهاد ونادى بفتح باب الاجتهاد، وحارب الوهم الذي انتشر بين الناس القائل بأن باب الاجتهاد قد أغلق منذ قرون.

ومن أسباب ثورة الأستاذ الإمام على التقليد وندائه بضرورة الاجتهاد «أن الحياة الإنسانية للمجتمع الإنساني حياة متطورة ويجد فيها من الأحداث والمعاملات اليوم مالا يعرفه أمس هذه الجماعة، والاجتهاد هو الوسيلة المشروعة للملاءمة بين أحداث الحياة المتجددة وتعاليم الإسلام. ولو وقف الأمر بتعاليم الإسلام عند حد تفقه الأئمة السابقين لسارت الحياة الإنسانية في الجماعة الإسلامية في عزلة عن التوجيه الإسلامي. وبقيت أحداث هذه الحياة في بعد عن تجديد الإسلام إياها. وهذا الوضع يحرج المسلمين في إسلامهم كما يحرجهم في حياتهم»[2].

(د) وقد كان الإمام مصلحاً ومجتهداً، فراعى المصلحة العامة في تفسيره للقرآن الكريم وفي فتاويه العامة.

وطالب الحكام وأولي الأمر والفقهاء برعاية مصالح الناس في أحكامهم وفتاويهم.

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ١/ ٩٤٤، ٩٤٥.

(٢) الفكر الإسلامي الحديث: للدكتور محمد البهي ص: ١٣٧.

«فالشريعة الإسلامية عامة باقية إلى آخر الزمان ومن لوازم ذلك أنها تنطبق على مصالح الخلق في كل زمان ومكان، مهما تغيرت أساليب العمران، فأسس الشريعة حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال. وقد استخرج الأئمة والفقهاء رضي الله عنهم القواعد الكلية والأحكام الجزئية، وبنوها على أساس هذه الأصول الخمسة، ومن القواعد المتفق عليها بينهم أن العبرة بالمعاني لا بالألفاظ، وأن الضرورات تبيح المحظورات وأن المشقة تجلب التيسير، وأن الأمر إذا ضاق اتسع، وأن الضرر الخاص يتحمل لدفع الضرر العام، والضرر الأشد يزال بالأخف، وأن الأحكام تتغير بتغير الأزمان. ومن فهم كلام أئمة الفقه حق فهمه ألفاه لا يتعدى هذه القواعد»[1].

وقد درجت الشريعة على رعاية المصالح، فالقرآن يقول: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥) ويقول أيضاً: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ (المائدة: ٦). والأحاديث النبوية تقول «لا ضرر ولا ضرار» وتقول أيضاً: «يسروا ولا تعسروا» كما أن السلف من أصحاب رسول الله ﷺ جروا على مراعاة المصالح فيما لا يحصى من المسائل. من ذلك أن أبا بكر رضي الله عنه استخلف عمر مع أن رسول الله ﷺ لم يستخلف، وجمع صحف القرآن المتفرقة ولم يجمعها رسول الله ﷺ وحارب مانعي الزكاة، ولم يكن لشرب الخمر حد مقدر فجعله أربعين، وعمر رضي الله عنه لم يستخلف كما استخلف أبو بكر، وأسقط سهم المؤلفة قلوبهم في الصدقات وهو ثابت بالنص، وأسقط حد السرقة عام المجاعة وهو منصوص، وكان يشاطر من يتهمه من الولاة في ماله لاختلاط أموالهم الخاصة بأموال استفادوها بسلطان الولاية، وقتل الجماعة بالواحد حين اشتركوا في قتله، وأوقع الطلاق الثلاث بلفظ واحد ثلاثا حين تتابع الناس فيه وكان يحسب واحدة قبله، وأفتى بتطليق زوجة المفقود بعد أربع سنين من فقده وانقطاع خبره، ومنع بيع أمهات الأولاد، وترك التغريب في الزنا حين لحق أحد المغربين بالروم وتنصر، ونفى نصر بن حجاج - وكان شابا جميلاً - حين سمع بعض النساء يشبب بما يغريه، وغير ذلك كثير[2].

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ١/ ٣١٤.

(٢) أصول التشريع الإسلامي للأستاذ علي حسب الله ص ٨٥.

الأساس الخامس: إعمال النظر والفكر واستخدام المنهج العلمي في البحث والاستنباط:

وهذا الأساس مرتبط بالأساس السابق، فلئن كان ترك التقليد مبدأ أساسيا سلبيا، فإن النظر والتأمل والاستنباط مبدأ إيجابي. وهذا المبدأ يزعم الغربيون أن الفضل في العمل به يرجع إلى العلامة بيكون الفيلسوف الإنجليزي - الذي دعى إلى المنهج الحديث القائم على المشاهدة والتفكير المنظم.

وقد بين الإمام في أكثر من موضع أن هذا المبدأ قديم في أساسه، فالقرآن الكريم حافل بآيات تدعو الإنسان إلى النظر في الكون وتدبر آياته وعجائبه، بل اعتبر القرآن الكون كتابا مفتوحاً يجب على كل إنسان أن يتأمل في عجائبه وقوانينه ونواميسه قال تعالى: ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (يونس: ١٠١).

والإسلام في أساسه قائم على الإقناع واليقين، قال تعالى: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ (البقرة: ٢٥٦) ويرفض القرآن دعوى الإيمان إذا كانت قولاً باللسان لا يؤيده الجنان، قال تعالى: ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (الحجرات: ١٤).

وقد اتبع الإمام هذا الطريق في تفسير القرآن وفي رسالة التوحيد التي كتبها في أسلوب سهل ونظمها وبوبها وبين فيها فوائد الدين وميزة الإسلام في محاربة التقليد قال الإمام: «أمر الإسلام بالتوحيد فأصبح الإنسان عبد الله خاصة حرا من العبودية لكل ما سواه أنحى الإسلام على التقليد وصاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومه»[1].

وقد نبه الإمام أبناء جيله إلى الاجتهاد وتأثرت به مدرسة من العلماء تتبعت آراءه واعتنقت أفكاره ومن هذه المدرسة فضيلة الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر الأسبق، فقد بين فضل القرآن في دعوة الناس إلى النظر والتأمل واستشهد بجملة

(١) رسالة التوحيد تأليف الإمام محمد عبده ص ١٨١.

من الآيات مثل ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[1].

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2]. ثم قال الشيخ شلتوت: «ومن هذه الآيات وغيرها وهو كثير واضح في القرآن الكريم يتجلى أن الإسلام قد وجه الإنسان إلى البحث وتعرف خصائص الكائنات وأسرارها والانتفاع بها في بناء الحياة»[3].

الأساس السادس: تحكيم العقل حتى أنه يحاول تفسير خوارق العادات بما يقارب المألوف:

وقد أول الإمام بعض الآيات والمعجزات تأويلا مجازيا حتى يخضعها لقانون الأسباب والمسببات بدلاً من أن تكون داخلة في دائرة المعجزات.

فذكر أن الملائكة قوى ترشد إلى الخير وتهتف به في نفس الإنسان.

وأول سجود الملائكة بخضوعها وامتثالها لأمر الله.

وذكر أن معصية آدم حين أكل من الشجرة رمز لقدرته على فعل الخير والشر.

وهكذا كان للإمام رأي في خلق عيسى خلاصته أن الروح لها أثر كبير على الماديات، فالكهرباء والرياح العاتية تفتك بالمادة، ولما كان الملاك روحا فقد نفخ في جيب درع مريم، ولما بشر الله مريم بأنها ستحمل وهي على ما هي عليه من صحة الإيمان وقوة اليقين انفعل مزاجها بهذا الاعتقاد انفعالاً فعل في الرحم فعل التلقيح، كما يفعل الاعتقاد القوى في مزاج السليم فيمرض أو يموت وفي مزاج المريض فيبرأ، وكان نفخ الروح متمما لهذا التأثير.

ونحن نرى أن خلق عيسى كخلق آدم وحواء كله داخل في أمر المعجزة والله على

---

(1) لقمان/ ٢٠.

(2) الجاثية/ ١٢.

(3) منهج القرآن في بناء المجتمع لفضيلة الأستاذ محمود شلتوت، ص ٥٣.

كل شيء قدير فلا يحتاج لأسباب ملموسة لأنه داخل في قدرة الله وهو سبحانه خالق الأسباب، وإذا أراد أمرا قال له كن فيكون.

وقد فسر الإمام الجن والسحر والحسد وغيرها تفسيراً عقليا أثار ضجة بين العلماء، فهو لم ينكر وجود الجن كما فعل بعض المعتزلة، وإنما شدد النكير على الخرافات التي تتصل بالجن وجوز أن يكون لهم أثر فيما يسمى بالصرع، وذكر أكثر من مرة في تفسيره أن الجن يمكن أن يطلق على الميكروب الخفي الذي يسبب كثيراً من الأمراض.

وذهب الإمام إلى عدم إمكان رؤية الجن موافقاً بذلك الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾ (الأعراف: ٢٧).

وأما رؤية النبي ﷺ للجن فأمر خاص به ﷺ يحفظ ولا يقاس عليه لأنه معجزة خاصة برسول الله، وإذا تتبعنا مادة الجن في اللغة وجدناها تلازم معنى الستر والاختفاء مثل جن الظلام، أي ستر والجنين والأجنة في بطون أمهاتها مستورة، وجن فلان إذا ذهب عقله فاختفى واستتر، المجن: هو الترس الذي يحتمي به الإنسان فيستره من الإصابة.

السحر:

ذهب الإمام إلى أن السحر تخييل وخداع للأعين وليس حقيقة، وحمل السحر على الأمور المعنوية والإفساد بين الناس، وذكر أن النفاثات في العقد هم النمامون المقطعون لروابط الألفة المحرقون لها بما يلقون عليها من ضرام نمائمهم.

وقد كان الإمام متأثراً بالمعتزلة في إنكار حقيقة السحر. قال الزمخشري: «يجوز أن يراد بالنفاثات في العقد النساء الكيادات من قوله: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ تشبيها لكيدهن بالسحر والنفث في العقد. أو اللاتي يفتن الرجال بتعرضهن لهم وعرضهن محاسنهن كأنهن يسحرنهم ذلك»[1].

---

(١) تفسير الكشاف ٤/ ٢٤٤.

وتتلخص آراء الإمام في السحر والنفاثات في العقد فيما يأتي:

١ ـ السحر ليس جزءاً من العقيدة الدينية بل هو من الأمور العادية والعلوم الإنسانية متروك إلى بحوث الناس وتقدم معلوماتهم عنه وتوضيحهم لحقائقه.

٢ ـ جاء ذكر السحر في سورة البقرة ولا يستلزم ذلك إثبات ما يعتقد الناس منه فالقرآن قد يأتي في الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين أو المحكي عنهم وإن لم تكن صحيحة في نفسها كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ (الكهف: ٩٠).

٣ ـ جاء ذكر السحر في القرآن في مواضع متعددة ومجموعها يدل على أن السحر أحد شيئين:

(أ) إما حيلة وشعوذة.

(ب) وإما صناعة عملية خفية يعرفها بعض الناس ويجهلها الأكثرون فيسمون العمل بها سحرا لخفاء سببه ولطف مأخذه ويمكن أن يعد منه تأثير نفس في نفس أخرى.

٤ ـ السحر تخييل وخداع للأعين وليس حقيقة ولذلك قال سبحانه: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ (طه: ٦٦).

فسحرة فرعون قد استعانوا بالزئبق على إظهار الحبال والعصى بصورة الحيات والثعابين وتخييل أنها تسعى.

٥ ـ اعتاد من يتخذ السحر وسيلة أن يستعين بأسماء الجان والشياطين فيعتقد الدهماء أنه يستعين بهم ويلقي ذلك في روعهم وهذا الوهم يصنع صنع السحر.

ولا يستطيع الساحر أن يؤثر إلا في شخص عزيمته هباء ونفسه هواء وعنده قابلية لتأثير غيره فيه، فينتهز ذلك الساحر ليوهمه بما يشاء.

الإمام ينفي أن يكون الرسول قد سحر وهذا موجز لأدلته:

١ ـ القرآن نفى السحر عنه ﷺ فهو ليس بمسحور قطعاً.

٢ ـ حديث سحره عليه السلام حديث آحاد والآحاد لا يؤخذ بها في باب العقائد

لأن عصمة النبي ﷺ من تأثير السحر في عقله عقيدة من العقائد ولا يؤخذ في نفيها عنه إلا باليقين. فعلينا أن نفوض الأمر في الحديث ولا نحكمه في عقيدتنا ونأخذ بنص الكتاب.

٣ ـ نافي السحر بالمرة لا يصح أن يكون مبتدعاً لأنه لم يأت شيء يوجب الإيمان بالسحر على الوجه الذي يعتقد به الوثنيون في كل ملة.

٤ ـ المراد بالنفاثات في العقد نفث المفسدين سموهم بالكذب والغيبة والنميمة وقالة السوء في عقد الصلات بين الناس حتى يفكوا عرا الزوجية والمودة والرحمة وغيرها. وشر هذا في الناس أكثر جدا من شر من يقولون إنهم سحرة.

وقد ناقشت رأي الإمام في شيئين:

١ ـ السحر عموماً.

٢ ـ سحر الرسول ﷺ خصوصاً.

فالإمام يريد أن ينفيهما، وقد رأيت ثبوتهما.

(أ) ثبوت السحر:

١ ـ السحر ثابت بالحس والمشاهدة ونص القرآن وتواترت به الآثار عن الصحابة والسلف وأهل التفسير والحديث والفقهاء، والسحر يؤثر مرضاً وثقلاً وعقداً وحباً وبغضاً ونزيفاً وغير ذلك من الآثار الموجودة والتي تعرفها عامة الناس، وكثير منهم قد علمه ذوقا بما أصيب به.

٢ ـ بين الإمام أن السحر تخييل للأعين.

ونقول في الرد عليه إذا جاز على الساحر أن يسحر جميع عيون الناظرين ويغير إحساسهم حتى يروا الساكن متحركاً والمتحرك ساكناً جاز أن يغير صفات الناس حتى يجعل المحبوب إليها بغيضاً والبغيض محبوباً.

٣ ـ نقل الإمام أن السحرة فعلوا بالحبال ما أوجب حركتها ومشيها مثل الزئبق وغيره حتى سعت. وهذا مردود من وجوه:

(أ) لو كان عمل السحرة ينحصر في دهن الحبال بالزئبق لما احتيج إلى إلقاء العصا لابتلاع الحبال بل كان يكفي إخراج ما في الحبال من الزئبق وغيره، وذلك يكون أوقع في إبطال عمل السحرة، وتبيين أن عملهم من الوهن والضعف بحيث يكفي لإبطاله أن يتقدم أي إنسان فيزيله من على الحبال.

(ب) قال تعالى حكاية عن السحرة: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف: ١١٦). فبين سبحانه أن أعينهم سحرت وذلك إما أن يكون لتغيير حصل في المرئى أو لتغيير حصل في الرائى.

والساحر يفعل هذا وهذا، فتارة يتصرف في نفس الرائي وإحساسه حتى يرى الشيء بخلاف ما هو به، وتارة يتصرف في المرئي باستعانته بالأرواح الشيطانية حتى يتصرف فيها.

(ب) ثبوت سحره عليه أفضل الصلاة والسلام:

١ ـ ثبت سحره عليه الصلاة والسلام بالروايات الصحيحة المتعددة.

٢ ـ قال الإمام إن سحره عليه السلام يخالف القرآن لأنه قد نفى عنه السحر، والجواب أن القرآن نفى عنه السحر الذي يصيب عقله بالخبل والجنون، قال صاحب الكشاف: «المسحور الذي لا يتبع هو الذي فسد عقله بحيث لا يدري ما يقوله فهو كالمجنون» لهذا قالوا فيه: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ (الدخان: ١٤).

والحديث أثبت السحر الذي يصيب الجسم بنوع من الثقل أو المرض بحيث لا يمنع ذلك من اتباعه عليه الصلاة والسلام، فلا تعارض بينهما.

٣ ـ قال الإمام إن سحر الأنبياء ينافي حماية الله لهم.

والجواب أنه سبحانه يمتحن عباده وأولياءه وأصفياءه كما يمتحن أنبياءه ورسله بإيذاء قومهم لهم بالضرب والقتل أو السحر الذي يوهن الجسم، رفعا للأنبياء في درجاتهم وإملاء للكفار حتى تمتلئ صاعهم فيستحقوا ما أعد لهم.

ويتضح لك أن الخلاف بيني وبين الإمام ليس على سحر الرسول عموماً بل على سحر موجه إلى جسم الرسول دون عقله، فبيننا عموم وخصوص مطلق، فقد

اجتمعنا على نفي السحر عن عقل الرسول ﷺ وانفراد الإمام بنفي السحر عن الرسول في بدنه. وانفردت أنا بإثبات سحر الرسول في بدنه عليه الصلاة والسلام.

٤ ـ ومذهب الأشعرية أن للسحر تأثيرا حقيقيا وليس كله حيلا ومنه أنه أثر في جسم النبي ﷺ وخياله دون عقله وروحه فكان يخيل إليه أنه أتى نساءه ولم يكن أتاهن، ولم يتجاوز هذا الحد[1].

وذلك ما يعبر عنه في أيامنا بالرباط (وهو عدم القدرة على إتيان النساء) وهذا أمر يتعلق بالجسم والخيال لا بالعقل والروح.

وأرى أن الأستاذ الإمام كان متأثرا في نفيه السحر عن الرسول ﷺ بعدة أمور:

١ ـ محاولة إظهار الإسلام أمام المستشرقين والمتمدينين بمظهر الدين العلمي المنهجي الذي لا يعترف بالسحر ولا بالخرافة.

٢ ـ وجد الإمام في آراء المعتزلة تراثاً عقليا وذخيرة فكرية فهم يرفضون الإيمان بالسحر والكهانة والشفاعة وكرامات الأولياء.

٣ ـ لما كان هدف الإمام من إنكار السحر محاربة الخرافة وإظهار الإسلام بأنه دين العقل، واعترض طريقه حديث صحيح قال إنه حديث آحاد «والحديث الذي يصل إلينا عن طريق الآحاد إنما يحصل الظن عند من صح عنده أما من قامت الأدلة على أنه غير صحيح فلا تقوم به حجة، وعلى فرض صحته يؤول أو يفوض الأمر فيه»[2].

«وغره أن المقلدين يسلمون له بالتأويل ولو متكلفاً، ونسي أن أعداء الإسلام ومستقلي الفكر من غيرهم لا يقبلون التأويل المتكلف الذي لا يطمئن له القلب»[3].

سند حديث السحر:

إذا رجعنا إلى كتب الحديث نجد أن حديث السحر الذي ذكرناه مروي بأصح

---

(١) تفسير المنار ٥٩/٩ حاشية، للسيد رشيد رضا.

(٢) تفسير جزء عم ص ١٨٤.

(٣) تفسير المنار جـ ٩ ص ٥٩، حاشية، للشيخ رشيد رضا.

الأسـانيد، فـإن سنده هشام بن عـروة عن أبيـه عن عائشـة، وهذا السند من أصح الأسانيد المروية عن عائشة (رضي الله عنها) إن لم يكن أصحها[1].

الأساس السابع: عدم الخوض في تعيين ما أبهمه القرآن:

١ ـ القرآن الكريم كتـاب هداية يذكر من الأخبار والحوادث وأحـوال السابقين ما يحقق هذه الهداية ويمسك عـما لا فائدة من ذكره فالبحث عنه تكلف. فـفي تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (البقرة: ٥٩) يقول الإمام: «ونسكت عن تعيـين نوع الرجز كما هو شأننا في كل ما أبهمه القرآن»[2]. ونلاحظ أن الرجز هو العذاب فلا نصفه بأنه كان رجما بالحجارة أو خسفا أو غير ذلك.

٢ ـ الصـراط والميـزان والجنة والنار: ذكـر القـرآن أموراً تتـعلق بعـالم الآخـرة كالصراط والميزان والجنة والنار والصحف والكتب واللوح المحفوظ والكرام الكاتبين.

وقد أفاض بعض المفـسرين في وصفها وبيان مـاهيتها من غير اعـتماد على سند قوي، وعلى الرغم من إفـاضتهم لم يصلوا إلى ما يشـفى النفس في معرفـة حقائق هذه الأشياء.

وكان تفسير الإمام لهذه الغيبيـات مختصراً وواضحاً. فهو يوافق رأي السلف في أن علينا أن نؤمن بها كما وردت وأن نفوض معرفة حقيقتها إلى الله تعالى.

فالميزان الذي يزن الله به الأعمال يوم القيامة، فمن ثقلت موازينه دخل الجنة ومن خفت موازينه دخل النار علينا أن نؤمن به كما أخبر القرآن.

«عليك أيها المؤمن إلى ما يخبر الله بـه أن توقن أن الله يزن الأعمال ويميز لكل عمل مـقداره ولا تسـل كيف يزن ولا كـيف يقـدر، فـهو أعلم بـغيـبـه والله يعلم وأنتم لا تعلمون»[3].

---

(١) كتاب الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث للحافظ ابن كثير، تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر.

(٢) المنار ١/ ٣٢٥.

(٣) تفسير جزء عم، للإمام محمد عبده، ص ١٣٩.

والجنة دار النعيم يتمتع بها المؤمنون يوم القيامة وعلينا أن نعتقد أن النعيم واللذة فيها أكمل وأوفر من جميع لذائذ الدنيا، وأنها دار خلد وأن من دخلها من أهلها لا يخرج أبداً ولا يجوز لنا البحث في حقيقتها ولا أين موضعها ولا كيفية التمتع بها فإن ذلك لا يعلمه إلا الله[1].

والنار هي دار العذاب في الآخرة يعذب بها أهل الكفر والطغيان والواجب علينا الإيمان بها والتصديق بأن العذاب فيها أشد من العذاب في نار الدنيا، وأنها تسعر وتوقد على المعنى الذي يريده الله، أما كون الإيقاد بالحطب أو الفحم الحجري أو الخشبي أو ما أشبه ذلك مما هو معروف في حياتنا هذه فذلك غير واجب أن نعتقد به[2].

والصحف التي تنشر يوم القيامة بعد البعث هي صحف الأعمال، والذي يجب علينا اعتقاده أن أعمال العباد تظهر لهم ثابتة مبينة لا يرتابون فيها يوم الجزاء، ويعبر عن معنى ذلك الثبوت والبيان بنشر صحف الأعمال[3].

وكتابة الله وإحصاؤه لأعمال الإنسان هي كتابة على النحو الذي يليق بتنزيه الله تعالى وهي أعلى من كتابتنا التي نعرفها وأشد منها ضبطا، لكنا لا نكلف بالبحث عنها فذلك مما تؤمن به ونكل علم حقيقته إلى الله[4].

أحياناً يعرض الإمام رأي السلف والخلف مفضلاً رأي السلف، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (الفجر: ٢٢) يقول:

«أما إسناد المجيء لله في هذه الآية ففيه رأي السلف رضي الله عنهم، وهو أن ذلك مجيء نؤمن به ولا نطلب معناه ولكنه يمثل لنا الهيبة والعظمة وظهور السلطان الإلهي في ذلك اليوم وهو الأفضل.

وفيه مذهب الخلف وهو أنه على تقدير وجاء أمر ربك أو أنه من قبيل التمثيل

---

(١) نفس المرجع ص١٤.

(٢) نفس المرجع ص١٤.

(٣) تفسير جزء عم، ص ٢٧، للأستاذ الإمام محمد عبده.

(٤) نفس المرجع ص ٦، ص ٨٤.

لتجلي السطوة الإلهية على القلوب كما تتجلى أبهة الملك للأعين إذا جاء في جيوشه ومواكبه ولله المثل الأعلى»[1].

القضاء والقدر:

سلك الإمام هذا المسلك الروحي العملي في شرح القضاء والقدر، وصرح في تفسيره لسورة العصر: «بأن مسائل علم الله وقضائه السابق من حيث يتعلقان بأفعال العباد هي من سر القدر التي لا تكاد العقول أن تصل إليه».

«فوجب على المسلم أن يعتقد بأن الله خالق كل شيء على النحو الذي يعلمه، وبأنه يجب عليه مع ذلك أن يقر بأن أعماله منسوبة إليه، وأن يعمل بما أمره به ويتجنب ما نهاه عنه وذلك باستعمال تلك الحرية التي يجدها من نفسه»[2].

الأساس الثامن: التحذير من الإسرائيليات:

القرآن كتاب عربي مبين وهو غني في شرحه وتفسيره عن اللجوء إلى الإسرائيليات والأقاصيص اليهودية التي لا يعلم صدقها من كذبها، وقد نبه الإمام إلى خطأ المفسرين السابقين في حكاية القصص الواهية بجوار التفسير، وفي تفسير الإمام لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ (الفجر: ٦، ٧) يقول:

«وقد يروى المفسرون هنا حكايات في تصوير إرم ذات العماد كان يجب أن ينزه عنها كتاب الله فإذا وقع إليك شيء من كتبهم ونظرت في هذا الموضع منها فتخط ببصرك ما تجده في وصف إرم وإياك أن تنظر فيه»[3].

الأساس التاسع: تنظيم الحياة الاجتماعية على أساس من هدى القرآن:

١ ـ وضح الإمام أن القرآن جامع لأصول العمران وسنن الاجتماع وموافق لمصلحة الناس من اشتماله على الهداية العامة للبشر في كل زمان ومكان.

---

(١) نفس المرجع ص ٦، ص ٨٤.

(٢) رسالة التوحيد للإمام محمد عبده ص ٧٠.

(٣) تفسير جزء عم، ص ٧٩.

ونادى بوجوب تنظيم المجتمع على أساس متين من هدي القرآن مع حسن الفهم ومرونة التطبيق، فإذا دعا القرآن إلى إنفاق المال في سبيل الله، فإن ذلك يشمل إنشاء الجمعيات الخيرية والمؤسسات التعليمية والملاجئ والمستشفيات وكل ما من شأنه أن ينهض بالمجتمع لأن صلاح المجتمع في ذلك العصر لا يتم إلا بهذا التنظيم، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

٢ ـ حق الفرد والمجتمع:

وقد اهتم الإمام في تفسيره بإشعار الفرد بحق المجتمع عليه، فلا تتحقق إنسانية الإنسان إلا بأنسه بالآخرين واهتمامه بمصالحهم والعمل على تخفيف حدة التوتر بين الأغنياء والفقراء، كما ينبغي أن يكون المسلم حسن المعاملة مع أهله وجيرانه وسائر أبناء جنسه.

قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (النساء: ٣٦). إذا قام الإنسان بحقوق الله تعالى فصحت عقيدته، وصلحت أعماله، وقام بحقوق الوالدين فصلح حالهما وحاله، تتكون بذلك وحدة البيوت الصغيرة المركبة من الوالدين والأولاد، وبصلاح البيت الصغير يحدث له قوة، فإذا عاون أهله البيوت الأخرى التي تنسب إلى هذا البيت بالقرابة وعاونته هي أيضاً يكون لكل بيت من البيوت المتعاونة قوة كبرى يمكنه أن يحسن بها إلى المحتاجين الذين ليس لهم بيوت تكفيهم مئونة الحاجة إلى الناس الذين لا يجمعهم بهم النسب وهم الذين عطفهم على ذوى القربى بقوله: ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾.

كما دعا الإمام إلى تنظيم الإحسان حتى يثمر الثمرة المرجوة أما الكسالى والمسرفون فالإحسان إليهم تعطيل لمواهبهم وشل لعناصر الإنتاج في الأمة، ولذا يجب توجيههم ليكونوا مصدر خير وإسعاد لا مصدر تأخر وكساد.

٣ـ الحكمة من تشريع العبادات:

بين الإمام أن الحكمة من تشريع العبادات في الإسلام هي تهذيب الروح وتربية الضمير وتقويم الخلق وإصلاح السلوك الإنساني، ليكون المسلم عونا لأخيه المسلم ويغدو وقد سلم الناس من لسانه ويده ويصبح المؤمن أمينا على أموال الناس وأعراضهم، وكل عبادة لا تحقق الغرض منها فهي مردودة لأنها فقدت أغراضها والأهداف المنشودة منها.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝٧﴾ (الماعون: ٤ ـ ٧) يقول الإمام: «الماعون كل ما يرى الناس مما لا يكلفهم بذل شيء من مالهم ولا يخشون منه ضررا يلحق بأبدانهم أو نقصا يلم بجاههم ثم يمنعون الناس معونتهم ولا ينهضون بباعث الرحمة إلى سد حاجتهم وتوفير ما يكفل راحتهم وطمأنينتهم أولئك لا تنفعهم صلاتهم ولا تخرجهم من حد المكذبين بالدين»[1].

٤ـ تقوية شخصية المسلم:

ولم يكن الإمام يسير في تفسيره في دائرة مقفلة بعيدا عن أحداث الحياة في عصره، بل تجاوب مع عصره وساهم في إصلاح الحياة الاجتماعية فرأس الجمعية الخيرية الإسلامية، وأذكى نار الثورة العرابية ورأس تحرير جريدة الوقائع المصرية، فلا عجب أن يكون تفسيره للقرآن متأثراً برغبته في الإصلاح الاجتماعي ومحاربته لعيوب الأمة التي خلفها الاستعمار من الخنوع والتواكل والكسل والنفاق وحب النفس والأنانية، محاولا في الوقت نفسه تقوية شخصية المسلم وإمدادها بكل ما يؤكد الذات وينمي المواهب من حرية الفكر وسعة الأفق والاهتمام بالوطن ومساعدة المحتاج وكره الاحتلال وتوحيد الشعور بين الأمة الإسلامية.

٥ـ الدعوة إلى التعليم:

حث الإمام على التعليم ودعا إليه في كثير من مواضع تفسيره باعتباره من أهم الوسائل لإصلاح المجتمع المصري، وبين أن التعليم يعود إلى المجتمع بالتماسك

(١) تفسير جزء عم للإمام محمد عبده.

والتـرابط ويحقق الروح الجـماعـية بين الأفـراد ويرفع المستـوى الثقـافي والفكري، وبالتالي يعود على الوطن بالعز والارتقاء، يقول الإمام في تفسيره لسورة العلق: «لا يوجد بيان أبرع ولا دليل أقطع على فضل القـراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه من افتتـاح الله كتابه وابتدائه الوحي بهـذه الآيات الباهرات»[1] وهي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ (العلق: ١ـ ٥).

٦ـ محاربة الترف:

حارب الإمام الترف والبذخ والإسراف الذي كان متفشيا في بلاط الحاكم ووجوه البلاد وبين أهمية المال وأنه قوام الدولة وشنع على علماء المساجد تزهيدهم الناس في الدنيا، فأخلد الناس إلـى الكسل والخمول وانقطع جدهم ومجـدهم وبذلك خسروا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران، والواجب على المسلم العـارف بالإسلام أن يبين للناس الجمع بين الدنيا والآخرة[2].

وقد أفاض الإمام في بيان أهمية المال للمسلم وللمجتمع عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ (النساء: ٥).

٧ـ أضرار تعدد الزوجات:

يذهب الإمام إلـى أن الأصل في الزواج الاقتصـار على زوجة واحـدة تكون سكنا وأمنا ويتـرتب على الزواج بها الشـقة والاطمـئنان المتبـادل، وبين الإمام مـفاسـد تعدد الزوجات وأضراره بالمجتمع في عصرنا وبين أن إباحة تعدد الزوجات مضيقة قد اشترط فيهـا ما يصعب تحقيقـه فكأنه نهى عن كثرة الأزواج. وذلك عند تفسيـره قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ (النساء: ٤).

(١) تفسير جزء عم، ص ١٢٦.

(٢) تفسير المنار جـ ٤ ص ٣٨٤.

ثم يضم إلى تفسيرها قوله تعالى في آية أخرى:

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ (النساء: ١٢٩).

ويرى الإمام أن التعدد وإن كانت له محاسنه في عصر السلف حيث النفوس سليمة والقلوب نظيفة والجميع يمتثلون أمر الدين ويتقون الله رب العالمين، فإن التعدد له مساوئه في زمننا لكثرة مساوئ الناس وضعف أخلاقهم، بل إن كثرة المعددين لزوجاتهم لا هم لهم إلا قضاء الشهوة والمتعة المؤقتة والله لا يحب الذواقين ولا الذواقات.

«فيجب على العلماء النظر في هذه المسألة.. فهم لا ينكرون أن الدين أنزل لمصلحة الناس وخيرهم وأن من أصوله منع الضرر والضرار، فإذا ترتب على شيء مفسدة في زمن لم تكن تلحقه فيما قبله فلا شك في وجوب تغيير الحكم وتطبيقه على الحالة الحاضرة: يعني على قاعدة درء المفاسد مقدم على جلب المصالح. قال الإمام وبهذا يعلم أن تعدد الزوجات محرم قطعاً عند الخوف من عدم العدل»[1].

ومن مدرسة الإمام فضيلة المرحوم الشيخ محمد المدني، فقد ذكر في كتابه «المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء» أن التعدد إنما يباح إذا دعا إليه داع مثل حالة الوصي على اليتامى حيث يكون مضطرا للدخول عليهم ومراعاة شئونهم وفيهم من تصلح للزواج وهو يخشى على نفسه الفتنة. والمؤمن لا يرضى أن يكون فاتنا أو مفتونا، فأباح الله للرجل في مثل ذلك الظرف أن يكون له أكثر من واحدة إذا أمن الجور وبذلك يجمع بين رعاية مصلحة اليتامى على الوجه المطلوب وبين وقاية نفسه ووقاية غيره من عوامل السوء والفتنة.

ويمكن القياس على هذا الغرض فيباح التعدد عند الحاجة إليه ويقيد التعدد إذا لم يكن له داع، وهذا كله مشروط بأن يأمن الزواج عدم الجور فإذا خاف الجور وجب عليه ألا يعدد.

«وليس في الشريعة ما يمنع أن يعهد بتقدير ظروف الناس في التعدد إلى هيئة

---

(١) تفسير المنار ٤/ ٣٥٠.

رسمية اجتماعية أو قضائية، وأن يقيد الناس في التعدد بحكم هذه الهيئة جوازا أو منعا، فإن التعدد مباح بشرطين: أن يكون له مبرر وداع شريف معترف به شرعاً، وشرط آخر وهو ألا يؤدي إلى الجور وعدم العدل.

فموقف هذه الهيئة التأكد من تحقيق الشرطين السابقين حتى لا يقع من عدم تحققهما ضرر يكرهه الله ولا يأذن به.

وتلحظ مما تقدم أثر الإمام فيمن جاء بعده من المجتهدين والمفسرين، فقد نهج الإمام منهجاً حسنا ورسم طريقة ناجحة للنهوض بالمسلمين وعلاج مشاكلهم وتقديم الحلول الحاسمة في ضوء الشريعة وأصولها، وحاجة المجتمع ومقتضيات العصر.

وقد كان الإمام روحاً جديداً ويقظة تناولت طريق الإصلاح، وثورة فكرية فجرت عين الطريق فاستقى منها كل وارد واستفاد بخيرها القريب والبعيد.

لقد سن الإمام في التفسير سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة إن شاء الله، أجزل الله مثوبة الإمام وجزاه عنا وعن الإسلام أحسن الجزاء.

الفصل الثاني

إعجاز القرآن

١ ـ معجزة الرسول الخالدة.

٢ ـ وجوه الإعجاز.

٣ ـ التحدي.

٤ ـ بلاغة القرآن.

٥ ـ العلم في القرآن.

٦ ـ القرآن والعلم الحديث .

٧ ـ عناصر الجمال الفني في القرآن.

٨ ـ تصوير الحالات النفسية والمعنوية.

٩ ـ طريقة القرآن.

١ـ معجزة الرسول الخالدة

أرسل الله الرسل وأنزل عليهم الكتب وأيدهم بالمعجزات، والمعجزة أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعي الرسالة تصديقاً له في دعواه، فهي بمثابة قول الله، صدق عبدي في كل ما يبلغ عني.

وقد أيد الله رسله السابقين بمعجزات مادية ظاهرة، تناسب البشرية في أطوارها الأولى، جعل الله النار برداً وسلاماً على إبراهيم، وأيد صالحاً بالناقة تسقي قومه جميعاً من ألبانها، وأعطى موسى العصا وفلق له البحر، وأعطى عيسى إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله.

وكان العرب يتطلعون إلى أن ينزل على محمد عليه السلام معجزات مادية كما حدث للأنبياء السابقين: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام: ١٠٩).

إن الله أعلم حيث يجعل رسالته، وهو أعلم بما يناسب كل نبي من المعجزات، كان قوم موسى قد برعوا في السحر وبلغوا فيه مبلغ السبق والإجادة فأعطاه الله اليد تخرج بيضاء من غير سوء، والعصا تبتلع جميع أعمال السحرة.

إذا جاء موسى وألقى العصا   فقد بطل السحر والساحر

وكان قوم عيسى قد برعوا في الطب ونبغوا فيه فأعطاه الله معجزات خارقة للعادة من جنس ما نبغ فيه قومه.

وكان العرب أفصح الناس لساناً، وأبلغهم بياناً ولهم أسواق يتقارضون فيها الشعر، وإذا استجادوا قصيدة علقوها في جوف الكعبة، فسميت تلك القصائد

بالمعلقات فخص الله رسوله بالقرآن الكريم معجزة الدهر وآية الفصاحة والبيان، واستمع العرب للقرآن فأخذ بألبابهم، واستولى على إعجابهم، ثم قاوموا هذا النفوذ وتواصوا بألا يستمعوا للقرآن حقداً وحسداً ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت: ٢٦).

لقد قاوموا الرسالة والرسول ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (النمل: ١٤).

ولكن القرآن كان يأخذ سبيله إلى القلوب، ويستولى على النفوس فيفك أغلالها، ويهدهد كبرياءها ويستل أضغانها فلا تلبث أن تنشرح له الصدور وأن ترق له القلوب وأن تقشعر منه الجلود، «وكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيماناً».

خرج عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يريد رسول الله ﷺ ويعمد لقتله، فسار إلى دار أخته وهي تقرأ سورة طه، فلما وقع في سمعه القرآن لم يلبث أن آمن، ولما قرأ رسول الله ﷺ القرآن في الموسم على النفر الذين حضروه من الأنصار آمنوا به وعادوا إلى المدينة فأظهروا الدين بها، فلم يبق بيت من بيوت الأنصار إلا وفيه قرآن، وقد روى عن بعضهم أنه قال: فتحت الأمصار بالسيوف وفتحت المدينة بالقرآن.

ولما سمعته الجن لم تتمالك أن قالت: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ (الجن: ١، ٢).

لقد شاء الله أن يكون القرآن معجزة خالدة أبد الدهر، فجعلها معجزة عقلية تخاطب الناس جميعاً في كل زمان ومكان، يؤيد ذلك قوله تعالى ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ (الأنفال: ٢) وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى

الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (المائدة: ٨٣).

أقوال العرب في القرآن:

تحدى القرآن العرب فوقفوا حيارى أمام بيانه وتصريفه القول ووجدوا نمطا فريداً لم يألفوه، فهو ليس بالشعر وليس بالكهانة، ولا يستطيع أن يقوله بشر، فشهدوا بعظمته ونطقوا بإعجازه، «والفضل ما شهدت به الأعداء».

روى محمد بن كعب القرظي قال: حُدِّثْت أن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيدا حليما ـ قال يوما: ألا أقوم إلى محمد فأكلمه فأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل منها بعضها فنعطيه أيها شاء؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه، ورأوا صحاب النبي ﷺ يكثرون.

قالوا: بلى يا أبا الوليد، فقام إليه ـ وهو ﷺ جالس وحده في المسجد ـ فقال: يابن أخي.. إنك منا حيث قد علمت من البسطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت بين جماعتهم وسفهت أحلامهم وعبت آلهتهم، وكفرت من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك أن تقبل منها بعضها، فقال رسول الله ﷺ: قل، قال: إن كنت إنما تريد المال بما جئت به من هذا القول جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سودناك حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي بك رئياً لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، أو لعل هذا شعر جاش به صدرك، فإنكم لعمري بني عبد المطلب تقدرون من ذلك على ما لا نقدر عليه، حتى إذا فرغ قال له رسول الله ﷺ: أو قد فرغت؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: قل، قال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حم ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا

﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ۝﴾ (الآيات: ١ـ ٤ فصلت)، ثم مضى فيها يقرؤها، فلما سمعها عتبة أنصت له، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها، يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال له: قد سمعت ما سمعت فأنت وذاك. فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس قالوا: ما وراءك، قال ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت بمثله قط، وما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة، يامعشر قريش أطيعوني، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعته نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك بلسانه. قال: هذا رأيي فأصنعوا ما بدا لكم[1].

لقد نزل القرآن شفاء للصدور ورحمة للعالمين، ودليلا للهداية وحصنا للدعوة ومعجزة خالدة أبدية: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء: ٨٢).

القرآن معجزة التاريخ:

القرآن أكبر معجزة عرفها التاريخ، فقد ألف العرب على تعاديهم، وزحف بهم على قلتهم وضعف وسائلهم حتى اكتسحوا دولتي الفرس والروم، وهما يومئذ الدنيا القديمة، وهما العينان في رأس التاريخ.

وإذا نظرنا إلى معجزات الأنبياء والمرسلين رأينا القرآن الكريم أعظم المعجزات وأوضحها دلالة، لأن الخوارق في الغالب مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي، وتأتي المعجزة شاهدة فقط، أما القرآن فهو نفسه الوحي المدعى وهو الخارق المعجزة فدلالته في عينه، ولا يفتقر إلى دليل أجنبي عنه، فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه، وهذا معنى قوله ﷺ: «ما من نبي إلا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحي إلي فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة». رواه البخاري.

---

(١) ابن كثير: ٤/ ٩١ نشر مكتبة التراث الإسلامي ط ١٩٨٠.

لقد يئس العرب من معارضة القرآن تيقنا أنه لا قبل لهم بها واستبصارا في حقيقة هذا الكلام وأنه مما لا يستشرى الطمع فيه وإنه وحي يوحي، وهو عينه أيضاً بعض ما اجتذبهم إليه وعطفهم عليه حتى كان بلغاؤهم يستعمونه وتصغى إليه أفئدتهم ثم يتلاومون على ذلك.

روى أن ثلاثة من بلغاء قريش ـ الذين لا يعدل بهم في البلاغة أحد ـ وهم الوليد ابن المغيرة والأخنس بن قيس، وأبو جهل بن هشام، اجتمعوا ليلة يسمعون القرآن من رسول الله ﷺ وهو يصلي به في بيته، إلى أن أصبحوا، فلما انصرفوا، جمعتهم الطريق فتلاوموا على ذلك وقالوا إنه إذا رآكم سفهاؤكم تفعلون ذلك فعلوه واستمعوا إلى ما يقوله واستمالهم وآمنوا به، فلما كان في الليلة الثانية عادوا وأخذ كل منهم موضعه، فلما أصبحو جمعتهم الطريق فاشتد نكيرهم وتعاهدوا وتحالفوا ألا يعودوا، فلما تعالى النهار جاء الوليد بن المغيرة إلى الأخنس بن قيس فقال: ما تقول فيما سمعت من محمد؟ فقال الأخنس: ماذا أقول؟ قال بنو عبد المطلب فينا الحجابة قلنا نعم، يقولون فينا نبي ينزل عليه الوحي والله لا آمنت به أبداً.

فما صدهم عن الإيمان إلا عصبية الجاهلية، أنفة من استماع الحق والخضوع له، وقد حكى القرآن كلامهم فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت: ٢٦).

لكنهم لم يغلبوا القرآن، فهو نور الله وكلامه المبين: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف ٢١).

٢ـ وجوه الإعجاز

تنوعت وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، فهو معجز كله من ناحية مبناه ومعناه، ومن الأسرار الدقيقة في القرآن تأثيره في القلوب وسلطانه على النفوس وسحره العقول لما له من طلاوة وحلاوة تخلص إلى الألباب في روعة ومهابة، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ (الزمر: ٢٣).

وإنما صار القرآن معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظام وتأليف، متضمنا أصح المعاني من توحيد الله وتنزيهه في صفاته ودعاء إلى طاعته، وبيان لطريق عبادته، من تحليل وتحريم وحظر وإباحة ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهى عن منكر وإرشاد إلى محاسن أخلاق وزجر عن مساوئها، متضمنا أخبار القرون الماضية منبئا عن العصور الآتية جامعا في ذلك بين الحجة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه. ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق مما يعجز عنه قوى البشر ولا تبلغه قدرتهم. فانقطع الخلق دونه وعجزوا عن معارضته بمثله، أو مناقضته في شكله، ثم صار المعاندون له يقولون مرة إنه شعر لما رأوه منظوما، ومرة إنه سحر لما رأوا أثره في القلوب، ولم يتمالكوا أن يعترفوا به نوعاً من الاعتراف، ولذلك قالوا إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة.

ومما انفرد به القرآن وباين سائر الكلام أنه لا يخلق على كثرة الرد وطول التكرار، ولا تمل منه الإعادة، وكلما نظرت فيه رأيته غضا طريا وجديداً مونقا. وصادفت من نفسك له نشاطاً مستأنفاً وحسا موفوراً، وهذا لعمر الله أمر يوسع فكر العاقل ويملأ صدر المفكر بما يرى من إعجاز النظم وبلاغة النغم بالهمس والجهر والقلقلة والصفير والمد والغنة ونحوها، ثم اختلاف ذلك في الآيات بسطا وإيجازا وابتداء وردا وإفراداً وتكريراً.

ومن خصائص القرآن أنه جمع بين صفتي الجزالة والعذوبة وهما كالمتضادين لا يجتمعان غالباً في كلام البشر.

حقا إن القرآن آية الله الباقية وحجته البالغة وهو النور الساطع والتراث الخالد: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩).

أراؤهم في الإعجاز:

تنوعت آراء العلماء حول بيان إعجاز القرآن فأرجعوا إعجازه إلى نواح متعددة في معناه ومبناه.

قال الفخر الرازي: وجه الإعجاز الفصاحة وغرابة الأسلوب والسلامة من جميع العيوب.

وقال ابن عطية: الصحيح والذي عليه الجمهور والحذاق في وجه إعجازه أنه بنظمه وصحة معانيه وتوالى فصاحة ألفاظه وذلك أن الله أحاط بكل شيء علما وأحاط بالكلام كله فإذا أنزل لفظاً من القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى أخره، والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم ضرورة أن أحداً من البشر لا يحيط بذلك، فلهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة. وبهذا يبطل قول من قال إن العرب كان في قدرتهم الإتيان بمثله فصرفوا عن ذلك، والصحيح أنه لم يكن في قدرة أحد قط، لهذا ترى البليغ ينقح القصيدة أو الخطبة حولا ثم ينظر فيها فيغير فيها وهلم جرا.. وكتاب الله لو نزع منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد، ونحن نتبين البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع، لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة. وقد قامت الحجة على العالم بالعرب، إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة.

وقال بعضهم: وجه الإعجاز في القرآن استمرار الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها استمرارا لا يوجد له فترة ولا يقدر عليه أحد من البشر، وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة فيه إلا في الشيء اليسير المعدود، ثم تعرض الفترات الإنسانية فينقطع طيب الكلام ورونقه فلا تستمر لذلك الفصاحة في جميعه بل توجد في تفاريق وأجزاء منه.

الإعجاز عند الرافعي:

تناول الرافعي إعجاز القرآن في أقصر سورة منه فقال: «إن لهذه القصار لأمرا وإن لها في القرآن لحكمة هي من أعجب ما ينتهي إليه التأمل حتى لا يقع من النفس إلا موقع الأدلة الإلهية المعجزة.

فقد علم الله أن كتابه سيثبت الدهر كله على هذا الترتيب المتداول فيسره للحفظ بأسباب كثيرة أظهرها في المنفعة، وأولها في المنزلة هذه السور القصار التي تخرج من الكلمات المعدودة إلى الآيات القليلة، وهي مع ذلك أكثر ما تجيء آياتها على فاصلة واحدة، أو فواصل قليلة، مع ما بين الفاصلة والفاصلة، فكل آية في وضعها كأنها سورة من كلمات قليلة، لا يضيق بها نفس الطفل الصغير وهي تتماسك في ذاكرته بهذه الفواصل التي تأتي على حرف واحد أو حرفين أو حروف قليلة متقاربة فلا يستظهر الطفل بعض هذه السور حتى يلتئم نظم القرآن على لسانه ويثبت أثره في نفسه فلا يكون بعد إلا أن يمر فيه مرا وهو كلما تقدم وجده أسهل ووجد له خصائص تعينه على الحفظ وعلى إثبات ما يحفظ، فهذا من معاني قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء: ٨٢)، وهي لعمر الله رحمة وأي رحمة.

وإذا علمنا أن ترتيب القرآن توفيقي أدركنا فضل الله في تيسير حفظ كتابه على الناس حيث جعل هذه السور آخر القرآن كتابة وهي أول ما يحفظ الصبي من القرآن، وكلما تمرن على الحفظ اتسعت السور واتسع معها ذهن الصبي واستعداده.

وإذا أردت أن تبلغ عجباً من ذلك فتأمل آخر سورة من القرآن، وهي أول ما يحفظه الأطفال، تلك سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، وانظر كيف جاءت في نظمها، وكيف تكررت الفاصلة، وهي لفظة «الناس»، وفيها السين أشد الحروف صفيراً وأطربها موقعاً من سمع الطفل الصغير وأبعثها لنشاطه واجتماعه، وكيف تناسب مقاطع السورة عند النطق بها تردد النفس في أصغر طفل يقوى على الكلام حتى كأنها تجري معه وكأنها فصلت على مقداره، وكيف تطابق هذا الأمر كله من جميع جهاته في أحرفها ونظمها ومعانيها»[1].

ويضاف إلى ذلك حكمة أخرى وهي تيسير أداء الصلاة على العامة، فإنهم لولا

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص ٢٦٢ هامش.

هذه السور لتركوا الصلاة جميعاً إذ لا تصح الصلاة إلا بآيات مع الفاتحة وقد أغنتهم القصار ويسرت عليهم فكانت على قلتها معجزة اجتماعية كبرى.

وحدة النظم:

من إعجاز القرآن، اتساق عبارته وإحكام نظمه، واتحاد طريقته في الإبداع والقوة كأنما وضع جملة واحدة ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين.

«ومرد ذلك إلى روح التركيب التي تنعطف عليها جوانب الكلام الإلهي، وتلمح جمال هذا التركيب في نظم الكلمة وتأليفها ثم في تأليف هذا النظم، فمن هنا تعلق بعضه على بعض وخرج في معنى تلك الروح صفة واحدة هي صفة إعجازه في التركيب وإن كان فيما وراء ذلك متعدد الوجوه التي يتصرف فيها من أغراض الكلام ومناحي العبارة على جملة ما حصل به من جهات الخطاب، كالقصص والحكم والتعليم وضرب الأمثال إلى نحو مما يدور عليه»[1].

فأنت مادمت في القرآن حتى تفرغ منه لا ترى غير صورة واحدة من الكمال وإن اختلفت أجزاؤها في جهات التركيب ومواضع التأليف وألوان التصوير وأغراض الكلام كأنها تفضي إليك جملة واحدة.

وقد ذهب العلماء إلى أن ألفاظ القرآن متميزة من جنسها بحيث إذا وجدت تركيباً قرآنيا في نسق الكلام دل على نفسه، وأرشدت محاسنه إليه لما له من صفة إلهية: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾ (الطارق: ١٣، ١٤).

وحدة الفكرة:

ومن وجوه الإعجاز في القرآن أن معانيه تجري في مناسبة الوضع وإحكام النظم مجرى ألفاظه، ولا يعدم المفكر وجها صحيحاً من القول في ربط كل كلمة بأختها وكل آية بضريبتها وكل سورة بما إليها وهو علم عجيب أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره، وقد قال إن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط.

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي.

ويقال إن أول من أظهـر هذا العلم الشيخ أبو بكر النيسابوري، وكـان غزير المادة في الشريعـة والأدب، فكان يقول في تفسيـره لِمَ جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السـورة إلى جنب هذه السورة؟ ثم كان يزرى على علماء بغداد لأنهم لا يعلمون هذه المناسبات.

وللإمام برهان الدين بن عمـر البقاعي المتوفي سنة ٨٨٥هـ تفسـير مخطوط بدار الكتب المصرية، اسمه: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسـور». وهو تفسير جليل جمعْ فيه من أسرار القـرآن ما تتحير فيه العقول، واهتم ببيان ارتـباط الجمل بعضها ببعض وتناسق الآيات واتساق المعنى وترابطه.

ومن أظهر من كتب في هذا المعنى من المفسرين في الـعصر الحديث الإمام الشيخ محمد عبده، فقد عني ببيان الوحدة الفكرية للسورة وبيان التناسب بين آياتها وتعلق نظم القـرآن بعضه ببـعض، ورأى أن فكرة السورة يـجب أن تكون أساساً فـي فهم آياتها والموضـوع يجب أن يكون أساساً في فهم الآيات التي نزلت فـيه، ورفض كل تفسـير لا يحقق وحدة الهـدف والتناسق بين أجزاء السورة، وتأثر بالإمـام جيل من أساتذة التفسير في هذا العصر.

ومن هذا الجيل أسـتاذي المرحوم الدكتـور محمد عـبد الله دراز، فقد كـان يفتح عيـوننا أثناء الدراسة على الوحدة المعنوية للسـورة، ويعرض موضوعـاتها في سلك واحد كأنها حبات عقد مكتمل، أحـكمته يد السميع العليم القائل في كتابه الكريم: ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١).

ومع أن السورة من القرآن كانـت تنزل منجمة مقسطة وفي أوضاع تأليـفية عجلى ومشتتة، وبين أجزائها عناصر معنوية مـختلفة، «ومع هذا سبكتها وأحكمت صنعتها يد الله السمـيع البصير، فـانظر الآن هل استطاعت هذه الأسباب على تضـافرها أن تنال شيئا من استقامة النظم في السورة المؤلفة على هذا النهج؟».

«أما العرب الذين تحداهم القـرآن بسورة منه فلقد علمت لو أنهم وجدوا في نظم سورة منه مطمعا لطامع، بله مغمزا لغامز لكان لهم معه شأن غير شأنهم وهم هم».

أما البلغاء من بعدهم فما زلنا نسمعهم يضربون الأمثال في جودة السبك وإحكام السرد بهذا القرآن حين ينتقل من فن إلى فن.

وأخيراً نرى أن هذه النظرة إلى القرآن تجعل السورة وحدة كاملة أو كائناً حيا يمد الحياة بالنور والهدى.

وإذا نظرنا إلى أطول سورة في القرآن وهي سورة البقرة وجدنا أنها تشتمل على موضوعين رئيسين:

الموضوع الأول: توجيه الدعوة إلى بني إسرائيل وتذكير الله لهم بنعمته، وإغراقه فرعون، وتذكيرهم بألوان العناد التي عملوها مثل اعتدائهم في السبت وموقفهم من موسى في ذبح البقرة وتحريفهم آيات الله وزعمهم أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس.

الموضوع الثاني: يبدأ من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ (البقرة: ١٧٧).

ويتحدث عن التشريع الإسلامي الذي ينظم حياة المسلمين في المدينة مثل نظام الأسرة والصيام والحج والقصاص والقتال والعناية باليتامى والتحذير من الربا وكتابة الدين.

وللسورة بداية تمهد لفكرتها وختام يؤكد الفكرة بطريقة مؤثرة تأخذ بالألباب وآخر سورة البقرة بيان موجز للدعوة المحمدية في قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

٣ـ التحـــدي

نزل القرآن في بضع وعشرين سنة، وتألف من سبعة وسبعين ألف كلمة ونيف، واكتمل القرآن في هذه المدة على طريقة معجزة، يستوى أولها نزولا وآخرها، في

الاطراد والنظم والبلاغة والغرابة؛ بحيث لا يستطيع إنسان أن يعين فيما بين دفتيه موضع تنقيح، أو يومئ إلى جهة مسها تهذيب، أو يستخرج ما يدل على ضعف في نسقه واطراده، أو لفظه ومعناه، ولم يعهد في تاريخ الأرض كله أن كلام إنسان من الناس يستمر على مثل هذه الطريقة بضعة وعشرين عاماً، ولا يكون أول ذلك إلا بعد أن يبلغ الأربعين، ثم لا ينتقض ولا يضعف، ولا تختلف طبقاته ولا يتفاوت أمره في كل هذه المدة، مع اختلاف أحوال النفس وأمور الزمن، ومع إحصاء كلامه وجمعه لفظة لفظة، والذهاب به حفظًا وتلاوة، حتى لا يجد السبيل إلى تغيير كلمة واحدة بعد أن تفصل عنه.

ومن أسرار الإعجاز في هذا الكتاب الكريم، أنه نزل بلسان عربي مبين، بين عرب فصحاء، طبعوا على الصراحة في الرأي والشجاعة في القول، والأنفة من الذل والضيم.

وقد تحداهم القرآن أن يأتوا بمثله، ثم طاولهم في المعارضة، وتنازل لهم عن التحدي بجميع القرآن إلى التحدي بعشر سور مثله، ثم إلى التحدي بسورة واحدة من مثله، وهم على رغم المطاولة، ينتقلون من عجز إلى عجز، ومن هزيمة إلى هزيمة، وهو في كل مرة من مرات هذا التحدي وهذه المطاولة، ينتقل من فوز إلى فوز، ويخرج من نصر إلى نصر.

تصور أنه قال لهم في سورة الطور أول ما تحداهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (الطور: ٣٣، ٣٤).

فلما انقطعوا مد لهم في الحبل وقال في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ (هود: ١٣، ١٤).

فلما عجزوا هذه المرة أيضا، طاولهم مرة أخرى وأرخى لهم الحبل إلى آخره، وقال في سورة البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ

﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (البقرة: ٢٣، ٢٤).

فكان عجزهم بعد ذلك أشنع وأبشع، وسجل الله عليهم الهزيمة أبد الدهر، فلم يفعلوا ولن يفعلوا، ودحضت حجتهم وافتضح أمرهم، وظهر أمر الله وهم كارهون.

التحدي عند الجاحظ:

قال الجاحظ: بعث الله محمداً ﷺ أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً، وأحكم ما كانت لغة، وأشد ما كانت عدة، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته، فدعاهم بالحجة فلما قطع العذر وأزال الشبهة، وصار الذي يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية، دون الجهل والحيرة، حملهم على حظهم بالسيف، فنصب لهم الحرب ونصبوا، وقتل من عليتهم وأعلامهم وأعمامهم وبني أعمامهم، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن، ويدعوهم صباحًا ومساءً، إلى أن يعارضوه إن كان كاذبًا بسورة واحدة، أو بآيات يسيرة، فكلما ازداد تحديا لهم بها، وتفريعا لعجزهم عنها، تكشف من نقصهم ما كان مستورًا، وظهر منه ما كان خفيا، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة، قالوا له أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف فلذلك يمكنك ما لا يمكننا قال فهاتوا مفتريات، فلم يرم ذلك خطيب، ولا طمع فيه شاعر، ولو طمع لتكلفه، ولو تكلفه لظهر ذلك، ولو ظهر لوجد من يستجيده، ويحامى عليه ويكابر فيه، ويزعم أن قد عارض وقابل وناقض، فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم، واستجابة لغتهم، وسهولة ذلك عليهم، وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم، وعارض شعراء أصحابه وخطباء أمته، لأن سورة واحدة وآيات يسيرة، أنقض لقوله وأفسد لأمره، وأبلغ في تكذيبه وأسرع في تفريق أتباعه، من بذل النفوس والخروج من الأوطان وإنفاق الأموال، وهذا من جليل التدبير، الذي لا يخفى على من هو دون قريش والعرب في الرأي والعقل بطبقات، ولهم القصيد العجيب والرجز الفاخر، والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة، ولهم الأسجاع والمزدوج واللفظ المنثور.

ثم تحدى بـه أقصاهم بعـد أن أظهر عـجز أدناهم، فـمحـال ـ أكرمك الله ـ أن يجتـمع هؤلاء كلهم على الغلط فـي الأمر الظـاهر، والخطأ المكشـوف البين، مع التقريع بالنـقص والتوقيف على العجز، وهم أشـد الخلق أنفة، وأكثرهم مـفاخرة، والكلام سيد عملهم وقد احتاجوا إليه، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض فكيف بالظاهر الجليل المنفعة، وكما أنه مـحال أن يطبقوا ثلاث وعشرين سنة[1] على الغلط في الأمر الجليل المنفعة فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ويجدون السبيل إليه، وهم يبذلون أكثر منه[2].

معارضة القرآن:

حاول قوم أن يعارضـوا القرآن، متوهمين أنه كسجع الكهـان فجاءوا بسجع قلق يعارضون به الـقرآن ـ وشتان ما بين الحق والبـاطل ـ وقد باءت محاولتـهم بالفشل، وأخزتهم أمام الجماهير، وكان مصرعهم هذا كسبا جديداً للحق، وبرهاناً ماديا على أن القرآن كلام الله القادر، وما هو بقول شاعر ولا بقول كاهن.

يذكر التاريخ أن مـسيلمة الكذاب، رغم أنه أوحى إليه بكـلام كالقرآن، ثم طلع على الناس بهذا الهدر: «إنا أعيناك الجماهر. فصل لربك وجاهر».

وبهذا السخف: «والطاحنات طحنا. والعاجنات عجنا. والخابزات خبزا». وأنت خبيـر بأن مثل ذلك الإسفاف ليس من المعـارضة في قليل ولا كثير، وأين مـحاكاة الببغاء من فـصاحة الإنسان؟ وأين هذه الكلمات السوقيـة الركيكة، من ألفاظ القرآن الرفيـعة ومعـانيه العـالية، وهل المعارضـة إلا الإتيان بمثل الأصل في لغـته وأسلوبه ومعانيه أو بأرقى منه في ذلك؟

يقول الرافعي: إن مسـيلمة لم يرد أن يعارض القرآن من ناحية الصناعـة البيانية، وإنما أراد أن يتخذ سبيله إلى استهواء قومـه بهذا السجع القلق، وما كان مسيلمة في

---

(١) هي مدة رسالته ﷺ.

(٢) إعجاز القرآن للرافعي، فصل: التحدي والمعارضة ص ٢٢٥.

قوله السجع حاذقاً، ولا في دعوى النبوة صادقاً، وإنما كان اتباعهم إياه كما قال قائلهم: «كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر».

روعة القرآن:

تميز القرآن بحلاوته وطلاوته، وجماله وروعته، تلك الروعة التي تأخذ بقلوب سامعيه عند سماعه، وتستولى على أفئدة قارئية عند قراءته، وقد أسلم جماعة عند سماع آيات منه كما وقع لجبير بن مطعم، وذلك أنه سمع النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، قال فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُصَيْطِرُونَ﴾[1] كاد قلبي يطير، قال: وذلك أول ما وقر الإسلام في قلبي.

وقصة إسلام أبي ذر وإسلام أخيه كان سببها سماع القرآن، روي عن أبي ذر أنه قال: قال لي أخي أنيس: إن لي حاجة إلى مكة، فانطلق فراث فقلت: ما حسبك؟ قال: لقيت رجلا يقول إن الله تعالى أرسله. فقلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون شاعر ساحر كاهن. قال أبو ذر وكان أنيس أحد الشعراء ـ قال: تالله لقد وضعت قوله على أقراء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد، ولقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون.

ومن ذلك ما روي أن الوليد بن عقبة أتى النبي ﷺ فقال اقرأ، فقرأ عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠). فقال: أعد فأعاد. فقال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر، وما يقول هذا بشر.

الكلمات وحروفها:

ومن الروعة الحقة للقرآن إدراكه لخفايا النفس البشرية وتلمس السبيل لبعث عوامل

---

(١) سورة الطور الآيات ٣٥ ـ ٣٧.

ونصها ما يأتي: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

الإيمان في هذه النفس بالرغبة والرهبة والتشويق والإثارة، وصوغ المعاني في عبارة خلابة ولفظ رشيق تكسوه حلاوة الفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل، والتقفية التي تغني عن القوافي، وترى الحرف يكون رقيقاً في موضع الرقة، شديداً في موضع الشدة، فترى هذه الألف اللينة، التي تختم بها آيات في سورة النجم، تصور جلال التكريم الإلهي، والفضل الرباني على النبي الأمين في قوله تعالى: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ (النجم: ١ ـ ١٥).

فالموقف موقف تكريم وإسعاد والمشهد مشهد النبي الكريم يتخطى الحجب إلى فضل هو ذروة المنتهى وجنة المأوى، فناسب ذلك سهولة الفاصلة وليونة حرف الختام.

وإذا عرض القرآن ألوان العذاب أو الوعيد تخير الكلمات الموحية، والألفاظ المعبرة، التي تسلك سبيلها إلى النفس فتجسم الفكرة وتصور المعنى.

اقرأ قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ ﴾ (ق: ١٦ ـ ٢٠).

فهذه الدال من حروف القلقلة مسبوقة بالياء المشبعة تحد صوت الإنذار، وتوائم أسلوب الوعيد، وتلمس ذلك في قوله تعالى: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ (الملك: ٨). فلفظ تميز يوحي بالقلق والغضب حتى كأن جهنم سبع مفترس يتحرق شوقاً لالتهام فريسته.

وإذا قـرأت قوله تعـالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ (الشـعراء: ٩٤)، استشـعرت من لفظ الكبكبة عنف العـذاب الذي يصيب المجرمين حتى أنهـم يدفعون دفعاً ويدعون دعا، فيتهاوون جماعة فوق أخرى.

الحروف وأصواتها:

«الحرف الواحد من القـرآن الكريم معجزة في موضعـه لأنه يمسك الكلمة التي هو فيها ليمـسك بها الآية والآيات الكثيرة وهذا هو السر في إعجاز جـملته إعجازاً أبديا فهذا أمر فوق الطبـيعة الإنسانية وفوق ما يتسبب إليـه الإنسان إذ هو يشبه الخلق الحي تمام المشابهة وما أنزله إلا الذي يعلم السر في السموات والأرض».

وربما حذف القـرآن حرفاً في سيـاق معين وأثبت الحرف نفســه في سياق مشـابهه ليشير إلى معان جمة تلحظها النفس بين السطور وتراها في ثنايا التعبير.

في الآيات الأخيرة من سورة الزمـر، يقول القرآن الكريم: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ (الزمر: ٧١) فـأشارت الآية إلى مشهد الإذلال لهؤلاء الكفار، فهم وقوف لا يفتح الباب لهم إلا بعد إحضارهم.

وقال سبحانه بعد ذلك: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ (الزمر: ٧٣). فـأشارت الآية إلى أن التكريم قد سـبقهم بتفـتيح أبواب الجنة وانتظار قدومهـم.

لقد تحدث القرآن عن النار فقال: «فتحت».

وتحدث عن الجنة فقال: «وفتحت».

فـأظهر الإذلال الذي ينال الكافـرين بالانتظار على الأبواب، والإكـرام الذي ينال المؤمنين بالإعداد والاستقبال الذي يسبق قدومهم احتفاء بهم.

ولما كان الأصل في نظم القرآن أن تعتـبر الحروف بأصواتها وحركاتها ومـواقعها، من الدلالة المعنوية، استـحال أن يقع في تركيـبه ما يسـوغ الحكم في كلمة زائدة، أو حرف مضطرب، أو ما يجري مجرى الحشو والاعتراض.

ونجد القرآن إذا تحدث بلسان النملة كانت كلـماتها كأنها تحكي صوت النملة، وإذا تكلم بلسان الهدهد كان جرس الكلمات وموسيقاها يحكي صوت الهدهد.

فقد قال القـرآن على لسان الهدهد: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (النمل ٢٢) وهي على وزن صوت الهدهد: كوكو، كوكو، كوكوك.

فالصـوت في القرآن يؤدي غرضـه كاملاً غـير منقـوص. إن الإبداع الصوتي في القرآن وانتـقاء الكلمـات بجرسهـا ونغمهـا له أكبر الأثر في هدايتـه البالغـة، ونظمه العجيب، وإعجازه الرائع، وتأثيره في قلوب سامعيه من العرب والعجم.

وما من أعـجمي يسمع ترتيل القـرآن فهمـه أو لم يفهمـه إلا اعترته رقـة للشجي والنظم، وأحس أن هذه الآيات تتموج في نفسه وتجـيش نفسه بها مع أنه لا يعتريه من ذلك شيء إذا هو سمع الألحـان العربيـة في الغناء والشعر وقـد لا يجد في الموسـيقى ضرباً أسخف منها لمكان اختـلاف الأذواق، وما نجد ملحداً لا يؤمن بالله إلا هو مؤمن بهذا الإعجاز في كتابه، حين يسمعه مرتلا من صوت جميل كأن النبوة حينئذ تلامسه.

٤ ـ بـلاغـة القـــرآن

الحد الصحيح للبلاغة في الكلام هو أن يبلغ به المتكلم ما يريد من نفس السامع بإصابة موضع الإقناع من العـقل، والوجدان من النفس، ولم يعـرف في تاريخ البشر أن كـلاماً قارب القـرآن في قوة تأثيره في العـقول والقلوب، فهـو الذي قلب طباع الأمة العـربية، وحولها عن عـقائدها وتقاليدها، وصرفهـا عن عاداتها وعداوتها وصـدف بها عن أثرتها وثاراتها، وبدلها بأميتها حكمة وعلماً، وبجاهليتها أدباً رائعاً، وألف من قبائلها المتفرقة أمة واحدة سادت العالم بعقائدها وفضائلها، وعدلها وحضارتها وعلومها وفنونها.

ولم تكن هذه البلاغة خفية على أهل مكة، فهم خبـراء الفصاحة وفرسان البيان، وكان بعضهم يسجد عند سماع القرآن ويقول سجدت لبلاغة هذا الكلام.

ولكن غلبت عليـهم العصبـية، وأعـمتهم حـميـة الجاهلية، عن اتـباع الحق رغم وضوحه، وعن السير في ركب الإيمان رغم اعترافهم بصدقه.

ومن هؤلاء الوليد بن المغيرة والأخنس بن قيس وأبو جهل بن هشام، وأمية بن أبي الصلت وغيرهم ممن أدركوا عظمة القرآن ثم أعرضوا عن الإيمان.

روى الحاكم وصححه البيهقي في الدلائل أن الوليد بن المغيرة أتى قريشا فقال: إن الناس يجتمعون غدا بالموسم وقد فشا أمر هذا الرجل في الناس فهم سائلوكم عنه فماذا تردون عليهم؟ فقالوا: مجنون يخنق، فقال: يأتونه فيكلمونه فيجدونه صحيحا فصيحاً عادلا فيكذبونكم. قالوا: نقول هو شاعر، قال: هم العرب وقد رووا الشعر وفيهم الشعراء وقوله ليس يشبه الشعر فيكذبونكم. قالوا: نقول هو كاهن، قال: إنهم لقوا الكهان فإذا سمعوا قوله لم يجدوه يشبه الكهنة فيكذبونكم. ثم انصرف الوليد إلى منزله فقالوا: صبأ الوليد ـ يعنون أسلم ـ ولئن صبأ لا يبقى أحد إلا صبأ. فقال لهم ابن أخيه أبو جهل بن هشام بن المغيرة: أنا أكفيكموه، قال فأتاه محزوناً فقال: مالك يابن أخ؟ قال: هذه قريش تجمع لك صدقة يتصدقون بها عليك، تستعين بها كبرك وحاجتك، قال: أوَلست أكثر قريش مالا؟ قال: بلى، ولكنهم يزعمون أنك صبأت لتصيب من فضل طعام محمد وأصحابه. قال: ما يشبعون من الطعام فكيف يكون لهم فضول؟

ثم أتى قريشا فقال: أتزعموني أني صبأت ولعمري ما صبأت، إنكم قلتم: محمد مجنون، وقد ولد بين أظهركم لم يغب عنكم ليلة ولا يوماً. فهل رأيتمونه يخنق قط، فكيف يكون مجنوناً ولم يخنق قط؟

وقلتم شاعر، وأنتم شعراء فهل أحد منكم يقول ما يقول؟

وقلتم كاهن، فهل حدثكم محمد في شيء يكون في غد إلا أن يقول إن شاء الله؟ قالوا: فكيف تقول يا أبا المغيرة؟

قال: أقول هو ساحر، فقالوا: وأي شيء السحر. قال: شيء يكون ببابل، من حذقه فرق بين الرجل وامرأته والرجل وأخيه، ألا ترون أن محمداً فرق بين فلان وفلانة زوجته، وبين فلان وابنه، وبين فلان وأخيه، وبين فلان ومواليه، فلا ينفعهم

ولا يلتفت إليهم ولا يأتيهم؟ قالوا: بلى، فـاجتمع رأيهم على أن يقولوا: إنه ساحر، وأن يردوا الناس عنه بهذا القول.

وانصرف، فمر بأصحـاب النبي ﷺ منطلقاً إلى رحله، وهم جلوس في المسجد فقـالوا: هل لك يا أبا المغيرة إلى خـير؟ فرجع إليـهم فقال: مـا ذلك الخير؟ فـقالوا: التوحيـد. قال: ما يقول صاحبكم إلا سـحرا وما هو إلا قول البشـر يرويه عن غيره، وعبس في وجوهم وبسر ثم أدبر إلى أهله مكذباً، واسـتكبر عن حديثهم الذي قالوا له وعن الإيمان، فأنزل الله تعـالى فيه: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ (المدثر: ١٨ـ ٢٥)[(١)].

حسن البيان:

حسن البيـان هو إخراج المعنى في أحسن الصور الموضحـة له، وإيصاله إلى فهم المخاطب بأقرب الطرق وأسهلها، فإنه عين البلاغة. وقد تأتي العبارة عنه عن طريق الإيجاز، وقد تأتي عن طريق الإطناب بحسب ما يقـتضيه الحال، والإطناب بلاغة، والإسهاب عي. . وقد أتى بيان الكتاب العزيز من الطريقين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ (الدخان ٢٥ـ ٢٧). وكقوله تعـالى وقد أراد أن يبين عن الوعد: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ (الدخان: ٥١ـ ٥٥). وكقوله عـز وجل ـ وقد أراد أن يبين الوعيد: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الدخان: ٤٠) وكقوله في الاحتجاج القاطع للخصم ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ (يس: ٧٨، ٧٩) وكقوله تبارك وتعالى

---

(١) انظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ١٢٣ ط ٢ دار المعارف.

ـ وقد أراد أن يبين حسرة الكفار ـ: ﴿ولَن ينفعَكُمُ اليَوْمَ إذ ظَّلَمتُمْ أنَّكُمْ فِي العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (الزخرف: ٣٩)، وكقوله تعالى ـ وقد أراد أن يبين عن العدول ـ: ﴿ولَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (الأنعام: ٢٨) وأمثال هذه المواضع كثيرة[1].

فن القول:

تناولت كتب البلاغة العربية ألوان البيان في القرآن الكريم وتعرضت كتب علوم القرآن لفنون القول في القرآن الكريم ومن أشهر هذه الكتب البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي والإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي. وهما مطبوعان في القاهرة بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم.

وقد تعرض الكتابان إلى عدد من المباحث القرآنية البلاغية، مثل تشبيه القرآن واستعاراته، وكنايته وتعريضه وحقيقته ومجازه وحصره واختصاصه، وإيجازه وإطنابه، وخبره وإنشائه وجدله وأمثاله وأقسامه. . وسنذكر نماذج من هذه الفنون في القرآن الكريم.

التشبيه والاستعارة:

من تشبيه القرآن قوله سبحانه: ﴿كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ (الجمعة: ٥) ووجه الشبه حرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع تحمل التعب في استصحابه.

وقوله سبحانه: ﴿واضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً﴾ (الكهف: ٤٥) ووجه الشبه هنا هيئة منتزعة من متعدد[2]. فقد شبه الدنيا في سرعة زوالها وانقراض نعيمها واغترار الناس بها بحال ماء نزل من السماء وأنبت أنواع العشب ثم اخضر النبات ونما وترعرع ولم يلبث أن تحول إلى حطب جاف تذروه الرياح. وقريب منه قوله سبحانه في وصف الدنيا ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ

(١) انظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ط ٢ دار المعارف بمصر: ص ١٩٤.

(٢) ينقسم التشبيه باعتبار وجهه إلى مفرد ومركب، والمركب هو ما كان وجه الشبه فيه هيئة منتزعة من أمور متعددة.

يهيجُ فتراه مُصْفَرًّا ثُمَّ يكُونُ حُطَامًا وفِي الآخرةِ عذَابٌ شديدٌ ومغفرةٌ مِّنَ اللَّهِ ورِضْوانٌ ﴾ (الحديد: ٢٠)، ومن استعارات القرآن قوله تعالى: ﴿ والصُّبْحِ إذَا تنفَّسَ ﴾ (التكوير: ١٨)، فالحياة تخلع في هذه الآية على الصبح حتى لقد صار كائناً حيا يتنفس بل إنسانا ذا عواطف وخلجات نفسية تشرق الحياة بإشراقة من ثغره، المنفرج عن ابتسامة وديعة وهو يتنفس بهدوء، ومن استعارات القرآن أيضًا قوله سبحانه في وصف جهنم ﴿ إذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وهِيَ تفُورُ تكَادُ تمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ (الملك: ٧، ٨). فقد استعيرت لجهنم شخصية آدمية، لها انفعالات وجدانية، وخلجات عاطفية، فهي تشهق شهيق الباكين، وهي تغضب وتثور وهي ذات نفس الشعور. ومن استعارة المحسوس للمعقول قول القرآن: ﴿ بَلْ نقْذِفُ بِالْحقِّ علَى الْبَاطِلِ فيدْمغُهُ فإذَا هُو زَاهِقٌ ﴾ (الأنبياء: ١٨) فقد صور الحق بالقذيفة الثقيلة التي تدمغ الباطل وتزهقه.

ومن الاستعارات البليغة قوله سبحانه: ﴿ فوجدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن ينقَضَّ فأقَامَهُ ﴾ (الكهف: ٧٧) وقول الله تعالى: ﴿ واعْتصِمُوا بِحبْلِ اللَّهِ جمِيعًا ولا تفرَّقُوا ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

٥- العلم في القرآن

دعا القرآن إلى العلم في أول آيات تنزلت منه، وأقسم الله بالقلم وهو أول أداة في سبيل تحصيل العلم فقال تعالى: ﴿ نٓ والْقلَمِ ومَا يسْطُرُونَ ﴾ (القلم: ١).

كما أشاد القرآن بمكانة العلم والعلماء فقال سبحانه: ﴿ بلْ هُو آياتٌ بيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ (العنكبوت: ٤٩).

﴿ شهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ والْملائِكَةُ وأُولُوا الْعِلْمِ ﴾ (آل عمران: ١٨).

وقد خاطب القرآن الكريم ذوي العقول الراجحة، ووجه الحديث إلى أهل الخبرة والمعرفة فقال سبحانه:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٠).

وقال عز شأنه: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾ (الجاثية: ٣ـ ٥).

وهكذا يفصل كتاب الله في مراحل الوحي المختلفة المقصود بالعلم، وما انقسم إليه في عصرنا هذا من فروع وتخصصات، مثل الفلك والفيزياء، والكيمياء، والأرصاد، والنبات، والحيوان، وطبقات الأرض، ونحوها. . تلك العلوم الأساسية التي بازدهارها تزداد الشعوب درجات في البأس والقوة، ودرجات في الإيمان والتقرب من الله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر:٢٨).

لقد تعرض القرآن في آيات كثيرة منه ـ نحو سبعمائة وخمسين آية ـ إلى مسائل هي من صميم العلم، وذكر جانباً من الحقائق العلمية كقضايا عامة، ودخل في تفاصيل بعض الحقائق الأخرى وبذلك نبه الأذهان إلى أهمية البحث وإعمال النظر والفكر وبتلك الدفعة الكبرى ألف العرب الموسوعات الشاملة في مختلف فروع العلم والمعرفة فكتب ابن سينا نحو ٢٦٦ كتاباً في علوم الطب والفلسفة والمنطق والفلك والرياضة والفيزياء والنبات والحيوان إلخ، وألف ابن الهيثم نحو ٢٠٠ كتاب منها كتابه البصريات الذي لقي رواجاً بعد تحقيقه في عصرنا هذا، وصنف البيروني نحو ١٧٦ مخطوطاً على مستوى رفيع، منها ما عالج فيه العديد من المسائل الرياضية والفلكية الحديثة، وألف الجاحظ ما يربو على ٣٥٠ كتاباً ورسالة في الأدب والشعر مما تفخر به المكتبة العربية.

وفي مجال الرياضيات والحساب وضع العرب أساس الكسر العشري واستخدموا الصفر على يد جمشيد، وتعتبر هذه الأعمال أهم خطوة تمت في سبيل ارتقاء العلوم الرياضية، والعجيب أن القرآن الكريم يأخذ بالحساب العشري، وذلك في العديد من الآيات التي يستخدم فيها العدد مثل قوله تعالى:

﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ (الأنعام: ١٦٠).

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ (الأنفال: ٦٥).

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ (هود: ١٣).

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج: ٤٧).

﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (القدر: ٣).

عجز الزمان عن إبطال شيء من القرآن:

إذا تأملت كلمات القـرآن، وأجلت بصرك بين سطوره، وجدت أنه يشـتمل على بيـان كثـير من آيات الله تعـالى، في جمـيع أنواع المخلوقات، من الجـماد والنـبات والحيـوان والإنسان، ويصف خلق السمـوات وشمسهـا وقمرها ونجومـهـا، والأرض والهواء والسـحاب والماء، من بحار وأنهـار وينابيع، وفيه تفـصيل لكثير من أخـبار الأمم، وبيان لطريق التشريع السوي الأمثل. وقد حفظ ذلك كله فيه بكلماته وحروفه منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً، ثم عجـزت هذه القرون التي ارتقت فيها جميع العلوم والفنون، أن تنقض بناء آية من آياته أو تبطل حـكما من أحكامه أو تكذب خـبرا من أخباره، وهي التي جعلت فلسفة اليـونان دكا، ونسخت شرائع الأمم نسخا، وتركت سائر علوم الأوائل قاعا صفصفا، ووضعت لأخـبار التاريخ قواعد فلسفية، ورجعت في تحقيقها إلى ما عثر عليه المنقـبون من الآثار العادية، وحكمت فيها أصول العمران وسنن الاجتماع، بحيث لم يتبق لعلماء الأوائل كتاب غير منقوض.

وظلت أخبار القرآن وتشريعاته وعلومه وفنونه خالدة باقية، وذلك سر من أسرار الإعجاز فـي القرآن فإن الله قد تكفل بحـفظه وخلوده، فقال سبـحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

٦ ـ القرآن والعلم الحديث

من إعجاز القرآن الكريم إشارته إلى نشأة علوم حديثة لم يعرفها السابقون، وإنما لفت أنظارهم إليها، كما وجه أبصارهم إلى دراسة الكون وتأمل ظواهره والإحاطة بآيات الله فيه، وقد حملت آيات القرآن بذور هذا التقدم العلمي وأرشدت إليه وفكت مغاليقة وتركت للعقل البشري بعد ذلك استكمال رسالته حتى يتحقق من صواب نظريته أو خطئها.

قال تعالى: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ (فصلت: ٥٣).

وقد استخرج بعض علمائنا من القرآن ما يشير إلى مستحدثات الاختراع وما يحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية وبسطوا كل ذلك بسطاً في موضعه، من ذلك أن الصعود إلى أعلى يلزمه حتما ضيق الصدر، أي الاختناق بسبب نقص الأكسجين، وهذا يفسر لنا قولى تعالى: ﴿ **وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ** ﴾ (الأنعام: ١٢٥).

ومن الثابت أن للأرض جاذبية، وللأفلاك الأخرى كالشمس والقمر جاذبية ويحتاج الإنسان إلى سرعة جبارة ليندفع في الفضاء متخلصا من جاذبية الأفلاك، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ** ﴾ (الرحمن: ٣٣). وما هذا السلطان إلا سلطان العلم وهو أقوى ما حصل عليه الإنسان وأعظم ما منح، وبه ملك زمام الأرض والسماء.

ويقول الله تعالى في (سورة الفرقان: ٦١): ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا** ﴾ .

والبروج مجموعات النجوم المعروفة بالدلو والحوت والحمل والثور والجوزاء والأسد والسرطان والعذراء والميزان والعقرب والقوس والجدي.

أما السراج فهي الشمس المضيئة، والإعجاز هنا إشارة القرآن إلى أن وظيفة القمر هي مجرد التنوير برد ضوء الشمس الساقط عليه، أما الشمس فهي مصدر الطاقات التي ترسلها عبر الفضاء الكوني كما يرسل السراج المتقد الضوء والحرارة.

قال تعالى في (سورة نوح: ١٦): ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾.

وفي (سورة النبأ: ١٣): ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾.

وقطر الشمس أكبر من قطر الأرض مائة مرة وتبلغ درجة حرارة سطحها من ٦٠٠٠ درجة مطلقة إلى ١٠ مليون درجة.

وتمدنا الشمس بجميع أنواع الطاقات التي تشرق بها الأرض، وتزدهر الحياة في كنفها. ويشير القرآن إلى تغير تلك الطاقات بتغير الشهور والمواسم حتى يعم النفع ولا يمل الناس من حر دائم أو برد مستمر.

- يقول سبحانه ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ (الفرقان: ٤٥).

كما يشير القرآن إلى بعض الظواهر الفلكية في تحديد مسار الشمس فهي تجري ومعها سائر أجرام مجموعتها بسرعة تبلغ عدة مئات الأميال في الثانية.

ورغم سير الشمس المستمر، فإنها لا تتخلف عن وظيفتها، ولا تظهر في غير أوانها، كما أن للقمر مداره ومنزله وفلكه الذي يسبح فيه، وقد قدر الله كل ذلك بنظام بديع وتقدير محكم لا يختل ولا يضطرب، وفي إعجاز رائع وأسلوب حكيم ينطق القرآن بهذه الظاهرة، فيقول سبحانه: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ (يس: ٣٨ ـ ٤٠).

القرآن وعلوم الفضاء:

أشار القرآن إلى أسفار الفضاء، وذكر أن أجرام السماء تظل تسبح على الدوام

إلى ما شاء الله، حيث لا يوجد في الفضاء الكوني ما يعوق حركتها، أو يغير من سرعتها مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٣).

ومن العجيب أن يذكر القرآن أسفار الفضاء كلها على أنها تتم في مسارات منحنية، والحقيقة أن الفضاء لا يعرف الخط المستقيم، انظر إلى قوله تعالى في (سورة المعارج: ٤) ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾.

وفي (سورة سبأ: ٢): ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾.

وفي (سورة الحجر: ١٤): ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾.

وحين انفتح أمام الإنسان باب الوصول إلى القمر ورحل إليه مرة بعد أخرى رأى نفسه ينطلق في مسارات منحنية أو متعرجة، ولا يسير في خطوط مستقمية، وعندما صعد رواد الفضاء فوق جو الأرض، نظروا إلى الأرض فرأوا قبة زرقاء معلقة في الفضاء، وأصبح في مقدروهم تمييز الخط الفاصل بين الليل والنهار في غلاف الأرض،ورأوا أن هذا الخط يلف مع دوران الأرض حول محورها، ولقد أشار القرآن إلى هذه الحقائق بأسلوبه المعجز وبيانه الحكيم. قال تعالى في (سورة الزمر: ٥): ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾.

وفي (سورة النور: ٤٤): ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾.

وقد أشار القرآن إلى أهمية الجبال في حفظ توازن الأرض، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ (النحل: ١٥).

وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (النبأ: ٦، ٧).

وثبت علميا أن قشرة الأرض ميزان حساس فكل مكان فيه هو كفة متوازنة مع

كل مكان آخر، فإذا تغير الثقل على مكان ما اضطرب هذا التوازن ونجمت عن ذلك هزات الزلازل، وتصدعات القشرة اليابسة لإعادة هذا التوازن، والجبال بمقتضى عوامل التعرية تزول ببطء شديد، ولعل هذا ما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (النمل: ٨٨).

ومن الإعجاز العلمي للقرآن ما كشف عنه العلم من تلاقح النبات وأنه أزواج. قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يس: ٣٦).

وقال سبحانه: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ (طه: ٥٣).

﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ (الرعد: ٣).

وقال عز شأنه: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (الحجر: ٢٢).

وقد ظن فريق من العلماء أن الآية تشير إلى تلقيح الرياح لبعض النباتات كما هو معروف. ولكن هذا المعنى لا يربط الجزء الأول من الآية بجزئها الثاني وهو إنزال الماء العذب.

فالآية تشير إلى ما تسببه الرياح من تسخير السحاب وإنزال المطر، وإثراء الحياة بالخيرات والنبات والمرعى مما يستحق التفكير والتأمل. قال تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٦٤).

وقد أقسم الله تعالى بالنجوم في تعبير بلغ ذروة الإعجاز في وصف أبعاد النجوم واتساع الكون المادي بصفة عامة، قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ (الواقعة: ٧٥، ٧٦).

ومن آيات القرآن الكريم يتضح لنا أن لله عز وجل كتابين، كتاب مفتوح وهو

الكون يقرؤه العالم والجاهل والكبير والصغير والمتعلم والأمي، وكتاب مقروء أنزله على نبيه ليرشد الناس إلى آثار قدرة الله بديع السموات والأرض.

ورغم أن المقصود الأسمى من هذا الكتاب هو الهداية والإرشاد إلا أنه مع ذلك حوى أصول الإعجاز التشريعي والنفسي والبياني والعلمي.

وإن من أدلة إعجاز هذا الكتاب الكريم أن يخطئ الناس في تفسيره على اختلاف العصور لضعف وسائلهم العلمية ولقصر حبالهم أن تعلق بأطراف السموات أو تحيط بالأرض، ثم تصيب الطبيعة نفسها في كشف معانيه، فكلما تقدمت العلوم ونازعت إلى الكشف والاختراع واستكملت آلات البحث ظهرت حقائقه الطبيعية، ناصعة حتى كأن القرآن غاية لا يزال عقل الإنسان يتطلع إليها.

ولا عجب في ذلك، فالعقل أثر من آثار الله، والوحي أثر من آثار الله وآثار الله لا تناقض بينها ولا اضطراب.

قال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ (الملك: ٣).

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٢١).

٧- عناصر الجمال الفني في القرآن

من نواحي الإعجاز في القرآن الكريم أنه يعرض أمامك الصورة البارعة التي تأخذ الألباب وتستولي على الأفئدة فتتحول إلى مشهد رائع أو لوحة خالدة.

وقد نزل القرآن على العرب والأمية فيهم منتشرة فعرض عليهم كتاب الكون بكل ما فيه، وقدم لهم لوحات خالدة وصورا مثيرة تستلفت نظر الأعمى والبصير والأمي والمتعلم، والمرأة والرجل، والشيخ والشاب، فهو كتاب العامة والخاصة على السواء.

وقد كان القرآن المكي يستلفت أنظار الناس إلى جمال هذا الكون وبديع صنعته، ويسترسل في سوق الأدلة المتتالية حتى يأخذ على النفس كل طريق فلا تجد سبيلا من الإذعان والإيمان عن قناعة حقة بأن هذا الكون لم يخلق عبثا ولن يترك سدى.

وفي أول آيات القرآن التي نزلت على النبي بمكة وهو في غار حراء يتلو الوحي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ (العلق: ١ـ ٥).

آيات قصيرة موجزة، وأسلوب بسيط أخاذ، وحقائق عن الكون وخالقه، والقراءة، والعلم.

فالقراءة باسم الله الذي خلق كل شيء، خلق السماء والأرض والجبال والبحار والليل والنهار والهواء والفضاء، وسخر الشمس والقمر وأبدع الكون كله في نسق رائع وجمال خالد.

وكما يعرض القرآن الكون الفسيح أمام الإنسان فإنه يستعرض النفس البشرية بكل أسرارها وإبداع خلقها ودقة تركيبها.

حتى يفكر الإنسان في أصله، كيف خلق؟ كيف تم تكوينه؟ حتى أصبح خلقاً بديعاً جميلاً فيقول سبحانه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢)﴾ (العلق: ١ ـ ٢).

ويقول الله في آية أخرى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧)﴾ (الطارق: ٥ ـ ٧).

وهذا الحديث عن البدء والمعاد يعرضه القرآن في هدوء ويسر بدون إغراب أو ابتذال، حتى يوشك أن يكون كلام النفس ذاتها، فهو السهل الممتنع وهو النسق العالي والأدب الرفيع الذي يمتع العقل والفكر ويرضى العاطفة والذوق سواء بسواء.

وفي الحديث الصحيح أن عمر رضي الله عنه لما سمع قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ (المؤمنون: ١٢ ـ ١٤).

قال عمر متعجباً: «فتبارك الله أحسن الخالقين».

وتبسم النبي ﷺ لنطق عمر، فلما سأله عمر عن سر تبسمه قال: إن الله ختم الآية بما نطقت به.

وقد فرح عمر بذلك وقال: وافقت ربي ووافقني ربي.

وليس ذلك بعجيب على عمر فقد جعل الله الحق على لسانه وقلبه وقال فيه النبي: إنه كان فيمن مضى ملهمون، ولو كان في أمتي ملهمون لكان عمر.

وإذا تأملت آيات القرآن، رأيتها تعرض تطور الجنين وتكوينه في صورة مشرقة تنبض بالحياة والحركة، فإذا المعنى الذهني حركة ومشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا اللفظ القرآني يعرض الحياة بكل أطوارها.

فإذا ذكرنا أن الأداة التي تصور هذه الحياة إنما هي ألفاظ جامدة، لا ألوان تصور، ولا شخوص تعبر، أدركنا موضع الإعجاز في تعبير القرآن الكريم.

الإعجاز في نغم القرآن:

لأسلوب القرآن حلاوة تأخذ بالألباب، وتستهوى الأفئدة فلا تلبث آياته أن تأخذ سبيلها إلى القلوب في إيقاع ندي وجرس جميل ونغم رائع، ولقد سمع القرآن أحد الكفار فرجع إلى قومه قائلاً: «لقد سمعت من محمد آنفاً قولاً ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وإن فرعه لجناه، وما يقول هذا بشر».

وتستطيع أن تتبين هذا الإعجاز في جميع آيات القرآن وكلماته، فكل كلمة قد وضعت في مكانها، وكل حرف قد صادف موقعه، اقرأ مثلاً سورة الرحمن، واسترسل في قراءتها على سجيتك، وامعن نظرك في جمال عرضها وتناسق أفكارها وتسلسل معانيها، ثم ارجع البصر كرتين. . كيف بُدئت؟ وكيف ختمت. . وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت. . وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ووطأ أولاها لأخراها.

ثم تأمل النغم الذي يسرى في جميع آياتها:

﴿ الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ ﴾ (الرحمن ١ ـ ٤).

فقرات قصار، وصوت ندي، ونشيد إلهي، ومعان ربانية تأخذ سبيلها إلى القلوب، في أسلوب إيقاعي، تبهرك موسيقاه وتستولى على الوجدان أنغامه وألحانه، فهو السحر الحلال الذي جمع بين مزايا النثر والشعر كلاهما، فلا تجد في السورة قيود القافية الموحدة، أو التفعيلات التامة، بل تجد حرية التعبير الكاملة، وجمال التصوير الرائع الذي يعرض مظاهر الكون، وحقائق الوجود ويسوق القيامة وأهوالها والجنة ونعيمها، والنار وعذابها في مشهد حي متحرك. فإذا الغائب حاضر وإذا النفس سائرة مع الآيات تتأمل نعم الرحمن في خلق الإنسان وتسخير الشمس والقمر بحسبان، ووضع الميزان، وبعد كل نعمة من نعم الله يعقب الرحمن بهذه الآية الكريمة: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

فلا يملك الإنسان إلا أن يسجد عقله وأن يزداد يقينه وأن ينطلق قلبه ولسانه قائلاً: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب.

وقد تميز القرآن على الشعر والنثر والسجع، فتحلى بمزاياها وتخلص من قيودها. قال تعالى:

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ ﴾ (الحاقة: ٣٨ ـ ٤٢).

وتصور هذه الآيات موقف العرب من القرآن وذلك أنهم أخذوا بحسن بيانه وجدة معانيه، وروعة قوافيه فأخذوا يكيلون التهم جزافا للنبي فقالوا شاعر ثم قالوا ساحر، وانبرى أحد الكفار يدافع عن القرآن أمام قومه، فقال لهم: لقد عرفنا الشعر فما هو برجزه ولا رمله، وعرفنا الكهانة فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه وعرفنا السحر فما هو بنفثه ولا عقده.

وتعرض الآية الخامسة من سورة الأنبياء مشهداً من مشاهد الكافرين وقد أخذوا يتدافعون في إلصاق التهم بالقرآن في غير تبصر ولا روية. قال تعالى:

﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ ﴾.

فكأنك تشهد أمامك منظر هؤلاء الناس، وقد اجتمعوا في مجلس، أحدهم يقول: إن القرآن أضغاث أحلام لا يعلم صحيحها من سقيمها ولاحقها من باطلها. فيجيب الثاني كلا بل افتراه محمد من عند نفسه. فيرد الثالث بل هو شعر تنزلت به الشياطين، فهي صورة متحركة لجمع مضطرب يهذى كالمحموم يحاول أن يلصق بخصمه أي تهمه تجري على لسانه.

وقد أفحمهم القرآن وألزمهم الحجة وتحداهم بالوعيد الصادق إلى يوم الدين فقال سبحانه:

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ ﴾ (الشعراء: ٢١٠، ٢١١).

وقال سبحانه:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ (هود: ١٣).

وقال عز شأنه:

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (الإسراء: ٨٨).

٨ ـ تصوير الحالات النفسية والمعنوية

من إبداع القرآن أنه يرسم الحالات النفسية كأنها نموذج إنساني واضح للعيان.

١ ـ فإذا أراد أن يبين أن الإنسان لا يعرف ربه إلا في ساعة الضيق حتى إذا جاءه الفرج نسي ربه، لم يقل ذلك في كلمات وإنما في صورة مشاهدة ملموسة، قال سبحانه: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم

بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (يونس ٢٢، ٢٣).

وهكذا تحيا الصورة وتتحرك، وتموج وتضطرب، وترتفع الأنفاس مع تماوج السفينة وتنخفض، ثم تؤدي في النهاية ذلك المعنى المراد أبلغ أداء وأوفاه.

وإذا أراد القرآن أن يبرز حالة (نموذجا) من الناس ظاهرهم يغري وباطنهم يؤذي رسم لهم صورة كما يأتي:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ (البقرة: ٢٠٤، ٢٠٥).

فيستعيض من الوصف الحركة والتصرف، ويبرز المفارقة بين الظاهر والباطن في نسق من الصور المتحركة في النفس والخيال.

ومن أمثلة التصوير المشخص لمشاهد الحوادث الواقعة قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ (الأحزاب: ٩ ـ ١١).

فقد رسم في هذه الآيات مشهدا كاملاً برزت فيه الحركات الظاهرة والانفعالات المضمرة والتقت فيه الصورة الحسية بالصورة النفسية وكأنما الحادث معروض من جديد دون أن يغفل منه قليل أو كثير.

وإذا عرض القرآن لمشاهد القيامة أبرزها في مشاهد متتابعة أو صور متحركة فيقول سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ (الحج: ١، ٢).

فتلحظ في هذا المشهد المرضعات الذاهلات عما أرضعن والحوامل الملقيات حملهن من الهول، والسكارى من الذهول والخوف وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد.

مشاهد الكون:

يوجه القرآن النظر إلى مشاهد الكون، ويلفت الإنسان إلى دلائل القدرة وآيات الإبداع الإلهي فيقول: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ (الملك: ٣، ٤).

ومن مشاهد الطبيعة الصامتة يعرض القرآن صورة للأرض حين تنبت صنوف النباتات التي تسقى بماء واحد ولكنها تختلف في الطعم والمذاق فيقول سبحانه: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرعد: ٤).

ومن مناظر الطبيعة المتحركة يعرض القرآن صورة الطير التي تطير باسطة أجنحتها صافة أقدامها، ثم تقبض أجنحتها كذلك عند الهبوط فيقول سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ (الملك: ١٩).

وهي صورة حية متحركة يراها الناس كل لحظة، فيمرون عليها غافلين، فهو يلفت إليها أنظارهم، ليروها بالحس الشاعر المتأثر، دليلاً على قدرته ورحمته. وفي الأرض مشاهد عدة للجمال الطبيعي منها ذلك المنظر المألوف منظر الظل الذي تلقيه الأجرام فيبدو ساكنا

«هو يتحرك ببطء لطيف: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ (الفرقان: ٤٥، ٤٦).

ونخلص من ذلك إلى أن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن وهو القاعدة المتكررة فيه للبيان، وهو الطريقة التي يتناول بها جميع الأغراض وهو الخصيصة التي لا يخطئها الباحث في جميع الأجزاء.

ألوان من الصور المتحركة:

يقول سبحانه: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ (يس: ٣٨ ـ ٤٠).

وفيه ترى الشمس والقمر في سباق جبار لا يني أو يفتر في ليل أو نهار.

ويصف القرآن جهنم وصفا يخلع عليها الحياة والحركة فهي نهمة متغيظة لا يفلت منها أحد، ولا تشبع بأحد.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ (ق: ٣٠).

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ (الفرقان: ١٢).

ويصف القرآن الغضب فيخلع عليه صفة الأحياء من السكون والسكوت فيقول سبحانه: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ﴾ (الأعراف: ١٥٤).

ومن التصوير البديع قوله سبحانه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (الكهف: ١٠٩).

فالخيال يظل يتصور تلك الحركة الدائبة: حركة الامتداد بماء البحر لكتابة كلمات الله، في غير ما توقف ولا انتهاء، إلا أن ينتهي البحر بالنفاد.

ومن التعبير المصور قوله سبحانه: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ (آل عمران: ١٨٥).

فلفظ الزحزحة ذاته يخيل حركتها المعهودة.

ومن الصور الحسية لإضاعة الأعمال قوله سبحانه:

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ (الفرقان: ٢٣).

ومن بدائع القرآن في تجسيم المعنويات قوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ (إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٦).

والكلمة الطيبة هنا هي كلمة التوحيد، وهي شهادة أن لا إله إلا الله، وهي كلمة طيبة يترتب عليها أثر حسن وأعمال جليلة النفع وتثمر الأقوال والأفعال الحسنة والعبادات والمعاملات المشروعة، وقد صور القرآن أثرها بصورة شجرة طيبة مثمرة أصلها ثابت في الأرض وفرعها صاعد إلى السماء. وتؤتي ثمارها الحسنة بين وقت وآخر.

والكلمة الخبيثة هي كلمة الشرك تقطع صاحبها عن الله وقد صورها القرآن بشجرة الشوك أو الحنظل التي يقطعها الفلاح لإصلاح أرضه فتنتهي حياة الشجرة بالهلاك كما تنتهي حياة المشرك بالعذاب.

ويعبر القرآن عن العمل المعنوي فيجعله حاضراً بنفسه كأنه وديعة تسلم فيقول سبحانه:

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ (آل عمران: ٣٠). ويقول: ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ (الكهف: ٤٩). ويقول: ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ﴾ (البقرة: ١١٠).

ويتحدث القرآن عن حالة نفسية معنوية هي حالة الضيق والضجر فيجسمها في صور حسية تجعل ضيق الأرض المعنوي ضيقا حسيا واضحاً وواقعيا، إذ يصف القرآن ثلاثة من المسلمين تخلفوا عن الغزو مع الرسول في جيش العسرة ثم ندموا وتابوا فيقول: ﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ

وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة: ١١٨).

ويقول سبحانه: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (غافر: ١٨). فالقلوب كأنما تفارق مواضعها، وتبلغ الحناجر حقا من شدة الضيق.

وهكذا تتكشف للناظر في القرآن آفاق وآفاق، من التناسق والاتساق، فمن نظم فصيح، إلى سرد عذب، إلى معنى مترابط، إلى نسق متسلسل، إلى لفظ معبر، إلى تعبير مصور، إلى تصوير منخفض. إلى تخييل مجسم، إلى موسيقى داخلية، إلى اتساق في الأجزاء، إلى تناسق في الإطار، وبهذا كله يتم الإبداع، ويتحقق الإعجاز.

٩- طريقة القرآن

من طريقة القرآن أنه يتخير الأسلوب المناسب للفكرة، وينوع في نظام الفواصل والقوافي بتنوع الموضوع الذي يعرضه، ويتبع ذلك طول الفاصلة وقصرها وطريقة بنائها اللفظي من حيث السهولة والخشونة، وتخير الحرف الأخير الذي تختم به فمن ذلك ما جاء في سورة مريم فالسورة تبدأ بقصة زكريا ويحيى، وتليها قصة مريم وعيسى وتسير الفاصلة والقافية هكذا.

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾ (مريم: ٢، ٣).. إلخ الآيات..

ثم يقول: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ (مريم: ١٦، ١٧) إلى أن تنتهي القصتان على روي واحد. وفجأة يتغير هذا النسق بعد آخر فقرة في قصة عيسى على النحو التالي:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ

وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾ (مريم: ٣٠ ـ ٣٢).

إلى أن يقول سبحانه: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ (مريم: ٣٤ ـ ٣٦).

وهكذا يتغير نظام الفاصلة فتطول ويتغير ختام الفاصلة فتصبح بحرف النون أو بحرف الميم وقبلها مد طويل، وكأنما هو في هذه الآيات الأخيرة يصدر حكما بعد نهاية القصة، مستمدا منها، ولهجة الحكم تقتضي أسلوبا تعبيريا غير أسلوب الاستعراض، وتقتضي إيقاعاً قويا رصينا بدل إيقاع القصة الرضى المسترسل وكأنما لهذا السبب كان التغيير، فإذا انتهى القرآن من إصدار الحكم وإلقاء القرار عاد إلى النظام الأول في القافية والفاصلة، لأنه عاد إلى قصص جديد على النحو التالي:

﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (مريم: ٣٧).. إلخ الآيات إلى أن يقول سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ ﴾ (مريم: ٤١، ٤٢).. إلخ الآيات.

ومن إبداع القرآن أن أسلوبه إذا مس الجماد نبض بالحياة وتبدل بقدرة قادرة، ومعجزة باهرة.

فالأرض والسماء والشمس والقمر والجبال والوديان والدور العامرة والآثار الدائرة والنبات والحيوان والأشجار والأفنان.. كل أولئك أحياء، أو مشاهد تخاطب الأحياء.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً﴾ (المزمل: ١٤) فهي حية ترتجف كالآدميين.

ويقول سبحانه: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ (المزمل: ١٧، ١٨). فالسماء المنفطرة بجوارها الأطفال الشيب.

وهول الطوفان يصور في الطبيعة وإلى جانبها يصور في والد وولده: ذلك ناج في السفينة ملهوف على فلذة كبده، وهذا يجرفه الطوفان حيث: ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ (هود: ٤٣). وإن الهول هنا ليكاد أعظم من الهول في الطبيعة: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ (هود: ٤٢) فما كان الموج في المشهد إلا إطارا للهول النفسي الذي يفرق بين الابن وأبيه ويفصم الصلة التي لا تفصمها الأهوال.

العجز عن معرفة الإعجاز:

من علماء البلاغة من يرى أن الإعجاز شيء لا يمكن التعبير عنه ولكن النفس تحس حيال القرآن بإحساس غامض أساسه العجز أمام قدرته وقوته وبيانه. قال السكاكي في كتابه مفتاح العلوم: «اعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها، وكالملاحة، وكما يدرك طيب النغم العارض لهذا الصوت، ولا طريق إلى تحصيله لغير ذوي الفطر السليمة إلا بإتقان علمي المعاني والبيان والتمرن فيهما»[1].

وذكر ابن أبي الحديد - صاحب شرح نهج البلاغة - أن معرفة مقامات الكلام لا تدرك إلا بالذوق، فقال:

اعلم أن معرفة الفصيح والأفصح والرشيق والأرشق، والجلي والأجلى، والعلي والأعلى من الكلام أمر لا يدرك إلا بالذوق، ولا يمكن إقامة الأدلة المنطقية عليه، وهو بمنزلة جاريتين: إحداهما بيضاء مشربة حمرة، دقيقة الشفتين، نقية الشعر، كحلاء العينين، أسيلة الخد، دقيقة الأنف، معتدلة القامة، والأخرى دونها في هذه الصفات والمحاسن، لكنها أحلى في العيون والقلوب منها وأليق وأملح ولا يدرى لأي سبب كان ذلك، لكنه بالذوق والمشاهدة يعرف ولا يكن تعليله وهكذا الكلام[2].

وذهب الخطابي إلى أن إعجاز القرآن يرجع إلى «صنعه في القلوب وتأثيره في النفوس فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوما ولا منثورا إذا قرع السمع خلص له

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٢/ ١٠٠.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢/ ١٢٤.

إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في حال أخرى ما يخلص منه إليه[1]. قال الله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ (الحشر: ٢١).

وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (الزمر: ٢٣).

الإعجاز التشريعي:

من إعجاز القرآن اشتماله على العلوم الإلهية وأصول العقائد الدينية وأحكام العبادات، وقوانين الفضائل والآداب وقواعد التشريع السياسي والمدني والاجتماعي الموافقة لكل زمان ومكان.

ولا شك في أن هذا الوجه من أظهر وجوه الإعجاز فإن علوم العقائد الإلهية والغيبية والتشريع الديني والمدني والسياسي هي أرقى العلوم، وقلما ينبغ فيها من الذين ينقطعون لدراستها السنين الطوال، إلا الأفراد القليلون، فكيف يستطيع رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب، ولا نشأ في بلد علم أو تشريع، أن يأتي بمثل ما في القرآن منها تحقيقاً وكمالاً، ويؤيده بالحجج والبراهين، بعد أن قضى ثلثي عمره لا يعرف شيئاً منها، ولا ينطق بقاعدة ولا أصل من أصولها، ولا حكم بفرع من فروعها، إلا أن يكون ذلك وحياً من الله تعالى؟

نور القرآن وهدايته:

نجح القرآن أي نجاح في رسالته للهداية والإصلاح، فهو الذي غرس الإيمان في الكبار والصغار غرساً، وبثه روحاً عاماً، وأشعر النفوس بما جاء فيه إشعاراً ودفعها إلى التخلي عن موروثاتها جملة، وحملها على التحلي بهديه الكريم علماً وعملاً.

وقد تم ذلك بالاقتناع والرغبة والرضا والإذعان ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

---

(١) البرهان ٢/١٠٦.

أما السيف ومشروعية الجهاد في الإسلام فلم يكن لأجل تقرير عقيدة في نفس، ولا لإكراه شخص أو جماعة على عبادة، ولكن لدفع أصحاب السيوف عن إذلاله واضطهاده، وحملهم على أن يتركوا دعوة الحق حرة طليقة، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله.

هذا الأساس الذي وضعه القرآن وحده هو سر نهضته، وإن شئت فقل هو نار ثورته بل هو نور هدايته، والروح الساري لإحياء العالم بدعوته، وذلك عن طريق أسلوبه المعجز الذي هز النفوس والمشاعر، وملك القلوب والعقول، وكان له من السلطان ما جعل أعداءه منذ نزل إلى اليوم يخشون بأسه وصولته، ويخافون تأثيره وعمله، أكثر مما يخافون الجيوش الفاتحة، والحروب الجائحة، لأن سلطان الجيوش والحروب لا تعدو هياكل الأجسام والأشباح، أما سلطان هذا الكتاب فقد امتد إلى النفوس والأرواح، بما لم يعهد له نظير في أية نهضة من النهضات.

ولقد أشار القرآن نفسه إلى هذا الوجه من إعجازه، حين سمى الله كتابه روحاً من أمره بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ (الشورى: ٥٢) وحين سماه نوراً بقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ (المائدة: ١٥) .

عشرة أوجه للإعجاز:

ذكر القرطبي عشرة أوجه لإعجاز القرآن هي:

١ ـ نظمه البديع المخالف لكل نظم معهود.

٢ ـ أسلوبه العجيب المخالف لجميع الأسباب.

٣ ـ جزالته التي لا تمكن لمخلوق.

٤ ـ التصرف في الألفاظ العربية على وجه لا يستقل به عربي.

٥ ـ الوفاء بالوعد المدرك بالحس والعيان، كوعد المؤمنين بالنصر.

٦ ـ الإخبار عن المغيبات المستقبلة التي لا يطلع عليها إلا بالوحي.

٧ ـ ما تضمنه القرآن من العلوم المختلفة التي بها قوام الأنام.

٨ ـ اشتماله على الحكم البالغة.

٩ ـ عدم الاختلاف والتناقض بين معانيه.

١٠ ـ الإخبار عن الأمور التي تقدمت من أول الدنيا إلى وقت نزوله بما لم تجر العادة بصدوره ممن لم يقرأ الكتاب ولم يتعلم ولم يسافر إلى حيث يختلط بأهل الكتاب.

وذكر صاحب المنار سبعة أوجه لإعجاز القرآن أهمها:

صدور القرآن من أمي، وبلاغته الفائقة، وغرابة أسلوبه، وأنباؤه الغريبة الصادقة.

وقد بالغ بعض المحدثين في عد وجوه الإعجاز حتى أدخل فيها ما ليس منها والقرآن غني عن إطرائه بما ليس فيه ولا من خصائصه، ويحضرني في هذا المعنى ما رواه البخاري: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، قالوا إنه ابن الله».

كما أن بعض المبشرين المحدثين حاول النيل من القرآن فذكر أن إعجاز القرآن مقصور على الناحية اللفظية وهي ناحية الفصاحة وحدها. وتطرق من ذلك إلى أن الفصاحة لا تخص القرآن وحده يشترك معه كل كلام فصيح، وهي مغالطة مكشوفة، فأسلوب القرآن يتميز على غيره من الأساليب من ناحية لفظه ومن ناحية معناه.

فمن خصائص الأسلوب القرآني ما يأتي:

١ ـ مسحة البداوة مع اشتماله على بسائط الحضارة.

٢ ـ إرضاؤه العامة والخاصة.

٣ ـ إرضاؤه العقل والعاطفة.

٤ ـ جودة السبك وإحكام السرد.

٥ ـ براعته في تصريف القول.

٦ ـ جمع القرآن بين الإجمال والبيان.

٧ ـ القصد في اللفظ مع الوفاء بالمعنى.

هذه ألوان من نواحي الإعجاز في القرآن الكريم، وهناك جوانب متعددة من إعجازه منها ما أدركه العلماء ومنها ما عجزوا عنه ولا يزال الزمان وتجدده، والعلم وتطوره يكشفان من إعجاز هذا الكتاب كل جديد. ويتضح للعيان ما فيه من إعجاز إلهي في التشريع، وإعجاز إلهي في العقيدة وإعجاز إلهي في الحكمة، وإعجاز إلهي في الإرشاد إلى خير سبل السعادة والنجاة في الدنيا والآخرة، وإعجاز إلهي في التبشير والإنذار والترغيب والترهيب، وإعجاز إلهي في عرض بدائع الكون ومشاهد عظمته وروعته، ونواميسه الماثلة في كل شيء، والبرهنة بها على وجوب وجود الله وقدرته وإحاطته، وإعجاز إلهي فيما احتواه من فصول الجدل والحجاج والإفحام والإلزام، وإعجاز إلهي فيما احتواه من الغيبيات السالفة والغيبيات الآتية، وإعجاز إلهي في صلاح ما أتى به من كل ذلك لكل زمان ومكان، وجنس ولون وعقل وثقافة.

ويؤيد ذلك ما رواه الترمذي عن الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: ألا إنها ستكون فتنة. فقلت ما المخرج منها يارسول الله؟ قال: كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ (الجن: ١، ٢) من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم».

الفصل الثالث

من علوم التفسير

١ ـ القصة في القرآن.
٢ ـ أمثال القرآن.
٣ ـ القسم في القرآن.
٤ ـ تلاوة القرآن.

١ـ القصة في القرآن

القصة هي وسيلة للتعبير عن الحياة أو قطاع معين من الحياة يتناول حادثة واحدة أو عدداً من الحوادث بينها ترابط سردي، ويجب أن تكون لها بداية ونهاية[1].

ويقسم الفن القصصي من ناحية القالب والمظهر إلى أربعة أقسام:

١ ـ الأقصوصة: وهي قصة قصيرة يعالج فيها الكاتب جانباً من حياة، لا كل جوانب هذه الحياة. فهو يقتصر على سرد حادثة، أو بضع حوادث يتألف منها موضوع مستقل بشخصياته ومقوماته. على أن الموضوع، مع قصره يجب أن يكون تاما ناضجاً من وجهة التحليل والمعالجة، ولا يتهيأ هذا إلا ببراعة يمتاز بها الكاتب الأقصوصي، إذ إن المجال أمامه ضيق محدود، يتطلب التركيز الفني.

٢ ـ القصة وتتوسط بين الأقصوصة والرواية، وفيها يعالج الكاتب جوانب أرحب مما يعالج في الأولى، فلا بأس هنا أن يطول الزمن وتمتد الحوادث ويتوالى تطورها في شيء من التشابك.

٣ ـ الرواية : وفيها يعالج المؤلف موضوعاً كاملاً أو أكثر، زاخراً بحياة تامة أو أكثر، فلا يفرغ القارئ منها إلا وقد ألم بحياة البطل أو الأبطال في مراحلها المختلفة.

٤ ـ أما الحكاية فهي سرد واقعة أو وقائع حقيقية أو خيالية لا يلتزم فيها الحاكي قواعد الفن الدقيقة، بل يرسل الكلام كما يواتيه طبعه.

ويفرض العلماء في القصة الفنية بمعناها العام وجود ثلاثة عناصر رئيسية هي

---

(١) القرآن والقصة الحديثة: محمد كامل حسن المحامي ص ٩.

الموضوع، والشخصيات، والحوار. ثم يضيفون بدقة شروط كل من هذه العناصر ويبينون أنواع الخلل التي تطرأ عليها فتحيلها من قصة فنية إلى غير فنية، ومن القواعد التي يقرونها ما يأتي:

١ ـ أن تكون للقصة وحدة فنية.

٢ ـ أن يراعى في عرضها جانب التلميح ما أمكن.

٣ ـ أن يعني كاتبها برسم شخصيات القصة.

٤ ـ أن يكون للقصة هدف ومغزى.

٥ ـ ألا تظهر فيها الموعظة أو الحكمة ظهوراً مباشراً.

٦ ـ ألا تخلو من عنصر التشويق.

٧ ـ أن يكون أسلوبها طبيعيا لا هو بالمتهافت ولا بالبالغ الصعوبة.

والقصة في القرآن الكريم ليست عملاً فنيا مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه ـ كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة التي ترمي إلى غرض فني طليق، إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها.

وقد خضعت القصة القرآنية في موضوعها وفي طريقة عرضها، وإدارة حوادثها، لمقتضى الأغراض الدينية، ولكن هذا الخضوع الكامل للغرض الديني لم يمنع بروز الخصائص الفنية في عرضها، ولا سيما خصيصة القرآن الكبرى في التعبير، وهي التصوير[1].

أنواع القصص في القرآن:

القصص في القرآن ثلاثة أنواع:

النوع الأول: قصص الأنبياء، وقد تضمن دعوتهم إلى قومهم، والمعجزات التي أيدهم الله بها وموقف المعاندين منهم، ومراحل الدعوة وتطورها وعاقبة المؤمنين

(١) التصوير الفني في القرآن للأستاذ سيد قطب ١١٧.

والمكذبين، كقصص نوح وإبراهيم وموسى وهارون، وعيسى، ومحمد وغيرهم من الأنبياء والمرسلين، عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام.

النوع الثاني: قصص قرآني يتعلق بحوادث غابرة، وأشخاص لم تثبت نبوتهم، كقصة الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت وطالوت، وجالوت، وابني آدم، وأهل الكهف، وذي القرنين، وقارون وأصحاب السبت، ومريم وأصحاب الأخدود، وأصحاب الفيل ونحوهم.

النوع الثالث: قصص يتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن الرسول ﷺ كغزوة بدر وأحد في سورة آل عمران، وغزوة حنين وتبوك في التوبة وغزوة الأحزاب في سورة الأحزاب، والهجرة، والإسراء ونحو ذلك[1].

أغراض القصة في القرآن:

سيقت القصة في القرآن لتحقيق أغراض دينية بحتة، وقد تناولت من هذه الأغراض عدداً وفيراً من الصعب استقصاؤه، لأنه يكاد يتسرب إلى جميع الأغراض القرآنية، فإثبات الوحي والرسالة، وإثبات وحدانية الله، وتوحد الأديان في أساسها والإنذار والتبشير، ومظاهر القدرة الإلهية، وعاقبة الخير والشر، والعجلة والتريث، والصبر والجزع، والشكر والبطر، وكثير غيرها من الأغراض الدينية والمرامي الخلقية قد تناولته القصة وكانت أداة له وسبيلا إليه.

فإذا نحن استعرضنا هنا أغراض القصة القرآنية فإنما نثبت أهم هذه الأغراض وأوضحها وهي:

١ ـ إثبات الوحي والرسالة، وبيان أن الدين كله من عند الله من عهد نوح إلى عهد محمد، وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة والله الواحد رب الجميع.

وفي سورة الأنبياء مظهر واضح لوحدة الرسالة فقد تحدثت السورة عن قصص الأنبياء فذكرت طرفاً من قصة موسى وهارون وإبراهيم ولوط وداود وسليمان وأيوب

(١) مناع القطان: مباحث في علوم القرآن ص ٢٦٠.

وإسماعيل وإدريس وذي الكفل وذي النون وزكريا ومريم، ثم عقبت على ذكرهم جميعاً بالآية الكريمة: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٩٢) وهذا هو الغرض الأصيل من هذا الاستعراض الطويل، وغيره من الأغراض الأخرى يأتي عرضاً وفي ثناياه.

٢ ـ بيان أن وسائل الأنبياء في الدعوة موحدة، وأن استقبال قومهم لهم متشابه، فضلاً عن أن الدين من عند الله إله واحد، وأنه قائم على أساس واحد.

وفي سورة هود يقول القرآن الكريم

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ . . . إلخ الآيات (هود: ٢٥ ـ ٤٩).

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِن أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ﴾ . . . إلخ الآيات (هود: ٥٠ ـ ٦٠).

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ . . . إلخ الآيات (هود: ٦١ ـ ٦٨).

فنجد في هذه الآيات من سورة هود أن دعوة الرسل واحدة وإجابة قومهم تكاد تكون واحدة، وأن قصة كل نبي تتشابه مع الأخرى في الدعوة والجهاد والنضال، والبداية والختام.

٣ ـ بيان أن الله ينصر أنبياءه في النهاية ويهلك الكاذبين، وفي ذلك تثبيت لقلب رسول الله ﷺ، وقلوب الأمة المحمدية، وتقوية ثقة المؤمنين بنصرة الحق وجنده وخذلان الباطل وأهله.

لقد نصر الله نوحا وأغرق قومه، وأنقذ إبراهيم من النار ونجاه من كيد الكافرين وأنقذ لوطا وأهلك قومه بالخسف والعذاب. وقصص الأنبياء يحكي عاقبة المكذبين بالرسل وما ذاقوا من ألوان العذاب. قال تعالى:

﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (العنكبوت: ٣٩، ٤٠).

وتلك هي النهاية الواحدة للمكذبين.

ويقول سبحانه: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (هود: ١٢٠).

٤ ـ تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكراهم وتخليد آثارهم وبيان نعمة الله تعالى عليهم كقصص سليمان وداود وأيوب وإبراهيم ومريم وعيسى وزكريا ويونس وموسى، فكانت ترد حلقات من قصص هؤلاء الأنبياء تبرز فيها النعمة في مواقف شتى.

٥ ـ وللقصة في القرآن أغراض أخرى متفرقة منها:

بيان قدرة الله على الخوارق: كقصة خلق آدم، وقصة مولد عيسى، وقصة إبراهيم والطير الذي آب إليه بعد أن جعل على كل جبل منه جزءاً، وقصة «الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها» وقد أماته الله مائة عام ثم بعثه.

وبيان عاقبة الاستقامة والصلاح، وعاقبة الانحراف والإفساد كقصة ابني آدم، وقصة صاحب الجنتين. وقصص بني إسرائيل بعد عصيانهم. وقصة سد مأرب وقصة أصحاب الأخدود.

وبيان الفارق بين الحكمة الإنسانية العاجلة، والحكمة الكونية البعيدة الآجلة كقصة موسى والخضر.

إلى آخر هذه الأغراض الوعظية، التي كانت تساق لها القصص فتفي بمغزاها.

آثار خضوع القصة للغرض الديني:

خضعت القصة في القرآن للأغراض الدينية فترك هذا الخضوع آثاراً واضحة في طريقة عرضها بل وفي مادتها ومن أوضح هذه الآثار ما يأتي:

١ ـ تكرار القصة الواحدة.

ونعني بالتكرار أن ترد القصة الواحدة مكررة في مواضع شتى، ولكن هذا التكرار لا يتناول القصة كلها ـ غالباً ـ إنما هو تكرار لبعض حلقاتها، ومعظمه إشارات سريعة لموضع العبرة فيها. أما جسم القصة كله فلا يكرر إلا نادراً ولمناسبات خاصة في السياق.

وحين يقرأ الإنسان هذه الحلقات المكررة ملاحظا السياق الذي وردت فيه يجدها مناسبة لهذا السياق تماماً، في اختيار الحلقة التي تعرض هنا أو تعرض هناك، وفي طريقة عرضها كذلك، ويجب أن نذكر دائماً أن القرآن كتاب دعوة دينية، وأن التناسق بين حلقة القصة التي تعرض والسياق الذي تعرض فيه هو الغرض المقدم.

على أن هناك ما يشبه أن يكون نظاماً مقرراً في عرض الحلقات المكررة من القصة الواحدة ـ يتضح حين تقرأ بحسب ترتيب نزولها ـ فمعظم القصص يبدأ بإشارة مقتضبة ثم تطول هذه الإشارات شيئاً فشيئاً، ثم تعرض حلقات كبيرة تكون في مجموعها جسم القصة، وقد تستمر الإشارات المقتضبة فيما بين عرض هذه الحلقات الكبيرة عند المناسبات حتى إذا استوفت القصة حلقاتها عادت هذه الإشارات هي كل ما يعرض منها.

ونضرب مثالاً على هذا النظام، قصة موسى، إذ إنها أشد القصص في القرآن تكراراً فهي من هذه الوجهة تعطي فكرة كاملة عن هذا التكرار. وردت هذه القصة في حوالي الثلاثين موضعا في القرآن: من أهمها ما ذكر في عشرين سورة سنذكرها حسب ترتيب نزولها:

في سورة الأعلى ثم في سورة الفجر ثم في سورة الأعراف ثم الفرقان ثم مريم

ثم طه، ثم الشعراء ثم النمل ثم القـصص ثم الإسراء ثم يونس ثم هود ثم غافر ثم فصلت ثم الذاريات ثم الكهف ثم إبراهيم ثم الأنبياء ثم النساء ثم المائدة.

وإذا قرأنـا الآيات التي تناولت قصـة موسى في هذه السـور رأينا أن فيـها نوعـاً من التكرار وأنه ـ فيمـا عدا ستة مواضع ـ إشارات وعظيـة إلى القصة اقتضاها الـسياق، أما الحلقات الأسـاسيـة فلم تكرر تقريبـاً، وإذا كررت حلقـة منها جاءت بشـيء جديد في تكرارها. وهذه القصة نموذج للقصص الأخرى وعلى ضوئها ندرك أن ليس في القصص القرآني ذلك التكرار المطلق الذي يخيل لبعض من يقرءون القرآن بلا تدقيق ولا إمعان.

٢ـ انتخاب أجزاء من القصة:

وكان ما آثار خـضوع القصة في القرآن للغرض الديني ـ غـير التكرار ـ أن تعرض بالقدر الذي يكفى لأداء هذا الغرض، ومن الحلقة التي تتفق معه: فمرة تعرض القصة من أولها ومرة من وسطهـا ومرة من آخرها وتارة تعرض كاملـة، وتارة يكتفى ببعض حلقاتها، وتارة تتوسط بين هذا وذاك حسبما تكمن العبرة في هذا الجزء أو ذاك. ذلك أن الهدف التاريخي لم يكن من بين أهداف القرآن الأساسية كالهدف القصصي سواء، فسارت القصة وهدفها الأول هو الهدف الديني[1] على النحو التالي:

(أ) نجـد قـصصـا تعـرض منذ الحلـقـة الأولى، حلقة مـيلاد بطلهـا، لأن في مولده عظـة بـارزة وذلك مـثل قصة ميـلاد آدم وعيسى. لأن مولدهمـا دليل القدرة الكاملة لله ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ (آل عمران: ٥٩).

كما عرض القرآن قصة موسى من حين مولده، ونجاته من القتل وقصة إسماعيل حيث ولد لإبراهيم على الكبر، وقصة ميلاد يحيى حين استجاب الله لدعاء والده زكريا.

(ب) ونجد قصصاً أخرى تعرض من حلقة متأخرة نسبيا. فيوسف تبدأ قصته صبيا يرى رؤيا تسير حـياته كلها، وتؤثر في مسـتقبله، وإبراهيم تبدأ قصـة فتى ينظر في

---

(١) التصوير الفني في القرآن ص ١٣٢.

السماء فيرى نجما فيظنه إلهه فإذا أفل قال لا أحب الآفلين ثم يرى القمر والشمس.. ثم يفيء إلى ربه ويمضي في رسالته.

(جـ) ثم نجد قصصاً لا تعرض إلا في حلقة متأخرة جدا. فنوح وصالح ولوط وشعيب، وكثيرون غيرهم، لا تعرض قصصهم إلا عند حلقة الرسالة، وهي الحلقة الوحيدة التي تعرض من حياتهم لأنها أهم حلقة منها، والعبرة كامنة فيها.

٣ـ الموعظة:

وكان من أثر خضوع القصة للغرض الديني أن تمزج التوجيهات الدينية بسياق القصة، قبلها وبعدها وفي ثناياها كذلك.

وفي قصة يوسف وقصة آدم ونوح وهود ما يوضح ذلك وإذا تتبعنا قصص القرآن وجدنا عقب كل قصة تعقيباً يناسب العبرة فيها.

«لأن الغرض الأساسي من سياق القصة في القرآن هو الغرض الديني أولاً وقبل جميع الأغراض»[١].

تنوع المفاجأة وطريقة العرض

إن خضوع القصة للغرض الديني لم يمنع الخصائص الفنية في عرضها فقد لمس القرآن الوجدان، واتبع في ذلك طريقة التصوير، فبلغ الغاية بمادته وطريقته وجمع بين الغرض الديني والغرض الفني من أقرب طريق ومن أرفع طريق.

ومن الخصائص الفنية في القصة القرآنية ما يأتي:

تنوع طريقة المفاجأة:

١ ـ فمرة يكتم سر المفاجأة عن البطل وعن النظارة، حتى يكشف لهم معا في آن واحد، مثال ذلك قصة موسى مع الخضر في سورة الكهف، فقد خرق الخضر السفينة ثم قتل الغلام، ثم أقام الجدار وفي نهاية القصة يبيِّن الخضر لموسى سر هذه الأفعال.

---

(١) التصوير الفني في القرآن ص ١٣٨.

٢ ـ يكشف بعض السر للنظارة. وهو خاف على البطل في موضع وخاف عن النظارة وعن البطل في موضع آخر في القصة الواحدة.

مثال ذلك عرش بلقيس الذي جيء به في غمضة عين ثم إسلام بلقيس في النهاية بعد أن رأت صرحاً ممرداً من قوارير فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل: ٤٤).

٣ ـ ومرة يكشف السر للنظارة منذ أول لحظة مثل قصة أصحاب الجنة في سورة (القلم) التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ (القلم: ١٧).

تنوع طريقة العرض:

من الخصائص الفنية للقصة القرآنية تنوع طريقة العرض.

ونشاهد في قصص القرآن أربع طرائق مختلفة للابتداء في عرض القصة على النحو التالي:

١ ـ مرة يذكر ملخصاً للقصة يسبقها ثم يعرض التفصيلات بعد ذلك من بدئها إلى نهايتها وذلك كطريقة قصة (أهل الكهف) في سورة الكهف.

٢ ـ ومرة تذكر عاقبة القصة ومغزاها ثم تبدأ القصة بعد ذلك من أولها وتسير بتفصيل خطواتها وذلك كقصة موسى في سورة القصص، وقريب من هذا النحو قصة يوسف فهي تبدأ بالرؤيا يقصها يوسف على أبيه ثم تسير القصة بعد ذلك، وكأنما هي تأويل للرؤيا ولما توقعه يعقوب من ورائها.

٣ ـ ومرة تذكر القصة مباشرة بلا مقدمة ولا تلخيص ويكون في مفاجآتها الخاصة ما يغني مثل ذلك قصة مريم عند مولد عيسى ومفاجآتها، وقصة سليمان مع النمل والهدهد وبلقيس في سورة النمل.

٤ ـ ومرة يحيل القصة تمثيلية مثل قصة إبراهيم وحواره مع قومه عند تكسير

الأصنام، وحواره مع ولده عندما أمر بذبحه وتعاونه مع ولده في بناء البيت، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٧) وفي حوار إبراهيم مع ربه يقول القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٠).

تلك بعض سمات القصة في القرآن، وهن سمات تيسر لنا القول بأن «القرآن يجعل من الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية، بلغة الجمال الفنية»[1].

ولكن مظاهر التنسيق الفني في القصة القرآنية، لا تخضع للقواعد الفنية للقصة الحديثة ولا تتقيد بها.

فهي تتوافق في بعض الأحيان، وقد تنفرد بإبداعها الفني في بعض الأحيان، لكنها في الاتفاق والاختلاف تبقى دائماً قرآنية لها سماتها وخصائصها وميزاتها الخاصة دون أن تكون عملاً فنيا مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه، ويبقى هدفها الأول والأخير هو هدف القرآن ذاته. قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (يوسف: ٣).

٢-أمثال القرآن

من أساليب القرآن الكريم في ضروب بيانه ونواحي إعجازه ضرب الأمثال للناس وإبراز المعقول في صورة المحسوس وعرض الغائب في معرض الحاضر، وقياس النظير على النظير، وبذلك يسلك القرآن سبيله إلى الإقناع بالحكمة والموعظة الحسنة.

---

(١) التصوير الفني في القرآن ص ١٣٩

وقد أفرد أمثال القرآن بالتأليف عدد من العلماء منهم الشيخ أبو عبد الرحمن محمد بن حسين السلمي النيسابوري المتوفي سنة ٤٠٦هـ والإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية المتوفي سنة ٧٥٤هـ والإمام أبو الحسن بن محمد ابن حبيب الماوردي الشافعي سنة ٤٥٠هـ وعقد السيوطي في الإتقان بابا لأمثال القرآن وفصلا لأقسام الأمثال وأنواعها[1] وفعل ذلك ابن القيم في كتاب إعلام الموقعين.

وقد ذكر الله تعالى في كتابه أنه يضرب الأمثال فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الزمر: ٢٧).

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٣) ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر: ٢١).

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن القرآن نزل على خمسة أوجه حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام واتبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه واعتبروا بالأمثال».

قال الماوردي من أعظم علوم القرآن علم أمثاله والناس في غفلة عنه لا شتغالهم بالأمثال وإغفالهم الممثلات، والمثل بلا ممثل كالفرس بلا لجام، والناقة بلا زمام.

وقال غيره: قد عده الإمام الشافعي مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن فقال: ثم معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدالة على طاعته المبينة لاجتناب نواهيه، وقال الشيخ عز الدين إنما ضرب الله الأمثال في القرآن تذكيراً ووعظاً فما اشتمل منها على تفاوت في ثواب أو على إحباط عمل أو على مدح أو ذم أو نحوه فإنه يدل على الأحكام، وقال غيره ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة منها:

التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير وتقريب المراد للعقل وتصويره

---

(١) الإتقان ٢/١٣١، ١٣٢.

بصورة المحسوس فإن الأمثال تصور المعاني بصورة الأشخاص لأنها أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس، ومن ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي والغائب بالشاهد[1].

وقال الزركشي في البرهان ومن حكمته تعليم البيان وهو من خصائص هذه الشريعة.

تعريف المثل:

والأمثال: جمع مثل، والمثل والمثيل: كالشبه والشبه والشبيه لفظاً ومعنى.

والمثل في الأدب: قول محكي سائر يقصد به تشبيه حال الذي حكي فيه بحال الذي قيل لأجله، أي يشبه مضربه بمورده، مثل «رب رمية من غير رام» أي رب مصيبة حصلت من رام شأنه أن يخطئ، وأول من قال هذا الحكم بن يغوث النقري، يُضرب للمخطئ يصيب أحياناً، وعلى هذا فلابد له من مورد يشبه مضربه به. ولا تختلف صيغة المثل في كل استعمالاته فيخاطب به المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث بصيغته التي ورد عليها، ويطلق المثل على الحال والقصة العجيبة الشأن وبهذا المعنى فسر لفظ المثل في كثير من الآيات. كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾[2] (محمد: ١٥): أي قصتها وصفتها التي يتعجب منها.

وأشار الزمخشري إلى هذه المعاني الثلاثة في كشافه فقال: «والمثل في أصل كلامهم بمعنى المثل والنظير، ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده مثل، ولم يضربوا مثلاً ولا رأوه أهلا للتسيير ولا جديراً بالتداول والقبول إلا قولا فيه غرابة من بعض الوجوه ثم قال: وقد استعير المثل للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة.

وهناك معنى رابع ذهب إليه علماء البيان في تعريف المثل. فهو عندهم: المجاز المركب الذي تكون علاقته المشابهة متى فشا استعماله، وأصله الاستعارة التمثيلية، كقولك للمتردد في فعل أمر: «مالي أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى».

---

(١) الإتقان ٢/ ١٣١ وانظر تاريخ التفسير للشيخ قاسم القيسي مطبعة المجمع العلمي بالعراق ص ٩٩ وفيه نص كلام السيوطي.

(٢) انظر بلاغة القرآن للأستاذ محمد الخضر حسين صفحة ٢٦.

وقيل في ضابط المثل كذلك: إنه إبراز المعنى في صورة حسية تكسبه روعة وجمالاً. والمثل بهذا المعنى لا يشترط أن يكون له مورد، كما لا يشترط أن يكون مجازاً مركباً.

وإذا نظرنا إلى أمثال القرآن التي يذكرها المؤلفون وجدنا أنهم يوردون الآيات المشتملة على تمثيل حال أمر بحال أمر آخر، سواء أورد هذا التمثيل بطريق الاستعارة، أم بطريق التشبيه الصريح؟ أو الآيات الدالة على معنى رائع بإيجاز، أو التي يصح استعمالها فيما يشبه ما وردت فيه، فإن الله تعالى ابتدأها دون أن يكون لها مورد من قبل.

فأمثال القرآن لا يستقيم حملها على أصل المعنى اللغوي الذي هو الشبيه والنظير، ولا يستقيم حملها على ما يذكر في كتب اللغة لدى من ألفوا في الأمثال، إذ ليست أمثال القرآن أقوالاً استعملت على وجه تشبيه مضربها بموردها، ولا يستقيم حملها على معنى الأمثال عند علماء البيان. فمن أمثال القرآن ما ليس باستعارة وما لم يفش استعماله، ولذا كان الضابط الأخير أليق بتعريف المثل في القرآن: فهو إبراز المعنى في صورة رائعة موجزة لها وقعها في النفس، سواء كانت تشبيها أو قولاً مرسلاً.

فابن القيم يقول في أمثال القرآن: تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر، ويسوق الأمثلة: فنجد أكثرها على طريقة التشبيه الصريح كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ (يونس: ٢٤)، ومنها ما يجيء على طريقة التشبيه الضمني، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (الحجرات: ١٢)، إذ ليس فيه تشبيه صريح، ومنها ما لم يشتمل على تشبيه ولا استعارة، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج: ٧٣)، فقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ قد سماه الله مثلاً وليس فيه استعارة ولا تشبيه.

أنواع الأمثال في القرآن:

الأمثال في القرآن ثلاثة أنواع:

١ ـ الأمثال المصرحة.

٢ ـ الأمثال الكامنة.

٣ ـ الأمثال المرسلة.

النوع الأول: الأمثال المصرحة: وهي ما صرح فيها بلفظ المثل، أو ما يدل على التشبيه، وهي كثيرة في القرآن نورد منها ما يأتي:

(أ) قوله تعالى في حق المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ (البقرة: ١٧ ـ ٢٠).

ففي هذه الآيات ضرب الله للمنافقين مثلين: مثلا ناريا في قوله: ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ لما في النار من مادة النور، ومثلا مائيا في قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ لما في الماء من مادة الحياة، وقد نزل الوحي من السماء متضمنا لاستنارة القلوب وحياتها، وذكر الله حظ المنافقين في الحالين. فهم بمنزلة من استوقد ناراً للإضاءة والنفع حيث انتفعوا ماديا بالدخول في الإسلام، ولكن لم يكن له أثر نورى في قلوبهم، فذهب الله بما في النار من الإضاءة ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ وأبقى ما فيها من الإحراق، وهذا مثلهم الناري.

ذكر مثلهم المائي فشبههم بحال من أصابه مطر فيه ظلمة ورعد وبرق فخارت قواه ووضع أصبعيه في أذنيه وغمض عينيه خوفاً من صاعقة تصيبه، لأن القرآن بزواجره وأوامره ونواهيه وخطابه نزل عليهم نزول الصواعق.

(ب) وذكر الله المثلين: المائي والناري - في سورة الرعد للحق والباطل. فقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ (الرعد: ١٧).

شبه الوحي الذي أنزله من السماء لحياة القلوب بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات، وشبه القلوب بالأودية والسيل إذا جرى في الأودية احتمل زبداً وغثاء، فكذلك الهدى والعلم إذا سرى في القلوب أثار ما فيها من الشهوات ليذهب بها، وهذا هو المثل المائي في قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهكذا يضرب الله الحق والباطل.

وذكر المثل الناري في قوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ فالمعادن من ذهب أو فضة أو نحاس أو حديد عند سبكها تخرج النار ما فيها من الخبث وتفصله عن الجوهر الذي ينتفع به فيذهب جفاء. فكذلك الشهوات يطرحها قلب المؤمن ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد وهذا الخبث.

النوع الثاني من الأمثال: الأمثال الكامنة - وهي التي لم يصرح فيها بلفظ التمثيل ولكنها تدل على معان رائعة في إيجاز، يكون لها وقعها إذا نقلت إلى ما يشبهها، ويمثلون لهذا النوع بأمثلة منها:

١ - ما في معنى قولهم: «خير الأمور الوسط».

(أ) قوله تعالى في البقرة: ﴿لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ (البقرة: ٦٨).

(ب) قوله تعالى في النفقة: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: ٦٧).

(جـ) قوله تعالى في الصلاة: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ (الإسراء: ١١٠).

(د) قوله تعالى في الإنفاق: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ (الإسراء: ٢٩).

٢ ـ ما في معنى قولهم: «ليس الخبر كالمعاينة».

قوله تعالى في إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠).

٣ ـ ما في معنى قولهم: «كما تدين تدان».

قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ (النساء: ١٢٣).

٤ ـ ما في معنى: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين».

قوله تعالى على لسان يعقوب: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ (يوسف: ٦٤) وقد أورد السيوطي في الإتقان أحد عشر مثالاً من هذا القبيل[1].

النوع الثالث: الأمثال المرسلة في القرآن: وهي جمل أرسلت إرسالا من غير تصريح بلفظ التشبيه. فهي آيات جارية مجرى الأمثال.

ومن أمثله ذلك ما يأتي:

١ ـ ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ (يوسف: ٥١).

٢ ـ ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ (النجم: ٥٨).

٣ ـ ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (يوسف: ٤١).

٤ ـ ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (هود: ٨١).

٥ ـ ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ (الأنعام: ٦٧).

٦ ـ ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ (فاطر: ٤٣).

---

(١) انظر الإتقان ٢/ ١٣٢ وقارن بالتعبير الفني في القرآن للدكتور بكري شيخ أمين ص ٢٢٩، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص ٢٤٤.

٧ ـ ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ (الإسراء: ٨٤).

٨ ـ ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة: ٢١٦).

٩ ـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر: ٣٨).

١٠ ـ ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ (الرحمن: ٦٠).

١١ ـ ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (المؤمنون: ٥٣).

١٢ ـ ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج: ٧٣).

١٣ ـ ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ (الصافات: ٦١).

١٤ ـ ﴿لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ (المائدة: ١٠٠).

١٥ ـ ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٤٩).

١٦ ـ ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ (الحشر: ١٤).

واختلفوا في هذا النوع من الآيات الذي يسمونه إرسال المثل، ما حكم استعماله استعمال الأمثال؟

«فرآه بعض أهل العلم خروجا عن أدب القرآن، قال الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ٦) جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند المتاركة، وذلك غير جائز، لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به، بل يتدبر فيه، ثم يعمل بموجبه».

ورأى آخرون أنه لا حرج فيما يظهر أن يتمثل الرجل بالقرآن في مقام الجد، كأن يأسف أسفا شديداً لنزول كارثة قد تقطعت أسباب كشفها عن الناس فيقول: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ (النجم: ٥٨) أو يحاوره صاحب مذهب فاسد يحاول استهواءه إلى باطله فيقول: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ والإثم الكبير في أن يقصد الرجل إلى التظاهر بالبراعة فيتمثل بالقرآن حتى في مقام الهزل والمزاح[1].

---

(١) بلاغة القرآن ص ٣٣.

فوائد الأمثال:

١ ـ الأمثال تبرز المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس، فيتقبله العقل لأن المعاني المعقولة لا تستقر في الذهن إلا إذا صيغت في صورة حسية قريبة الفهم، كما ضرب الله مثلاً لحال المنفق رياء، حيث لا يحصل من إنفاقه على شيء من الثواب، فقال تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ (البقرة: ٢٦٤).

٢ ـ وتكشف الأمثال عن الحقائق، وتعرض الغائب في معرض الحاضر، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ (البقرة: ٢٧٥).

٣ ـ وتجمع الأمثال المعنى الرائع في عبارة موجزة كالأمثال الكامنة والأمثال المرسلة في الآيات الآنفة الذكر.

٤ ـ ويضرب المثل للترغيب في الممثل حيث يكون الممثل به مما ترغب فيه النفوس، كما ضرب الله مثلاً لحال المنفق في سبيل الله حيث يعود عليه الإنفاق بخير كثير، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦١).

٥ ـ ويضرب المثل للتنفير حيث يكون الممثل به مما تكرهه النفوس، كقوله تعالى في النهي عن الغيبة: ﴿وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (الحجرات: ١٢).

٦ ـ ويضرب المثل لمدح الممثل كقوله تعالى في الصحابة: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ (الفتح: ٢٩) وكذلك حال الصحابة فإنهم كانوا في بدء الأمر قليلاً، ثم أخذوا في النمو حتى استحكم أمرهم. وامتلأت القلوب إعجاباً بعظمتهم.

٧ ـ ويضرب المثل حيث يكون للممثل به صفة يستقبحها الناس، كما ضرب الله مثلاً لحال من آتاه الله كتابه، فتنكب الطريق عن العمل به، وانحط في أهوائه، فقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ (الأعراف: ١٧٥، ١٧٦).

٨ ـ والأمثال أوقع في النفس، وأبلغ في الوعظ وأقوى في الزجر، وأقوم في الإقناع، وقد أكثر الله تعالى الأمثال في القرآن للتذكرة والعبرة، قال تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ (إبراهيم: ٤٥) وقد ضربها النبي ﷺ في حديثه، واستعان بها الداعون إلى الله في كل عصر لنصرة الحق وإقامة الحجة، ويستعين بها المربون ويتخذونها من وسائل الإيضاح والتشويق، ووسائل التربية في الترغيب أو التنفير، في المدح أو الذم[1].

من أمثال العرب:

استعمل العرب المثل في أشعارهم ونثرهم، كما ورد في السنة النبوية طائفة من الأمثال، وعقد لها أبو عيسى الترمذي بابا في جامعه أورد فيه أربعين حديثاً، وقال القاضي أبو بكر بن العربي: «لم أر من أهل الحديث من صنف فأفرد للأمثال بابا غير أبي عيسى ولله دره لقد فتح بابًا، وبنى قصراً أو داراً ولكنه اختط خطا صغيراً فنحن نقنع به ونشكره عليه».

وسأورد هنا طائفة من الأمثال العربية السائرة وهي في مجموعها تدل على مفهوم خاص للطبيعة العربية في جاهليتها وإسلامها:

(١) مناع القطان مباحث في علوم القرآن ص ٢٤٧.

المثـــل	مـــوضـــوعه
إن البغاث بأرضنا يستنسر	يضرب للضعيف يصير قويا
إن العوان لا تعلم الخمرة	يضرب للخبير المجرب
إن العوان لا تعلم الخمرة	يضرب لمن يخاف من محذور فيصيبه
إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض	الاتعاظ بما حدث للغير
إذا تخاصم اللصان ظهر المسروق	الاختلاف يظهر الشيء الضائع
رب أخ لك لم تلده أمك	الأخوة الصادقة
إن ترد الماء بماء أكيس	الاستعداد للأمر وإحكامه
ما يوم حليمة بسر	اشتهار الأمر
نفس عصام سودت عصاماً	الاعتماد على النفس
زرغبا تزدد حبا	تقليل الزيارة
لعل له عذر وأنت تلوم	التماس الأعذار للناس
لا ناقتي في هذا ولا جملي	الأمر ليس فيه مصلحة
لو ترك القط ليلاً لنام	الأمر الخفي يظهر ما يدل عليه
الصيف ضيعت اللبن	الأمر يطلب بعد فواته
بلغ السيل الربى	الأمور تتجاوز في الشدة
إذا أردت أن تطاع فسل ما يستطاع	الأمر بما في الطاقة والوسع
قلب له ظهر المجن	تبدل الأحوال
لكل ساقطة لاقطة	التحرز في الكلام
من أكل على مائدتين اختنق	التذبذب على الموائد
يقدم رجلا ويؤخر أخرى	التردد في الأمر
من يمدح العروس إلا أهلها	تعصب المرء لأهله
كما تدين تدان	الجزاء من جنس العمل
من جد وجد ومن زرع حصد	الجد والاجتهاد

المثـــل	مـــوضـــوعه
الحاجة تفتق الحيلة	الحاجة سبب الاختراع
عند الصباح يحمد القوم السرى	الراحة بعد التعب
يعلم من أين تؤكل الكتف	الرجل العارف بوجه المنفعة
كل إناء بالذي فيه يرشح	رجوع الفرع إلى أصله
تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها	رفض الكريم العمل الخسيس
إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى	الرفق والتوسط في الأعمال (حديث شريف)
الظلم مرتعه وخيم	عاقبة الظلم
عند جهينة الخبر اليقين	العلم ببواطن الأمور
إن لله جنودا منها العسل	قد يكون الهلاك في الشيء المحبوب
صدرك أوسع لسرك	كل إنسان أكتم لسره
ألق دلوك في الدلاء	المزاحمة في معترك الحياة
لكل مقام مقال[1]	مطابقة المقال للحال

وتلاحظ على الأمثال العربية أنها تجمع صفات أربعة:

١ ـ إيجاز اللفظ.

٢ ـ إصابة المعنى.

٣ ـ حسن التشبيه.

٤ ـ جودة الكناية.

ولكن المثل في القرآن لا يخضع لهذه الشروط لأن أمثلة القرآن أنواع منها الأمثال

(١) انظر: من أمثال العرب ـ تأليف محمد عبد الغني حسن.

المصرحة، والأمثال الكامنة والأمثال المرسلة وقد اعترض بعض الكتاب المحدثين على ما ذهب إليه السيوطي في الإتقان حيث عد السيوطي أحد عشر مثالاً من الأمثال الكامنة في القرآن مثل: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ (النساء: ١٢٣) فهي في معنى قولهم: «كما تدين تدان».

وأيضاً قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ (يونس: ٣٩) فهي في معنى: «من جهل شيئاً عاداه».

قال هذا الباحث: «ويبدو لنا أن ذلك تنطع وتكلف لاحد لهما. . لأن الصيغة التي تشترط في المثل لا تتوافر فيها ولذلك فنحن نرفض ما جاء به السيوطي ومن تبعه ولا نعتبر الأمثال الكامنة شيئاً يستحق أن يدرج في بحث الأمثال»[1].

ونحن لا نوافق هذا الباحث على رأيه ونرى أن الأمثال القرآنية لا تخضع لما يشترطه الدارسون العرب في المثل السائر من إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية لأن للقرآن أسلوباً يتميز به على سائر الكلام فأحيانا يوافق الشروط المطلوبة في المثل وأحياناً يخرج عليها ولكنه في كلتا الحالتين يظل من أمثلة القرآن المتعددة الأنواع كما أسلفنا.

٣ـ القسم في القرآن

ورد القسم في القرآن بالحق سبحانه في سبعة مواضع، وباقي أنواع القسم كلها بمخلوقات الله، والملاحظ أن القرآن قد أقسم بلفظ الرب في المواضع السبعة التي ورد فيها القسم بالله سبحانه. مثل قوله تعالى:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر: ٩٢).

وقوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ (الذاريات: ٢٣).

(١) دكتور بكري شيخ أمين التعبير الفني في القرآن ص ٢٢٩.

وقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ (المعارج: ٤٠)[1].

ومن قسم القرآن بمخلوقات الله قوله:

﴿وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ②﴾ (الضحى: ١، ٢).

وقوله سبحانه: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ (سورة التين: ١).

وقوله عز شأنه: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ⑦⑤ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ⑦⑥﴾ (الواقعة: ٧٥، ٧٦).

تمتاز اللغة العربية بدقة التعبير واختلاف الأساليب بتنوع الأغراض وللمخاطب حالات مختلفة، هي المسماة في المعاني بأضرب الخبر الثلاثة:

الابتدائي والطلبي والإنكاري.

فقد يكون المخاطب خالي الذهن من الحكم فيلقي إليه الكلام غفلا من التأكيد ويسمى هذا الضرب ابتدائيا.

وقد يكون مترددا في ثبوت الحكم وعدمه، فيحسن تقوية الحكم له بمؤكد ليزيل تردده ويسمى هذا الضرب طلبيا.

وقد يكون منكرا للحكم، فيجب أن يؤكد له الكلام بقدر إنكاره قوة وضعفاً، ويسمى هذا الضرب إنكاراً.

والقسم من المؤكدات المشهورة التي تمكن الشيء في النفس وتقويه.

وقد نزل القرآن الكريم للناس كافة، وخاطب جميع الناس على السواء «والمعروف أن الاستعداد لتقبل الحق عند الناس مختلف، فالنفس الصافية تستجيب للهدى وتفتح قلبها لإشعاعه ويكفيها في الانصياع إليه اللمحة والإشارة، أما النفس التي ملأها الشك

---

(١) عد الزركشي في البرهان بقية المواضع التي أقسم الله فيها بنفسه (ج٣ ص٤٠) وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ (يونس: ٥٣) وقوله سبحانه: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ (التغابن: ٧) وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ (مريم: ٦٨) وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ (النساء: ٦٥).

والتردد فهي في حاجة إلى صيغ التأكيد وبرهان الحجة، أما النفس الجاحدة المنكرة فهي في حاجة إلى مطارق الزجر وتأكيد الخبر وتقرير الحكم في أكمل صورة»[1].

فالقسم فـي كلام الله تعالى لتأكيـد الحكم وتقوية الحجة وسـوق الأدلة والبراهين على تقرير المعنى وتوضـيحه، والقسم واليمين واحـد وسمي الحلف يمينا لأن العرب كان أحدهم يأخذ بيمين صاحبه عند التحالف.

وفي القسم ثلاثة أمور:

١ ـ أداة القسم.

٢ ـ المقسم به.

٣ ـ المقسم عليه.

أولاً: أداة القسم:

الصيغة الأصلية للقسم هي «أقسم» أو «أحلف» مع تعدي الفعل بالباء إلى المقسم به. كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ (النحل: ٣٨).

ولما كان فعل القسـم يكثر في الكلام اختصـر فصار فعل القسـم يحذف ويُكتفى بالبـاء ثم عوض عن الباء بـالواو في الأسماء الـظاهرة كقوله تـعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ (الليل: ١)، وبالتـاء في لفظ الجـلالة كـقوله تعـالى: ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ (الأنبياء: ٥٧)، وهذا قليل أما الواو فكثيرة.

ثانياً: المقسم به:

أما المقسم به فهو أمر جليل دائماً، ولله وحده أن يقسم بما شاء أما العباد فليس لهم أن يقسموا بغيـر الله، روي عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال: «من حلـف بغيـر الله فـقد كفر، أو أشـرك»، والمعنى من حلف بغير الله مـعظماً له تعظيم الله فقد كفر أو أشرك. وقد أقسم الله تعالى في القرآن بذاته وبمخلوقاته.

---

(١) مناع القطان: مباحث في علوم القرآن ص ٢٤٨ بتصرف.

قال تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ (المعارج: ٤٠).

ومما أقسم الله به من مخلوقاته: الشمس والقمر والليل والنهار والفجر والنجوم والضحى والتين والزيتون وطور سينين وغيرها.

قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ۝٢﴾ (الشمس: ١، ٢).

وقال تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾ (الفجر: ١ ـ ٣).

ثالثاً: المقسم عليه:

أما المقسم عليه فيراد توكيده وتحقيقه ولا سيما إذا كان من الأمور الغائبة الخفية إذا أقسم على ثبوتها، مثل: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ (النجم: ١ ـ ٤).

وجواب القسم يذكر تارة وهو الغالب ـ وتارة يحذف.

مثل قوله تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ (القيامة: ١، ٢).

فجواب القسم محذوف دل عليه قوله بعد: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ (القيامة: ٣) والتقدير لتبعثن ولتحاسبن.

معنى لا أقسم:

أدخلت (لا) النافية على فعل القسم في بعض المواضع كقوله تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ (الواقعة: ٧٥، ٧٦) وقوله سبحانه: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۝١٦ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝١٨﴾ (الانشقاق: ١٦ ـ ١٨) وقوله عز شأنه: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠﴾ (الحاقة: ٣٨ ـ ٤٠) وقوله سبحانه: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ (القيامة: ١، ٢).

وقد ذكر المفسرون فيها عدة آراء:

الأول: أن لا نافية لمحذوف يناسب المقام والتقدير مثلا لا صحة لما تزعمون من إنكار البعث والجزاء ثم استأنف فقال: ﴿أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ و ﴿بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ أنكم ستبعثون.

الثاني: أن لا زائدة وجواب القسم في الآية المذكورة محذوف دل عليه قوله بعد: أيحسب إلخ والتقدير: لتبعثن ولتحاسبن.

الثالث: قول أبي مسلم أن (لا) ههنا لنفي القسم كأنه قال لا أقسم عليك بذلك اليوم وتلك النفس، ولكنني أسألك غير مقسم أتحسب أنا لا نجمع عظامك إذا تفرقت بالموت؟ فإن كنت تحسب ذلك فاعلم أنا قادرون على أن نفعل ذلك، ا هـ. فظاهر الكلام نفي القسم لكن المراد بهذا النفي التوصل إلى التأكيد وكأنه يقول إن الأمر بين فلا يحتاج إلى أن أقسم عليه وهذا القول يؤكد الخبر أشد تأكيداً[1].

المقسم عليه في القرآن:

أقسم الله على أصول الإيمان التي يجب على الخلق معرفتها فتارة يقسم على صدق التوحيد كقوله: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾﴾ (الصافات: ١ ـ ٤)، وتارة يقسم على أن القرآن حق كقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ (الواقعة: ٧٥ ـ ٧٧) وتارة على أن الرسول حق كقوله: ﴿يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾﴾ (يس: ١ ـ ٣).

وتارة يقسم على الجزاء والوعد والوعيد كقوله: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾﴾ (الذاريات: ١ ـ ٦).

---

(١) دكتور عبد الله شحاته: في نور القرآن ص ١٦٨ مطبعة الهيئة العامة للكتاب.

وتارة يقسم على حال الإنسان كقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤)﴾ (الليل: ١ ـ ٤).

والمتتبع لأقسام القرآن يستخلص الفنون الكثيرة[1].

المقسم به في القرآن:

الملاحظ أن الله عز وجل أكثر من القسم في الآيات المكية لأن أهل مكة أنكروا الوحي وقاوموا الرسالة فكان مقتضى الحال يتطلب هذا اللون من الأسلوب البليغ.

وقد أقسم الله عز وجل بنفسه في القرآن في سبعة مواضع مثل قوله سبحانه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)﴾ (الحجر: ٩٢ ـ ٩٣). وقوله سبحانه: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ (التغابن: ٧).

القسم بالمخلوقات:

أقسم القرآن بكثير من مخلوقات الله وبالملائكة وبالنبي وبمظاهر الكون كالشفق، والليل وما وسق والقمر إذا اتسق، وبالعصر، وبالضحى، والشمس، والبلد، ووالد وما ولد، وبالفجر والتين..

قال الإمام بدر الدين الزركشي في كتابه البرهان في علوم القرآن.

فإن قيل: كيف أقسم الله بمخلوقاته وقد ورد النهى علينا ألا نقسم بمخلوق؟

قيل: فيه ثلاثة أجوبة:

أحدها: أنه على حذف مضاف أي (ورب الفجر) و (رب التين) وكذلك الباقي.

والثاني: أن العرب كانت تعظم هذه الأشياء وتقسم بها فنزل القرآن على ما يعرفون.

والثالث: أن الأقسام إنما تكون بما يعظمه المقسم أو يجله وهو فوقه والله تعالى ليس فوقه شيء فأقسم تارة بنفسه وتارة بمصنوعاته لأنها تدل على بارئ وصانع[2].

---

(١) انظر الإتقان للسيوطي ٢/ ١٣٥ فقد أتى بشواهد متعددة للأقسام المذكورة.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣/ ٤٢.

وقال ابن أبي الأصبع في أسرار الفواتح: القسم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل[1]. وقسمه تعالى بالنبي ﷺ في قوله سبحانه: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الحجر: ٧٢)، ليعرف الناس عظمة الرسول عند الله ومكانته لديه.

والقسم بالشيء لا يخرج عن وجهين إما لفضيلة أو لمنفعة[2].

قال كقوله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴿٣﴾﴾ (التين: ٢، ٣).

والمنفعة نحو: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ (التين: ١).

وقال بعضهم: أقسم الله تعالى بثلاثة أشياء بذاته كالآيات السابقة، وبفعله نحو: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾﴾ (الشمس: ٥ ـ ٧) وبمفعوله نحو: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ (النجم: ١)، ﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾﴾ (الطور: ١، ٢)[3].

رأي جديد في القسم بالمخلوقات:

رأينا أن العلماء والمفسرين[4] ذهبوا إلى أن الله أقسم بمخلوقاته لبيان نواحي العظمة فيها وجلال قدرها وعظيم نفعها ولكن العالم الهندي عبد الرحمن فراهي يذهب مذهباً جديداً خلاصته أن القسم إذا كان بمخلوقات الله فليس لتعظيمها وإنما للاستشهاد بها وسياقها مساق الدليل على صحة الكلام وصدقه، فهي بمثابة لفت النظر إلى التأمل في ملكوت السموات والأرض وإرشاد المخاطبين إلى بديع صنعة الله في الكون. ونحن نلخص رأي الأستاذ عبد الرحمن فراهي بما يلي:

---

(١) الإتقان للسيوطي ٢/ ١٣٤.

(٢) البرهان ٣/ ٤٢ نقلاً عن الأستاذ أبو القاسم القشيري في «كنز اليواقيت» والإتقان ٢/ ١٣٤.

(٣) الإتقان ٢/ ١٣٤.

(٤) انظر الفخر الرازي في تفسيره الكبير مفاتيح الغيب والسيوطي في الإتقان، وابن القيم الجوزية في كتابه (التبيان في أقسام القرآن) وغيرهم من المفسرين عند تفسير ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ و ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ .. وغيرها.

لما[1] كانت الشهادة بالله أكبر الشهادات كثر القسم بها، ولذلك ظن من قل التفاته إلى أساليب الكلام وفنون بلاغته أن الإشهاد لا يكون إلا بالمعبود على جهة التعظيم، ولكنك إذا سرحت النظر في كلام العرب وغيرهم وجدت أنهم استشهدوا بأشياء لم يعبدوها ولم يعظموها، وإنما أرادوا الاستدلال بجعل المقسم به شاهدا على أقوالهم. وضرب المؤلف على ذلك عدداً من الأمثلة من الشعر العربي كقول الراعي:

إن السماء وإن الريح شاهدة ... والأرض تشهد والأيام والبلد
لقد جزيت بني بدر ببغيتها ... يوم الهباءة يوماً ما له قود

وكقول عنترة:

والخيل تعلم والفوارس أنني ... فرقت جمعهم بضربة فيصل

فقد رأيت في هذه الأمثلة أنهم استشهدوا بالسماء والريح والأرض والأيام والبلد، والخيل والفوارس، وليس المراد إلا أنك لو سألتهن ونطقن لشهدن على دعواهم.

ومن هذا الأسلوب ما قاله الفضل بن عيسى بن إبان في وعظه «سل الأرض فقل: من شق أنهارك، وغرس أشجارك، وجني ثمارك؟ فإن لم تجبك حوارا، أجابتك اعتباراً».

ويتساوى التعبير بكلمة «يشهد» أو «يعلم» أو ما يشبههما بالألفاظ الصريحة الدالة على القسم كواو القسم، ولعمر أو ما يماثلهما ومثل ذلك قسم الهجرس حين قتل جساساً قاتل أبيه فقال: « وفرسي وأذنيه، ورمحي ونصليه، وسيفي وغراريه، لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو ينظر إليه». فقد أقسم بهذه الأشياء استدلالا بها، كأنه قال: فكيف أترك قاتل أبي وأنا قادر على الكر والفر والطعن والضرب. فذكر في قسمه ما يصدق دعواه ويستدل به على وجوب ما أراد به، كما مثل الفارابي بشواهد

(١) استفدت في هذا الملخص من جهد الدكتور بكري شيخ أمين في كتابه التعبير الفني في القرآن ص ٢٣٩ وما بعدها.

من هذا القبيل من شعر طرفة بن العبد، والحصين بن حمام في رثاء نعيم بن الحارث خليله، واستشهد بكلام ديماستنس أعظم بلغاء اليونان ويوليوس الشاعر اليوناني على أن هؤلاء الناس من عرب وغير عرب يقسمون بأشياء عادية لا لغاية تعظيمها، أو لكونها مقدسة، بل لتكون شاهدا على ما يقولون ودليلاً على ما يتكلمون.

ثم جاء الكاتب إلى أقسام القرآن فبين أنها لا تكون للتعظيم إلا إذا كان المقسم به هو الله تعالى وشعائره، وما عدا ذلك فهو لمحض الاستدلال.

وفي فصل طويل راح يأتي بالبرهان تلو البرهان على أن بعض ما أقسم به الله ليس لتعظيمه وإنما لمحض الاستدلال به ومن جملة ما قاله:

«ما تهتدي إليه من حمل النظير على النظير، وتفسير الآيات بعضها ببعض فإنك ترى القرآن يذكر الأمور الدالة على أسلوب الآية والعبرة، وكلها إشهاد ـ أي إقسام ـ لمن يتفكر فيها، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٦٤). ومثل هذا كثير، فيذكر الله آياته ويحتج بها، ثم ترى هذه الآيات استشهد بها القرآن على أسلوب القسم، فأقسم بالسماء والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والفجر والضحى، والريح والسحاب، والجبال، والبحر، والإنسان، والوالد والولد والذكر والأنثى، والشفع والوتر، فكونها آيات دالة له نظير، ولا سبيل إلى إرادة تعظيمها.

ومن الأدلة قوله: إن العاقل لا يتوهم أن الله تعالى يضع مخلوقاته موضع المعبود المقدس، ولا سيما الذي ليس له كبير تقدس، كالخيل العادية، والريح الذارية.

وقد صرح القرآن بكون هاتيك المقسم بها من السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم وغيرها مسخرة مذللة طائعة، ففي نفس القسم بها دلالة على أن المراد بها محض القسم بها.

ومن الأدلة قوله: إن ما يتبع المقسم به من التنبيه على كون المقسم به دليلاً للعقلاء قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥)﴾ (الفجر: ١ ـ ٥) هذه الجملة الأخيرة: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ تشبه ما يرد في القرآن بعد ذكر الدلائل، كقوله تعالى في سورة النحل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (النحل: ١٢)، أو كما جاء في سورة طه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَىٰ﴾ (طه ١٢٨)، أو كما جاء في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ (آل عمران: ١٣) وهذا كثير. فهكذا التنبيه بعد القسم في سورة الواقعة حيث قال: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)﴾ (الواقعة: ٧٥، ٧٦) أي أن فيها دلالة عظيمة وشهادة كبيرة، فصرح بعظمة القسم لا بعظمة المقسم به[١]، وفرق كبير بينهما.

٤ـ تلاوة القرآن

القرآن كلام الله القديم، وهو حديث الله إلى الخلق قال الإمام أحمد بن حنبل: إذا أردت أن أكلم ربي فعلت وإذا أردت أن يكلمني ربي فعلت قيل كيف ذلك؟

قال إذا أردت أن يكلمني ربي قرأت القرآن فهو كلام ربي، وإذا أردت أن أكلم ربي دخلت الصلاة فهي مناجاة لله.

وقراءة القرآن سنة من سنن الإسلام، والإكثار منها مستحب، حتى يكون المسلم حي القلب مستنير الفؤاد، بما يقرأ من كتاب الله، روى البخاري ومسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار».

وتلاوة القرآن مع حسن القصد وإخلاص النية عبادة يؤجر عليها المسلم، روى

(١) التبيان في أقسام القرآن ص ٣٩.

الترمـذي عن ابن مسعـود أن رسول الله ﷺ قال: «من قـرأ حرفاً من كـتاب الله تعالى فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها».

وروى مسلم عن أبي أمـامة أن رسول الله ﷺ قال: «اقراءوا القـرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه».

وقد حذر رسول الله ﷺ من هجـر القرآن ونسيانه فقال ـ فيـما رواه البخاري ومسلم ـ: «تعـاهدوا القرآن فوالذي نفس محـمد بيده لهو أشـد تفلتا من الإبل في عقلها».

آداب التلاوة:

يستـحب لقارئ القـرآن أن يرتله ترتيلاً حسناً وأن يعـطي الحروف حقـها من المد والإدغام قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ (المزمل: ٤).

ولا يتهيب المسلم من تلاوة القرآن، ولا يتـخوف من اللحن بل عليه أن يقرأ وأن يطيل صحبته للقرآن حتى يتعود على القراءة الحسنة بالتكرار والممارسة والتعود، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر: ١٧).

وحبذا لو عـرفت أيها المؤمن بعض قواعد التجـويد، أو تمرنت على قراءة القرآن أمام أحد الحفاظ والقراء ليرشدك إلى الأداء السليم.

ومن أدب التلاوة أن يكون القارئ على وضوء وأن يبدأ تلاوته بقوله: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم».

وأن يتدبر ما يقرأ، وأن يقرأ بخشـوع وسكينة ووقار وأن يتأثر بآيات القرآن وعدا ووعيدا، وأن يتجاوب مع المعاني بمشاعره وعواطفه، دعاء واستغفار ورحمة وعذاباً.

ومن أدب التلاوة أن يحسـن القارئ صوته بالقراءة فإن الصـوت الحسن أوقع في النفس وأدعى إلى التأثر والخشوع. روى ابن حبان وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «زينوا القرآن بأصواتكم»، وروى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به».

الفصل الرابع

من أعلام المفسرين

من أعلام المفسرين

طلبت مني إحدى الصحف العربية أن أختار لها بعض أعلام المفسرين، وأن أكتب عنهم ترجمة ميسرة تعرف القارئ بهم من خلال صحيفة سيارة يقرؤها الناس في شهر رمضان، موسم الصيام والعبادة والدراسة والتأمل.

وقد اخترت هذه الشخصيات:

١ ـ عبد الله بن مسعود	توفي سنة ٣٢ هـ
٢ ـ عبد الله بن عباس	توفي سنة ٦٨ هـ
٣ ـ مقاتل بن سليمان البلخي	توفي سنة ١٥٠هـ
٤ ـ سفيان الثوري	توفي سنة ١٦١هـ
٥ ـ ابن جرير الطبري	توفي سنة ٣١٠هـ
٦ ـ جار الله الزمخشري	توفي سنة ٥٣٨هـ
٧ ـ أبو عبد الله القرطبي	توفي سنة ٦٧١هـ
٨ ـ إسماعيل بن كثير	توفي سنة ٧٧٤هـ
٩ ـ محمد رشيد رضا	توفي سنة ١٩٣٥م

ورأيت حين تحدثت عن تفسير القرآن الكريم في العصور الإسلامية أن أقدم لك هذه النماذج المختلفة لهؤلاء المفسرين الذين تركوا أثراً واضحاً في التفسير، وفي نفس الوقت هم معالم شامخة يعتز بهم التراث الإسلامي، وينبغي أن يعرف المسلم شيئاً عن هؤلاء الأعلام الكرام الذين تركوا لنا ذخيرة من الآثار والتفسير تعتز بها المكتبة الإسلامية.

وقد تركت ترجمة أعلام المفسرين على حالتها كما كتبتها للصحافة أول مرة مع تعديل يسير لتناسب طبيعة وضعها في هذا الكتاب.

والله ولي التوفيق،،

١ـ عبد الله بن مسعود

هو عبد الله بن مسعود بن غافل، يصل نسبه إلى مضر، ويكنى بأبي عبد الرحمن الهذلي، وأمه أم عبد بن عبد ود، من هذيل، وكان ينسب إليها أحياناً فيقال: ابن أم عبد.

خادم الرسول وحاجبه:

كان عبد الله بن مسعود من السابقين إلى الإسلام، قال ابن مسعود: «لقد رأيتني سادس ستة ما على ظهر الأرض مسلم غيرنا».

وابن مسعود أول من جهر بالقرآن بمكة، وأسمعه قريشا بعد رسول الله ﷺ، وأوذي في الله من أجل ذلك. ولما أسلم عبد الله بن مسعود أخذه رسول الله ﷺ إليه، فكان يخدمه في أكثر شئونه، وهو صاحب طهوره وسواكه ونعله، يلبسه إذا قام ويخلعه ويحمله في ذراعه إذا جلس، ويمشي أمامه إذا سار، ويستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، ويلج عليه داره بلا حجاب، حتى كان القادم من سفره يظنه من أهل بيت النبوة.

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: «قدمت أنا وأخي من اليمن فمكثنا حينا لا نرى عبد الله بن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله ﷺ، لما نرى من كثرة دخوله ودخول أمه على رسول الله ﷺ ولزومه له».

جهاده ومنزلته:

هاجر عبد الله بن مسعود إلى الحبشة مع السابقين الأولين للإسلام، ثم هاجر إلى المدينة المنورة، وصلى إلى القبلتين، وشهد بدراً وأحد والخندق، وبيعة الرضوان

وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ، وهو الذي أجهز على أبي جهل يوم بدر، وقد شهد له رسول الله ﷺ بالجنة، وشهد له بالفضل وعلو المنزلة.

روى الإمام أحمد في مسنده عن علي رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لو كنت مؤمراً أحداً دون مشورة المؤمنين لأمرت ابن أم عبد». وقد ولي بيت المال بالكوفة لعمر، وعثمان، وقدم المدينة في آخر عمره، ومات بها سنة ٣٢هـ، ودفن بالبقيع ليلاً، تنفيذاً لوصيته بذلك، وكان عمره يوم وفاته بضعا وستين سنة.

علمه وفضله:

كان ابن مسعود أشبه الناس هديا ودلا وسمتا برسول الله ﷺ، وكان من أحفظ الصحابة لكتاب الله، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يسمع منه القرآن.

قال ابن مسعود: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليَّ سورة النساء»، قلت: يارسول الله أقرأ عليك وعليك أنـزل؟ قال: «إني أحب أن أسمعه من غيري»، فقرأت عليه حتى بلغت: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيداً** ﴾ (سورة النساء: ٤١) فاضت عيناه ﷺ.

وكان رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن يقرأ القرآن رطبا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد».

وعن مسروق أنه قال: «انتهى علم أصحاب رسول الله ﷺ إلى ستة: عمر وعلي وعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وأبي الدرداء وزيد بن ثابت، ثم انتهى علم هؤلاء الستة إلى رجلين: علي، وعبد الله».

وقيل لحذيفة خبرنا برجل قريب السمت والدل والهدي من رسول الله ﷺ نأخذ عنه، فقال: «لا نعلم أحداً أقرب سمتا ولا هديا برسول الله ﷺ من ابن أم عبد، وقد علم المحفظون من أصحاب رسول الله ﷺ أن ابن أم عبد أقربهم إلى الله وسيلة».

ابن مسعود بالكوفة:

أرسل عمر بن الخطاب عبد الله بن مسعود إلى أهل الكوفة معلماً ومربيا، ومفسراً للقرآن، ومفقها في الدين، وكانت له بالكوفة مدرسة علمية في الفقه والتفسير، وغلب على مدرسة ابن مسعود استخدام العقل والرأي، والبحث عن الحكمة والغاية، وظهر ذلك واضحاً في فقه أبي حنيفة وتلاميذه.

وجاء في خطاب الخليفة إلى أهل الكوفة: «إني قد بعثت عمار بن ياسر إليكم أميراً، وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، وهما من النجباء، من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل بدر فاقتدوا بهما وأطيعوا واسمعوا قولهما، وقد آثرتكم بعبد الله ابن مسعود على نفسي».

وقد أقام عبد الله بن مسعود بالكوفة يأخذ عنه أهلها علوم الدين والقرآن والحديث والفقه والتفسير، وهو معلمهم وقاضيهم، ومؤسس طريقتهم في الاعتداد بالرأي حيث لا يوجد النص.

ولما قدم علي رضي الله عنه إلى الكوفة، حضر عنده قوم وذكروا له بعض قول عبد الله، وقالوا: يا أمير المؤمنين ما رأينا رجلاً أحسن خلقاً، ولا أرفق تعليماً، ولا أحسن مجالسة، ولا أشد ورعا من ابن مسعود، قال علي: أنشدكم الله، أهو الصدق من قلوبكم؟ قالوا: نعم، قال: اللهم أشهد أني أقول مثل ما قالوا وأفضل.

وإذا قرأنا سيرة ابن مسعود في أسد الغابة وغيره تبين لنا مكانته السامية في العلم، ومنزلته بين إخوته من أجلاء الصحابة، فالكل يشهد له، ويقدمه على غيره، ويراه صورة صادقة لسمت النبوة وهديها. ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: ٩٠).

ابن مسعود مفسراً:

عاش عبد الله بن مسعود مرافقاً لرسول الله ﷺ، يتبعه ويخدمه ويتعلم منه ويدخل عليه بيته ويسمع من النبي ﷺ القرآن حتى صار أشبه الناس هديا وسمتا ودلا برسول الله ﷺ. عن مسروق قال: قال عبد الله بن مسعود: «والذي لا إله

غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته».

وعبد الله بن مسعود المتواضع الفقيه لا يقول ذلك إلا بياناً لحقيقة ثابتة وهي علمه بالقرآن وأحكامه وحلاله وحرامه وناسخه ومنسوخه وتفسيره وتأويله، بل هو الحريص على متابعة هذا العلم والاستزادة منه، مهما كان السبيل إليه شاقا أو عسيراً.

لقد تعلم عبد الله بن مسعود القرآن والسنة، وأقبل عليهما قراءة ودرسا وفقها، وتعلما وتعليماً، فلما ذهب إلى الكوفة تفجرت ينابيع العلم من قلبه على لسانه، وأرسى دعائم مدرسة في الفقه والتفسير والرأي والتوحيد تلقاها عنه رجال أخيار وورثها عنهم أئمة أعلام.

قال مسروق: كان عبد الله بن مسعود يقرأ علينا السورة، ثم يحدثنا فيها ويفسرها عامة النهار.

وقالوا للإمام علي: أخبرنا عن ابن مسعود، فقال: علم القرآن والسنة ثم انتهى وكفى بذلك علماً.

وقال عقبة بن عامر: ما أدري أحدا أعلم بما أنزل على محمد من عبد الله بن مسعود. فقال أبو موسى أنى تقل ذلك؟ فإنه كان يسمع حين لا نسمع، ويدخل حين لا ندخل.

لقد كان النبي ﷺ مدرسة النبوة وهديها، وكان الصحابة يحرصون على معرفة السنة المطهرة في قوله وفعله وسلوكه، وكان ابن مسعود تابع الرسول وخادمه وملازمه وحاجبه وصاحب سواكه، وكل ذلك كان يسمح له أن يرى ويتعلم، ويسمع من الرسول ﷺ في خلوته وبيته. وأثناء مشيه وجلوسه، قال ابن مسعود: أخذت من فم رسول الله ﷺ سبعين سورة.

وكان ابن مسعود حريصاً على فقه القرآن والعمل بأحكامه، وتدبر معانيه، روى

ابن جرير وغيره عن ابن مسعود أنه قال: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن».

إن ابن مسعود خليق بأن يتوج إماما لفقه الرأي، وتفهم القرآن وتبين أحكامه، ومعرفة محكمه ومتشابهه وحلاله وحرامه وقصصه وأمثاله وأسباب نزوله، تلك الطريق التي أرسي دعائمها، وتلقاها عنه الأئمة خلفا عن سلف، مثل إبراهيم النخعي، وحماد، وأبو حنيفة، وأبو يوسف، ومحمد بن الحسن الشيباني، ومحمد ابن إدريس الشافعي، فهي سلسلة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وفي سلسلة هؤلاء الرجال نجد أثر الاعتماد على العقل والنقل، والالتزام بالمأثور والمعقول، وبالنص وبروحه وهديه، وتبين أسراره وحكمته.

الحجاز والعراق:

نزل الوحي بمكة ثلاثة عشر عاماً ثم هاجر المسلمون إلى المدينة، واستمر نزول الوحي بها عشر سنوات. وفي خلال مدة الرسالة وهي ٢٣ سنة حفظ المسلمون القرآن والحديث وأصول الدين. وغلب على أهل الحجاز اتباع الأثر والتهيب من الرأي وعدم التهيب من الرواية عن رسول الله ﷺ وكانوا لا يأخذون بالرأي إلا مضطرين إذا لم يعرفوا حديثاً، وغلب على أهل العراق استخدام الرأي والتهيب من رواية الحديث، وكانوا لا يتهيبون من الإفتاء، ويرجع ذلك إلى كثرة الحديث في الحجاز، ومشاهدة أهله للرسول وصحابته، ولأن أحداث الحياة لم تتغير في الحجاز منذ عهد النبوة، ولم تطرأ على المجتمع ظروف جديدة أو أعراف جديدة.

أما العراق فقد فتح بعد وفاة الرسول ﷺ ببضع سنوات، وقد وجد الصحابة وعبد الله بن مسعود وأتباعه، أن العراق وأهله بلاد جديدة، ولها أعراف جديدة، وتراث ونظام، وحياة متغيرة عن حياة أهل الحجاز.

ولذلك غلب على أهل العراق استخدام الرأي، وعدم التهيب من الإفتاء، والإجابة عن المسائل والتفريع عليها، وعدم تقليدهم لأقوال أهل البلدان الأخرى، وتعصبهم لمشايخهم، وتخريج المسائل على أقوالهم.

قال الدهلوي في كتابه «حجة الله البالغة»:

كان أهل الحديث يهابون الرأي، ولا يتهيبون الرواية عن رسول الله ﷺ. وكان بإزاء هؤلاء في عصر مالك وسفيان وبعدهم قوم لا يكرهون المسائل ولا يهابون الفتيا، ويقولون على الفقه بناء الدين فلا بد من إشاعته، ويهابون رواية أحاديث رسول الله ﷺ والرفع إليه، حتى قال الشعبي: على من دون النبي أحب إلينا، وقال إبراهيم أقول: قال عبد الله وقال علقمة أحب إلينا.. ولم يكن عندهم من الأحاديث والآثار ما يقدرون به على استنباط الفقه من الأصول التي اختارها أهل الحديث، فلم تنشرح صدورهم للنظر في أقوال علماء البلدان وجمعها والبحث عنها، واتهموا أنفسهم في ذلك. وكانوا اعتقدوا في أئمتهم أنهم في الدرجة العليا من التحقيق، وكانت قلوبهم أميل شيء إلى أصحابهم، كما قال علقمة هل أحد منهم أثبت من عبد الله (ابن مسعود)، وقال أبو حنيفة: إبراهيم أفقه من سالم، ولولا فضل الصحبة لقلت علقمة أفقه من ابن عمر، وكان عندهم من الفطانة والحدث وسرعة انتقال الذهن من شيء إلى شيء ما يقدرون به على تخريج جواب المسائل على أقوال أصحابهم. وكل ميسر لما خلق له، وكل حزب بما لديهم فرحون، فمهدوا الفقه على قاعدة التخرج «ا هـ» ملخصاً.

ويجب أن نشير هنا إلى أن أهل الرأي والحديث يتفقون في أن الأخذ يجب أن يكون بالكتاب والسنة الصحيحة، ثم يفترقون بعد ذلك في أن أهل الحديث يتهيبون الرأي، وأما أهل الرأي فيتهيبون التحديث ولا يتهيبون الإفتاء.

تلاميذ ابن مسعود:

ابن مسعود صاحب مدرسة في التفسير والرأي، وهو أكثر من روي عنه من الصحابة بعد ابن عباس، قال السيوطي في الإتقان:

«وأما ابن مسعود فقد روي عنه أكثر مما روي عن علي».

وقد حمل علم ابن مسعود في التفسير أهل الكوفة، نظراً لوجوده بينهم، يجلس إليهم فيأخذون عنه ويروون له، فمن رواته مسروق بن الأجدع الهمذاني، وعلقمة

ابن قيس النخعي، والأسود بن يزيد، وغيـرهـم من علماء الكوفة، الذين تتلمذوا له ورووا عنه.

وقد وردت أسانيد كثـيرة تنتهي إلى ابن مسعود، نجدها مبثوثة في كـتب التفسير بالمأثور، وكتب الحديث. ومن هذه الروايات ما يمكن الاعتماد عليه والثقة به، ومنها ما يعتريه الضعف.

وأفضل الطرق عن ابن مسعود ثلاثة طرق اعتـمد عليها البـخاري في صحـيحه وهي:

١ ـ طريق الأعمش، عن أبي الضحى عن مسروق عن ابن مسعود.
٢ ـ طريق مجاهد، عن أبي معمر عن ابن مسعود.
٣ ـ طريق الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود.

رحم الله عبد الله بن مسعود وجزاه عنا أحسن الجزاء.

٢ـ عبد الله بن عباس

هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ، وأمه لبابة الكبرى بنت الحارث بن حزن الهلالية.

ولد والنبي ﷺ وأهل بيته بالشعب في مكة، ولما حملوه إلى النبي ﷺ دعا له فلازمته بركة النبوة، ولازم النبي ﷺ في صغره لقرابته منه، ولأن خالته ميمونة بنت الحارث الهلالية كانت من أزواج رسول الله ﷺ. وتوفي رسول الله ﷺ وله من العمر ثلاث عشرة سنة، فلازم كبار الصحابة واستمع إليهم، وساعده على ذلك قوته في اللغة العربية، وإحاطته بمناحيها وأساليبها، وذكاؤه المفرط، وحفظه للشعر، وعدم تحرجه من الاجتهاد.

وتوفي عبد الله بن عباس سنة ٦٨ هجرية.

حبر الأمة:

بلغ ابن عباس من العلم مبلغاً عظيماً، وساعده على ذلك حرصه على مجالسة العلماء، والانتقال إليهم وتحمل المشقة في طلب العلم والتواضع للعلماء.

ولقد انتقل الرسول ﷺ إلى الملأ الأعلى وهو فتى صغير السن، وله رغبة في العلم والمعرفة فتلقى علوم العربية والشعر والأدب واللغة وساعده على ذلك قوة حافظته فقد كان يحفظ الشعر عند سماعه.

وبهذه الثقافة اللغوية استطاع أن يعرض للفظ الغريب في القرآن كله بالشرح والتفسير، يقول السيوطي في ابن عباس: «ورد عنه ما يستوعب تفسير غريب القرآن بالأسانيد الثابتة».

وهو وإن لم يستوعب غريب القرآن، فقد أتى على جملة صالحة منه.

وبلغ ابن عباس في العلم والتفسير وسائر المعارف الإسلامية مبلغاً عاليا حتى لقب بحبر الأمة، وبحر العلوم. وكان ابن عباس موسوعة علمية، يضرب في كل من فنون العلم بسهم وافر.

قال عبيد الله بن عتبة: «كان ابن عباس قد فات الناس بخصال: بعلم ما سبقه، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه، وحلم ونسب وتأويل، وما رأيت أحداً كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ منه، ولا بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه، ولا أفقه في رأي منه ولا أثقب رأيا فيما احتيج إليه منه، ولقد كان يجلس يوماً ولا يذكر فيه إلا الفقه، ويوماً للتأويل، ويوماً للمغازي، ويوماً للشعر، ويوماً لأيام العرب، ولا رأيت عالماً قط جلس إليه إلا خضع له، وما رأيت سائلاً إلا وجد عنده علماً».

وقيل لطاووس، لزمت هذا الغلام - يعني ابن عباس - وتركت الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ قال: إني رأيت سبعين رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ إذا تدارءوا (اختلفوا) في أمر صاروا إلى قول ابن عباس.

وروي عن الأعمش عن أبي وائل قال: استخلف عليّ عبد الله بن عباس على الموسم، فقرأ في خطبته سورة النور، ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا، وكان علي بن أبي طالب يثني على تفسير ابن عباس ويقول: «كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق».

وقال ابن عمر: «ابن عباس أعلم أمة محمد بما نزل على محمد».

تقدير الخلفاء لابن عباس:

بلغ ابن عباس درجة عظيمة في الاجتهاد والمعرفة بمعاني كتاب الله، وانتهت إليه الرياسة في الفتوى والتفسير، وحظي بتقدير الخلفاء الراشدين وثقتهم.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجلسه في مجلسه مع كبار الصحابة، ويدنيه منه، وكان يقول له: إنك لأصبح فتياننا وجهًا، وأحسنهم خلقاً، وأفقههم في كتاب الله. وقال في شأنه: ذاكم فتى الكهول، إن له لساناً سئولا، وقلبًا عقولا.

وكان ابن عباس لفرط أدبه إذا سأله عمر عن شيء يقول لا أتكلم حتى يتكلم كبار الصحابة.

وكان عمر يعتد برأيه مع حداثة سنه. روى ابن الأثير في كتابه أسد الغابة، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: إن عمر كان إذا جاءته الأقضية المعضلة قال لابن عباس: «إنها قد طرأت علينا أقضية معضلة فأنت لها ولأمثالها، فكان يأخذ بقوله، وما كان يدعو لذلك أحداً سواه».

وروى البخاري من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، وقال: لم يدخل هذا معنا وإن لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من أعلمكم، فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم فقال: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم ولم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يابن عباس؟ فقلت لا، فقال: ما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له. قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول.

وقال فيه ابن مسعود: «نعم ترجمان القرآن ابن عباس». وقال فيه عطاء: «ما رأيت أكرم من مجلس ابن عباس أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده يصدرهم كلهم من واد واسع».

ابن عباس مفسراً:

جمع الله لهذا الحبر أسباب النبوغ والتفوق في التفسير، فقد أحاط بالمعرفة، وبعلوم القرآن وأسباب نزوله، وفهم غريبه ومعرفة ناسخه ومنسوخه، ومكيه ومدنيه، وإلى جوار ذلك فقد حباه الله بقريحة وقادة، وعقل راجح ورأي صائب، وإيمان راسخ، قال مجاهد: «إذا فسر ابن عباس الشيء رأيت عليه النور». وقال علي: «كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق».

نماذج من تفسيره:

١ ـ سئل ابن عباس أي الأجلين قضى موسى؟ قال: قضى أكثرهما وأطيبهما، أن النبي إذا وعد لم يخلف. وهو يفسر قول نبي الله شعيب لموسى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ (سورة القصص: ٢٧).

٢ ـ روى الطبري أن عمر سأل الناس عن هذه الآية: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة البقرة: ٢٦٦).

فما وجد أحداً يشفيه حتى قال ابن عباس وهو خلفه، يا أمير المؤمنين إني أجد في نفسي منها شيئاً، فتلفت إليه فقال: تحول ههنا لم تحقر نفسك؟ قال: هذا مثل ضربه الله عز وجل فقال: أيود أحدكم أن يعمل عمره بعمل أهل الخير وأهل السعادة حتى إذا كان أحوج ما يكون إلى أن يختمه بخير فني عمره واقترب أجله، ختم ذلك بعمل من أعمال أهل الشقاء فأفسده كله، فحرقه وهو أحوج ما يكون إليه.

٣ ـ روى الطبري عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (البقرة: ٥٩).

قال كل شيء في كتاب الله من الرجز يعني العذاب.

٤ ـ روى الطبري عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٧). قال: الرفث الجماع ولكن الله كريم يكني.

٥ ـ وفي تفسير الطبري عن ابن عباس في تفسير الآية: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ (البقرة: ٢٦٨)، اثنان

من الله واثنان من الشيطان، الشيطان يعدكم الفقر ويقول لا تنفق مالك وأمسك فإنك تحتاج إليه ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه على هذه المعاصي وفضلاً في الرزق.

استعانته بالشعر في التفسير:

كان ابن عباس يلجأ إلى الشعر بحثا عن معنى اللفظ القرآني، يقول ابن عباس: «إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب».

وعن نافع بن أبي نعيم أن عبد الله بن عباس سئل عن قول الله ﴿وَفُومِهَا﴾ (البقرة: ٦١) قال: الحنطة. أما سمعت قول أحيحة بن الجلاح وهو يقول:

قد كنت أغنى الناس شخصاً واحداً ورد المدينة عن زراعة فوم

وقال نافع بن الأزرق لابن عباس: أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

ما السنة؟ قال: النعاس، قال زهير بن أبي سلمي:

ولعل أوسع ما روي عن ابن عباس في هذا الباب مسائل نافع بن الأزرق الذي أراد ابن عباس ليفسر له أشياء من كتاب الله ويأتيه بمصادقه من كلام العرب، وقد أوردها السيوطي في كتاب «الإتقان في علوم القرآن». وإن كان قد زيد في القصة أشياء إلا أنها على كل حال تحدد اتجاه ابن عباس إلى الاستشهاد بالشعر العربي.

نماذج من استشهاده بالشعر:

قال نافع بن الأزرق لابن عباس أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ (سورة المعارج: ٣٧).

قال ابن عباس: العزون: حلق الرفاق قال: هل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا

قال نافع أخبرني عن قوله: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ (المائدة: ٣٥). قال ابن عباس: الوسيلة: الحاجة، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت عنترة وهو يقول:

إن الرجال لهم إليك وسيلة ... أن يأخذوك تكحلي وتخضبي

إلى آخر المسائل وأجوبتها، وهي تدل على قوة ابن عباس في معرفته بلغة العرب، وإلمامه بغريبها، إلى حد لم يصل إليه غيره، مما جعله بحق إمام التفسير في عهد الصحابة والتابعين، ومرجع المفسرين في الأعصر التالية للعصر الذي وجد فيه.

مكانة الإمام عبد الله بن عباس في التفسير:

يقول الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي:

وإن قال قائل فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب أن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكانه فإنه قد بسط في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قال الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة النحل: ٤٤).

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه فإن لم تجده فمن السنة، كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمين: «فبم تحكم؟» قال: بكتاب الله، قال: «فإن لم تجد؟» قال: بسنة رسول الله. قال: «فإن لم تجد؟» قال: أجتهد رأيي، فضرب رسول الله ﷺ يده في صدره وقال: «**الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله**».

وحينئذ، إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها ﷺ ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح والعمل الصالح، لا سيما علمائهم

وكبرائهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين المهديين،وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم، قال عبد الله بن مسعود: والذي لا إله غيره، ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت، ولم أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا، لأتيته.

ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس، ابن عم رسول الله ﷺ، وترجمان القرآن ببركة دعاء رسول الله ﷺ حيث قال: «**اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل**».

وقال عبد الله بن مسعود: «نعم ترجمان القرآن ابن عباس».

وقد مات عبد الله بن مسعود رضي الله عنه سنة ٣٢ من الهجرة.

وعمر بعده عبد الله بن عباس ٣٦ سنة فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود.

التفسير المنسوب إلى ابن عباس:

نسب إلى ابن عباس رضي الله عنه جزء كبير من التفسير، وطبع بمصر مراراً باسم «تنوير المقباس من تفسير ابن عباس»، جمعه أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الشافعي صاحب القاموس المحيط. وعند التحقيق العلمي نجد أن هذا التفسير ليس لابن عباس.

قال الإمام الشافعي: «لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث».

وجمع ما روي عن ابن عباس في كتاب «تنوير المقباس من تفسير ابن عباس» يدور على محمد بن مروان السدي الصغير، عن محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح عن ابن عباس.

والكلبي متهم بالكذب، وكذلك السدي الصغير، وفي كتاب الإتقان للسيوطي: رواية محمد بن مروان السدي الصغير عن الكلبي تسمى سلسلة الكذب.

وكل ذلك لا يذهب قيمة التفسير في حد ذاته، وإنما الشيء الذي لا قيمة له هو نسبته إلى ابن عباس.

الرواية عن ابن عباس:

روي عن ابن عباس رضي الله عنه في التفسير ما لا يحصى كثرة، وتعددت الروايات عنه، واختلف طرقها، فلا تكاد تجد آية من كتاب الله تعالى إلا ولابن عباس رضي الله عنه فيها قول أو أقوال، الأمر الذي جعل نقاد الأثر ورواة الحديث يقفون إزاء هذه الروايات التي جاوزت الحد وقفة المرتاب، فتتبعوا سلسلة الرواة فعدلوا العدول، وجرحوا الضعفاء وكشفوا للناس عن مقدار هذه الروايات قوة وضعفاً، ومن أشهر الطرق إلى ابن عباس تسع طرق، أولها وأفضلها:

طريقة معاوية بن صالح، عن أبي طلحة عن ابن عباس، وهذه هي أجود الطرق عنه، وفيها قال الإمام أحمد بن حنبل: «إن بمصر صحيفة في التفسير رواها علي بن أبي طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً». وقال الحافظ ابن حجر: «.. وهذه النسخة كانت عند أبي صالح كاتب الليث، رواها عن معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وهي عند البخاري عن أبي صالح،وقد اعتمد عليها في صحيحه فيما يعلقه عن ابن عباس».

وكثيراً ما اعتمد على هذه الطريقة ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم وابن المنذر وأصحاب السنن جميعاً يحتجون بعلي بن أبي طلحة.

كتاب جليل:

الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي عالم جليل له أياد بيضاء في خدمة التراث، وقد وضع كتاباً يسمى (معجم غريب القرآن) مستخرجاً من صحيح البخاري. وفيه ما ورد عن ابن عباس عن طريق ابن أبي طلحة خاصة.

وفي آخر الكتاب مسائل نافع بن الأزرق من صفحة ٢٣٤ إلى صفحة ٢٩١. مرتبة حسب حروف الهجاء.

وفي مقدمتها ما يأتي:

بينما عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة، قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر قم بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به، فقاما إليه فقالا: إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا، وتأتينا بمصادقة من كلام العرب، فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين.

فقال ابن عباس: سلاني عما بدا لكما.

قال نافع بن الأزرق: قال تعالى: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ (عبس: ٣١) ما الأب؟

قال: الأب، ما يعتلف الدواب.

قال نافع: قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ (الفيل: ٣) ما الأبابيل؟

قال: (الأبابيل): ذاهبة جائية تنقل الحجارة بمناقيرها وأرجلها فتبلبل عليهم فوق رءوسهم.

قال نافع: ما معنى لا تأس في قوله تعالى: ﴿فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة: ٢٦)؟ قال: (لا تأس): لا تحزن، وكان يتبع كل آية ببيت من الشعر فيقول مثلاً: قال طرفة بن العبد (في معلقته):

وقوفا بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

قال نافع: ما معنى (أفلت) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: ٧٨)؟

قال: (أفلت): زالت الشمس عن كبد السماء. قال كعب بن مالك:

فتغير القمر المنير لفقده والشمس قد كسفت وكادت تأفل

قال نافع بن الأزرق ما معنى (آن) في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ (الرحمن: ٤٤)؟

قال (آن): الآني: الذي انتهى طبخه وحره. قال نابغة بن ذبيان:

وتخضب لحية غدرت وخانت ... بأحمر من نجيع الجوف آن

قال نافع ما معنى (إيابهم) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ (الغاشية: ٢٥)؟

قال: الإياب: المرجع. قال عبيد بن الأبرص:

وكل ذي غيبة يئوب ... وغائب الموت لا يئوب

قال نافع بن الأزرق: ما معنى (بارئكم) في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ (البقرة: ٥٤)؟ قال عبد الله بن عباس: بارئكم: خالقكم، قال تبع:

شهدت على أحمد أنه ... رسول من الله بارئ النسم

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

٣ـ مقاتل بن سليمان

مقـاتل بن سليمان بـن بشير البلخي، مـولى الأزد كنيته أبـو الحسن، وترجم له الذهبي بقوله:

كبير المفسرين أبو الحسن مقاتل بن سليمان البلخي.

ولد مقـاتل بن سليـمان بمدينة بلخ من إقليم خـراسان، ولم تذكـر المراجع سنة ميـلاده وعند التحقيق يتـرجح لدينا أنه ولد حوالي سنة ٨٠هـ، ومات مـقاتل ودفن بالبصرة سنة ١٥٠هـ وهو قديم معمر.

البلاد التي نشأ فيها مقاتل:

نشأ مـقاتل في مـدينة بلخ ثم تحول إلى مـدينة مرو، وكلتاهمـا من أشهـر مدن خراسان.

وكانت خراسان في القـرن الثاني والثالث والرابع الهجري من أهم مـراكز الحياة الفكرية في بلاد الإسلام، وظهر منها كبار المحدثين وعدد من المفسرين والفقهاء حتى قـال البكري: «ومنهم العلمـاء والنبلاء والمحـدثون والنساك والمتـعبـدون، وأنت إذا أحصيت المحدثين في كل بلد وجدت نصفهم من خراسان».

وخراسان من أخـصب بلاد المشرق وأوسعها، وقد عظم شـأن خراسان في دولة بني العباس، وزاد الخراج بها زيادة كبيرة حتى وصل إلى ٤٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم، إذا أضيفت إلى خراج العـراق بلغ نصف جباية المملكة كلها، وكثيـراً ما كان الخلفاء يعدون خراسان المملكة كلها، وكان يقال: أمـا العراق فللمال، وأما خراسان فللمال والرجال، وأما الحجاز فهو مصدر الثقة في الخلافة وتثبيت البيعة.

ومن أهل خراسان: محمد بن إسماعيل البخاري، والحسن بن شجاع البلخي وغيرهم.

مدينة بلخ:

ولد مقاتل بن سليمان في مدينة بلخ، وكانت بلخ قبل الإسلام مركزاً لديانات متعددة، ولذلك فقد قامت بسلسلة من أعمال التمرد بعد الفتح الإسلامي لها.

أما بلخ الآن فتقع ضمن بلاد أفغانستان، ولا تزيد بيوتها على خمسمائة بيت، ولا تمت بصلة كبيرة إلى المدينة القديمة التي كان العرب يطلقون عليها (أم البلاد) وبها مزار شريف للإمام علي رضي الله عنه.

مقاتل في العراق:

ولد مقاتل في بلخ ثم تحول إلى مدينة مرو، وكانت له منزلة عظيمة في خراسان، ورحل مقاتل إلى العراق حوالي سنة ١٣٥هـ ونزل في مدينة البصرة، وهي ثاني مدن العراق في ذلك الوقت، وفي العراق الملل والنحل والأهواء، وقد كان موطناً لديانات قديمة كان السريان قد انتشروا فيه وأنشئوا لهم مدارس به قبل الإسلام.

وكانوا يدرسون فيه فلسفة اليونان وحكمة الفرس، وكان في العراق قبل الإسلام مذاهب نصرانية تتجادل في العقائد، وكان العراق بعد الإسلام مزيجاً من أجناس مختلفة، وكان فيه اضطراب وفتن، وفيه آراء تتضارب في السياسة، وأصول العقائد، ففيه الشيعة، وفي باديته الخوارج، وفيه المعتزلة، وفيه تابعون مجتهدون حملوا علم من لقوا من الصحابة، فكان فيهم علم الدين سائغاً مورداً، وفيه النحل المتنازعة، والآراء المتضاربة، وكان في البصرة طبقات الخوارج من الأباضية والصفرية وغيرهم.

وتميزت البصرة بالجدل وعلم الكلام وبالمناظرات والقصص وقد ظهر في البصرة كثير من الفرق، وأهم الفرق المعتزلة وكانت بالبصرة ومن شيوخهم الحسن

البصري، وواصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد والنظام، والجاحظ، والجبائي شيخ أبي الحسن الأشعري. ومات في البصرة عدد من صحابة رسول الله ﷺ، وردت أسماؤهم في تفسير مقاتل بن سليمان، وكانت البصرة في حياة مقاتل بن سليمان تقابل بالدنيا.

واستطاع مقاتل بن سليمان أن يملي تفسيره للقرآن الكريم في بلاد العراق، وأن يجد سبيله إلى التدريس في حلقات العلم في بغداد والبصرة وغيرها من مدن العراق.

مقاتل وتفسير القرآن:

عاش مقاتل بن سليمان في عصر مبكر نسبيا، وهو من أوائل المفسرين الذين فسروا القرآن الكريم من أوله إلى آخره ويمكن أن نقدم خلاصة مركزة عن الموضوع في النقاط الآتية:

١ ـ بدأ التفسير بتوضيح النبي ﷺ لبعض آيات القرآن، وبذلك يعتبر النبي الأمين أول مفسر للقرآن الكريم.

٢ ـ اتسع نطاق التفسير كلما بعد العهد بالنبوة لحاجة الناس إلى التفسير، وبعدهم عن ملابسات نزول القرآن.

٣ ـ لم يكن التفسير لذات التفسير، بل نشأ التفسير إجابة لما غمض، وتوضيحاً لما أشكل، وتفسيراً لما أبهم، فلم يفسر النبي جميع القرآن بل فسر آيات منه وتعهد أصحابه القرآن، قراءة وفهما وتوضيحاً، فاتسع نطاق التفسير نسبيا، ولكنه لم يشمل جميع القرآن.

٤ ـ أقدم تفسير مطبوع الآن، هو تفسير سفيان الثوري المتوفي سنة ١٦١هـ، وهو تفسير بالمأثور، ومقصور على تفسير بعض الآيات، وقد طبع بالهند منذ خمسة عشر عاماً.

٥ ـ أقدم تفسير كامل للقرآن الكريم وصل إلينا هو تفسير مقاتل بن سليمان

البلخي، المتوفي سنة ١٥٠هـ، وقد تناول تفسير القرآن الكريم آية آية حتى فسر جميع القرآن.

٦ ـ كثير من التفاسير المبكرة ضاعت ولم تصل إلينا ويعتبر تفسير ابن جرير الطبري المتوفي ٣١٠هـ أقدم وثيقة تجمع هذه التفاسير.

٧ ـ استمرت عناية المسلمين بالقرآن في جميع العصور الإسلامية فألف حوله من الكتب ما لا يحصى، وصدق الله العظيم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

مقاتل وعلم الحديث:

جرح رجال الحديث مقاتل بن سليمان، واتهموه ولم يوثقوه.

قال يحيى بن معين: ليس حديثه بشيء، ليس بثقة.

وقال محمد بن سعيد: أصحاب الحديث يتقون حديثه، وينكرونه.

وقال البخاري: منكر الحديث سكتوا عنه.

وقال أبو أحمد بن عدي: عامة حديثه مما لا يتابع عليه.

على أن كثيراً من الثقات والمعروفين قد حدث عنه، ومع ضعفه يكتب حديثه.

الثناء على مقاتل

انخفضت أسهم مقاتل عند المحدثين وعلماء الرجال، وكثر الثناء عليه بين المفسرين وأثنى عليه بعض الثقات.

قال الإمام الشافعي: «من أراد أن يتبحر في تفسير القرآن فهو عيال على مقاتل ابن سليمان».

وعن سفيان بن عيينة: سمعت مشعراً يقول لحماد بن عمرو كيف وجدت الرجل ـ يعني مقاتلاً ـ؟ قال: إن كان ما يجيء به علماً فما أعلمه.

وقال عبد الله بن المبارك ـ حين رأى تفسير مقاتل:

ياله من علم لو كان له إسناد.

وقال عبد الله بن كثير: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من مقاتل.

وقال حماد بن أبي حنيفة: مقاتل أعلم بالتفسير من الكلبي.

وقال بقية: كنت كثيراً أسمع شعبة وهو يسأل عن مقاتل بن سليمان فما سمعته قط ذكره إلا بخير.

وقال على بن الحسين، سألت مقاتل بن حيان فقلت: يا أبا بسطام أنت أعلم أو مقاتل بن سليمان؟

قال: ما وجدت علم مقاتل بن سليمان في علم الناس إلا كالبحر الأخضر في سائر البحور.

ونلاحظ أن الثناء على مقاتل يتجه إلى تفسيره للقرآن الكريم وأحياناً إلى علمه وشخصه، أما في الحديث فمقاتل متهم غير موثوق به عند أئمة الحديث برغم أنه مر بنا ثناء بعض الأئمة عليه، كالإمام الشافعي، وعباد بن كثير وحماد بن أبي حنيفة وشعبة ومقاتل بن حيان.

غير أن هذا الثناء على مقاتل ليس معناه توثيق مقاتل بل هو مدح لعلمه وشخصه من غير توثيق له، وهناك فرق بين مدحهم للشخص وقولهم إنه ثقة.

المأثور والمعقول:

جمع مقاتل بن سليمان في تفسيره بين النقل والعقل، وكان مقاتل متميزاً بسعة الثقافة، والتوفيق بين المتشابه وتخريج ما يوهم التضاد، وترتيب آيات الحياة والموت حسب تدرجها، وفي ظني أن مقاتلاً كان سابقاً في كثير من هذه المعاني.

إن اختلاط العقل بالنقل يظهر واضحاً في تفسير مقاتل وفي كتابه (الأشباه والنظائر في القرآن الكريم) وكتابه (تفسير خمسمائة آية من القرآن الكريم وبها أحكام فقهية).

فمن جهة النقل - يعتمد مقاتل في تفسيره على جمع الآيات المتصلة بموضوع واحد، ويورد الأحاديث المتعلقة بالآية بعد أن يحذف أسانيدها.

مثال من تفسير مقاتل:

ذكر القرآن الكريم أن الله خلق آدم من تراب ومن طين ومن حمأ مسنون ومن طين لاذب، ومن صلصال كالفخار، ومن عجل، ومن ماء مهين ويجمع مقاتل بن سليمان بينها بأنها دليل على تدرج الخلقة. فقد بدأ خلق آدم من أديم الأرض وهو التراب، ثم تحول التراب إلى الطين.. وتحول الطين إلى سلالة، ثم تغيرت رائحة الطين فتحول إلى حمأ مسنون، ثم لصق فتحول إلى طين لازب، ثم صار له صوت كصوت الفخار ثم نفخ فيه الروح، فأراد أن ينهض قبل أن تتم الروح فيه، فذلك قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ (الأنبياء: ٣٧) ثم جعل ذريته من النطفة التي تنسل من الإنسان ومن الماء المهين وهو الضعيف.

وفي رأيي أن تفسير مقاتل يصل إلى المعنى المقصود من أقرب الطرق. ويتميز بالعبارة السهلة، واختيار أقوى الآراء في الآية وأولاها بدون سرد للخلاف، وبرغم مرور أكثر من ألف عام على هذا التفسير فإنك تحس وأنت تقرؤه أنه كتب لعامة الناس في هذه الأيام.

كليات القرآن:

تمتع مقاتل بن سليمان، بذكاء خارق ومعرفة واسعة بكل ما يحتاج إليه المفسر للقرآن.

فله معرفة واسعة باللغة ومفرداتها وتراكيبها، والدلالة وتطورها، والمشترك والمترادف، ومعرفة العقائد والإلهيات والنبوات والأحكام ويظهر ذلك في كليات القرآن لمقاتل بن سليمان.

فيقول مقاتل:

كل شيء في القرآن (الأتراب) يعني المستويات في الملاذ، بنات ثلاث وثلاثين.

وكل شيء في القرآن (الأجداث) يعني القبور.

و (آلاء الله) يعني نعماء الله.

وكل شيء فقي القرآن (الجحيم) يعني ما عظم من النار.

وكل شيء في القرآن (خاسئا) يعني صاغرا.

وكل شيء في القـرآن (دار البـوار) و (قومـا بورا) و (تجـارة لن تبـور) يعني به الهلاك.

وكل شيء في القرآن (طبع) يعني ختم.

وكل شيء في القرآن (صاغرين) يعني مذلين.

وكل شيء في القرآن (عربا) عاشقين لأزواجهن.

أول من فسر القرآن كاملاً:

ذهب الأستـاذ أحمد أمين إلى أن الفـراء المتوفي سنة ٢٠٧هـ كان أول من فـسر القرآن الكريم آية آية، وأما السابقون عليه فكانوا يقتصرون على تفسير المشكل.

وعند التحقيق نجد أن هذا الرأي تنقصه الدقة للأمور الآتية:

١ ـ تفسير الفـراء ليس تفسيراً كاملاً للقرآن بل هو تفـسير لما أشكل من كلماته، ذلك أن الفراء في مـعاني القرآن، وهو تـفسيره، يفـسر كلمـة أو كلمات من آية ثم يترك آيات لا يفـسرها. وهمة الفـراء متجهـة إلى تفسيـر كلمات من جهـة اللغة أو النحو.

٢ ـ تفسيـر مقاتل بن سليمان المتـوفى ١٥٠هـ أسبق من تفسير الفـراء بأكثر من نصف قرن، وهو تفسير كامل لجميع آيات القرآن.

٣ ـ كان مـقاتل يجـمع آراء السابقين ثم يخـتار أولاها ويعـرض أقوى الآراء في إيجاز وبساطة ووضوح.

مؤلفات مقاتل بن سليمان

١ ـ التفســير الكبير، وهو تفـسير كامل للقـرآن الكريم طبع الجزء الأول منه سنة ١٩٧٠م.

٢ ـ نوادر التفسير.

٣ ـ الناسخ والمنسوخ.

٤ ـ الرد على القدرية.

٥ ـ (الوجوه والنظائر في القرآن الكريم) وهو مصور بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية عن مكتبة عمومية بتركيا رقم ٥١٦ وقد حقق وطبع بالهيئة المصرية العامة للكتاب.

٦ ـ تفسير خمسمائة آية من القرآن الكريم.

وهي مخطوطة بالمتحف البريطاني تحت رقم ٦٣٣٣ وهو تفسير مطول نوعاً ما ويتضمن أحكاماً فقهية.

٧ ـ الأقسام واللغات.

٨ ـ الآيات المتشابهات.

وختاماً رحم الله مقاتل بن سليمان البلخي، وتغمده بواسع رحمته، وغفر لنا وله آمين ـ وصل اللهم على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

٤ـ سفيان الثوري

هو عبد الله سفيان بن سعيد مسروق الثوري الكوفي أحد الأئمة المجتهدين في الدين.

ولد في بلدة أثير بالكوفة التي كانت رأس العراق، في زمن سليمان بن عبد الملك ـ وذلك سنة ١٠٠هـ ومات سنة ١٦١هـ.

شيوخه:

شغف سفيان من صغره بطلب العلم ومجالسة العلماء، وكانت الكوفة في عهد تموج بالعلماء والفضلاء والأدباء والمحدثين، فأخذ العلم عن مشايخ عصره، ومن أشهر العلماء الذين أخذ عنهم: أبو إسحق السبيعي، ومنصور بن المعتمر، ومسلمة ابن كهيل، وحبيب بن أبي ثابت، وأيوب السختياني، وغيرهم من العلماء.

ولما صلب عوده وأصبح من الذين يشار إليهم بالبنان، اجتمع إليه طلبة العلم، وأخذ عنه كثير من الفطاحل، ومن أشهر الذين أخذوا عنه الإمام مالك بن أنس، ويحيى بن سعيد القطان، وابن المبارك، وسفيان ابن عيينة والأوزاعي وغيرهم.

الثوري إمام مذهب:

بلغ الثوري مرتبة الاجتهاد المطلق، وأصبح إماما مجتهداً في الفقه وعارفا بالحديث والقياس، وكان مشتهراً بالقياس والقول بالرأي والاجتهاد، وله مذهب معروف، وقد قلده كثير من الأتباع، وبقي مذهبه معمولاً به حتى القرن الخامس، وكان مقلدوه يطلقون عليه اسم الثوري، وكان من بينهم الشيخ جنيد البغدادي، وأبو صالح بن أحمد القصار النيسابوري وغيرهما.

توثيق العلماء له:

أجمع مشاهير العلماء، والفطاحل من رجال الجرح والتعديل على توثيق سفيان الثوري، ولم نسمع أن أحداً جرحه، قال فيه الإمام أبو حنيفة: لو كان سفيان في التابعين لكان له فيهم شأن.

وسئل إسماعيل بن إبراهيم عن علم شعبة وسفيان، فقال: ما علم شعبة عند علم سفيان إلا كقطرة في بحر، وقال فيه الإمام مالك: إنما كانت العراق تجيش علينا بالدراهم والثياب، ثم صارت تجيش علينا بالعلم منذ جاء سفيان الثوري.

وقال الإمام الأوزاعي: لم يبق من تجتمع عليه الأمة بالرضا إلا سفيان.

وقال فيه النسائي: هو أجل من أن يقال فيه هو ثقة، لأنه أحد الأئمة الذين أرجو أن يكون ممن جعله الله للمتقين إماما.

وقال سفيان بن عيينة: لم يدرك مثل ابن عباس في زمانه ولا مثل الشعبي في زمانه، ولا مثل الثوري في زمانه.

تفسير الثوري:

تفسير الثوري تفسير بالمأثور فقط، فليس فيه تفسير لكلمة أو آية إلا ومعه ذكر الإسناد، ويعطينا صورة صادقة للجهود التي بذلت لحفظ كتاب الله، وحفظ تفسيره والأمانة التامة للمفسرين وجهودهم.

وتفسير الثوري غير شامل لجميع القرآن، بل تناول بعض سور القرآن بالتفسير، وقد بلغ عدد السور التي تناولها في التفسير ٤٩ سورة فقط. والمعروف أن سور القرآن الكريم ١١٤ سورة، ومجموع الآيات التي فسرها هي (٩١١) آية فقط، وتفسير الثوري مرتب حسب ترتيب المصحف، فيبتدئ من أول سورة البقرة، وينتهي عند سورة الطور.

إسناد التفسير:

عني الثوري بإسناد التفسير إلى قائله، والمحافظة على الإسناد ميزة لمعرفة قيمة الأثر، وتفسير الثوري مسند إما إلى الرسول الكريم، أو الصحابة أو التابعين.

فروي التفسير عن أبي بكر وعمر وعلي، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وعبد الله بن عمر، وأنس بن مالك، وأبي سعيد الخدري، والزبير بن العوام، وأبي هريرة، وعمار بن ياسر، وأبي ذر، وابن عباس، والبراء بن عازب، وجابر بن عبد الله، وسلمان الفارسي وغيرهم، وعن أمهات المؤمنين عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما.

وأكثر روايات تفسير الثوري منقطعة عن التابعين، رواها عن مجاهد وعكرمة، وسعيد بن جبير وابن رزين، والشعبي والسدي، وعطاء وطاووس، وسعيد بن المسيب وشريح، والحسن البصري والضحاك بن مزاحم ومسروق وغيرهم، وأكثر مرويات سفيان مسنده إلى أهل مكة، وبعضها مرفوع إلى الرسول ﷺ .

ويقع تفسير الثوري في مجلد واحد، وقد حققه السيد/ امتياز علي عرشي مدير مكتبة رضا، رامبور، الهند. وطبع بإعانة وزارة المعارف لحكومة الهند سنة ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م، ضمن سلسلة مطبوعات مكتبة رضا بالهند.

طريقة الثوري في التفسير:

تفسير الثوري بالرواية، ولم يلتزم الثوري وتيرة واحدة في تفسيره، ففي بعض الآيات يبين سبب النزول فقط وذلك مثل تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: ٦٠).

فروى الثوري عن ابن جريج عن عطاء قال: لما نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ قالوا: لو علمنا أي ساعة هي؟

قال: فنزلت: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: ١٨٦).

وكذلك في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (فصلت: ٢٢).

تجد الآتي في تفسير سفيان الثوري:

سفيان عن الأعمش عن عمارة بن عمير عن وهيب بن ربيعة قال: قال ابن مسعود: إني مستتر بأستار الكعبة إذ جاء ثلاثة نفر، ثقفي وقرشيان، كثيرة شحم بطونهم. قليلة فقه عقولهم، فتحدثوا بينهم بحديث فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول، فقال بعضهم يسمع إذا رفعنا، ولا يسمع إذا خفضنا، فقال الآخر إن كان يسمع بعضه فإنه يسمع أجمع، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فنزلت: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ..﴾ إلخ الآية.

وجاء في مطلع تفسير سورة الأنفال ما يلي:

سفيان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: من جاء بأسير فله كذا، ومن جاء برأس فله كذا، فجاء أبو اليسر بأسيرين، فقال يارسول الله، إنك قلت من جاء بأسير فله كذا، ومن جاء برأس فله كذا، وقد جئت بهذين، قال سعد بن عبادة يارسول الله قد رأينا مكان ما أخذوا، وحرسناك مخافة عليك، فجعل أبو اليسر يتكلم، فإذا فرغ تكلم سعد بن عبادة، فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ١).

وكذلك نجد في تفسير الثوري ذكرًا للناسخ والمنسوخ بعبارة سهلة واضحة.

جاء في تفسير الثوري لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ (المائدة: ٢) نسختها: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ..﴾ (التوبة: ٥).

وقد ذكر الثوري المكان الذي نزلت فيه الآية، حيث يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ (المائدة: ٣) قال: نزلت يوم عرفة، في يوم جمعة.

وقد يبين في تفسيره للآية معنى لغويا، أو ما يقرب من ذلك، لكلمة واحدة من الآية، وذلك مثل تفسيره لقوله تعالى: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ (الرعد: ٤). قال: صنوان النخل المجتمع، وغير صنوان النخل المتفرق.

ومن تفسيره الواضح البسيط لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ (البقرة: ٢٠٣) قال: الأيام المعلومات هي الأيام العشر، والأيام المعدودات هي أيام التشريق.

نماذج من الإسناد عند الثوري:

جاء في تفسير الثوري لسورة النور ما يأتي:

١ ـ سفيان عن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ قال تعطيل الحد.

٢ ـ سفيان عن أبي نجيح عن مجاهد: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور: ٢) قال الطائفة رجل فما زاد.

٣ ـ حدثنا سفيان عن سلمة بن كهيل عن مجاهد قال: نزلت هذه الآية ﴿الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾، قال نزلت في نساء معلومات بالمدينة يقال لهن بغيات أو لقيات، نزلت فيهن خاصة.

تعليق:

والآية الأخيرة ورد فيها أثر يحدد مدلولها، وهي تشير إلى أن الخبيث الذي من شأنه الزنا، لا يرغب في زواج الصالحات من النساء وإنما يرغب في خبيثة من شكله أو في مشركة.

قال أبو الأعلى المودودي:

«ومقصود الآية أن الفجار الذين يظهرون فجورهم، ويعلنون خلاعتهم في المجتمع، ليس الميل والاتصال بهم بصلة النكاح، إلا ذنباً يجب أن يجتنبه أهل

الإيمان، لأن ذلك مما يشجع الفجار، إذ إن الشريعة تريد أن تجعلهم في المجتمع عنصراً قبيحًا يعافه الناس.

وكذلك ليس معنى الآية أن نكاح الزاني المسلم لامرأة مشركة، أو نكاح الزانية المسلمة لرجل مشرك صحيح، وإنما معنى الآية:

أن الزنا فعل شنيع إذا ارتكبه أحد مع كونه مسلمًا، لا يجدر بأن يرتبط بالصالحين الأعفاء، من أفراد المجتمع، بل عليه أن يرتبط بأمثاله من الزناة والفجار أو بالمشركين الذين لا يعتقدون أصلاً بالأحكام الإلهية».

والآية كما تشاهد تهيب بالرجال أن يختاروا الصالحات من النساء، وتهيب بأولياء أمور النساء ألا يزوجوا بناتهم إلا للرجل المستقيم، وأن لا يقبلوا أن يزوجوا بنتهم من شخص فاسق أو خارج على حدود الله، وهذا تأويل قوله سبحانه: ﴿الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور: ٣).

٥ـ ابن جرير الطبري

هو أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري.

ولد في مدينة آمل بطبرستان سنة ٢٢٤هـ.

ومات في بغداد سنة ٣١٠هـ.

رحلته في طلب العلم:

رحل ابن جرير الطبري من بلده في طلب العلم وهو ابن ١٢ عامًا وطوف في الأقاليم فسمع بمصر والشام والعراق، ثم ألقي عصاه واستقر ببغداد.

صفاته وعلمه:

اشتهر ابن جرير بالاجتهاد في طلب العلم، والجد في تحصيله، مع قدرة على استيعاب آراء السابقين، والمقارنة بينها وترجيح أولاها بالصواب، وكان موسوعة علمية في المنقول والمعقول، والقدرة على تمييز السليم من العليل، والموازنة بين الآراء.

قال الخطيب البغدادي:

كان ابن جرير أحد الأئمة الأعلام، يحكم بقوله، ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، فكان حافظًا لكتاب الله، بصيرًا بالقرآن، عارفًا بالمعاني، فقيها في أحكام القرآن، عالمًا بالسنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها عارفًا بأقوال الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من المخالفين في الأحكام ومسائل الحلال والحرام، عارفًا بأيام الناس وأخبارهم.

وقال أبو العباس بن سريج: محمد بن جرير فقيه عالم، وهذه الشهادة جد صادقة فقد برع الطبري في علوم كثيرة. منها: علم القراءات، والتفسير، والحديث، والفقه والتاريخ. وقد صنف في علوم كثيرة، وأبدع التأليف، وأجاد فيما صنف فيه.

مؤلفات ابن جرير الطبري:

١ ـ جامع البيان في تفسير القرآن.

٢ ـ تاريخ الأمم والملوك.

٣ ـ كتاب القراءات.

٤ ـ العدد والتنزيل.

٥ ـ كتاب اختلاف العلماء.

٦ ـ تاريخ الرجال من الصحابة والتابعين.

٧ ـ كتاب أحكام شرائع الإسلام.

٨ ـ كتاب التبصر في أصول الدين.

وللطبري كتب كثيرة ومصنفات متعددة تدل على سعة علمه وغزارة معارفه.

ولكن هذه الكتب قد اختفى معظمها من زمن بعيد، وأشهر ما بقى للطبري كتابان:

كتاب التفسير، وكتاب التاريخ، وطبع له كتاب اختلاف الفقهاء وقد اعتبر الطبري أبا للتفسير، كما اعتبر أبا للتاريخ الإسلامي، وعرف الطبري بالاجتهاد المطلق، قال ابن خلكان: إنه كان من الأئمة المجتهدين، لم يقلدا أحدًا، ونقل أن الشيخ أبا إسحاق الشيرازي ذكره في طبقات الفقهاء في جملة المجتهدين.

وكان له مذهب معروف، وأصحاب ينتحلون مذهبه، يقال لهم الجريرية، ولكن هذا المذهب لم يستطع البقاء إلى يومنا هذا كغيره من مذاهب المسلمين.

ويظهر أن الطبـري قبل أن يبلغ هذه الدرجة من الاجتـهاد، كان مقـتديا بمذهب الشافعي.

قال السيوطي في طبقات المفسرين:

وكان أولاً شـافعيا، ثم انفـرد بمذهب مستـقل، وأقاويل واختيـارات، وله أتباع ومقلدون، وله في الأصول والفروع كتب كثيرة. ا هـ.

وقال صاحب لسان الميزان: «الطبري ثقة صادق، فيه تشيع يسير وموالاة لا تضر..».

تفسير الطبري:

ضاع كثير من كتب التفسير المنسوبة إلى الصحابة والتابعين وتابعي التابعين.

ولكن مضمون هذه الكتب قد نقله إلينا محمـد بن جرير الطبري صاحب التفسير الكبير المتداول بين الناس الآن. قال السيوطي: «وكتابه أجل التفاسير وأعظمها، فإنه يتعرض لتـوجيه الأقوال، وترجيح بعـضها على بعض، والإعراب والاستنبـاط فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقـدمين وقال النووي: أجمعت الأمة على أنه لم يصنف في التفسير مثل تفسير الطبري.

ويقع تفسـير ابن جرير الطبري في ثلاثين جـزءاً من الحجم الكبير وقـد كان هذا الكتاب من عـهد قـريب يكاد يكون مفقـوداً، لا وجود له، ثم قـدر الله له الظهور والتداول، فكانت مفاجأة سارة للأوسـاط العلمية في الشرق والغرب أن وجدت في حيازة أميـر (حائل)، الأمير محمود ابن الأمـير عبد الرشيد، من أمـرأ نجد، نسخة مخطـوطة كاملة من هذا الكتـاب، طبع الكتاب عليـها، فـأصبـحت في يدنا دائرة معارف فنيـة في التفسيـر المأثور، وقد طبع تفسيـر الطبري منذ أكثر من سـتين عاماً بمطبعة بولاق بمصر، ثم طبع بعد ذلك عدة طبعات.

ومن أجود الطبعات لتـفسير الطبري دار المعارف بمصر بتحقـيق وتخريج الأسانيد للعلامة أحمد شاكر وأخيه العلامة محمود شاكر، وقد توقفت هذه الطبعة بعد الجزء السادس عشر.

تفسير الطبري في الميزان:

الطبري مفسر جمع بين العقل والنقل، وكان بارعاً في التفسير طويل الباع، جلداً صبوراً أمينا في النقل، ذا عقلية منظمة، فإذا أراد أن يفسر الآية من القرآن، يقول القول في تأويل قوله تعالى: ﴿....﴾ ثم يفسر الآية. ويستشهد على ما قاله بما يرويه بسنده إلى الصحابة أو التابعين، من التفسير المأثور عنهم في هذه الآية، وإذا كان في الآية قولان أو أكثر فإنه يعرض لكل ما قيل فيها، ويستشهد على كل قول بما يرويه في ذلك عن الصحابة أو التابعين، ثم هو لا يقتصر على مجرد الرواية، بل نجده يتعرض لتوجيه الأقوال ويرجح بعضها على بعض، كما نجده يتعرض لناحية الإعراب أن دعت الحال إلى ذلك، كما أنه يستنبط الأحكام التي يمكن أن تؤخذ من الآية.

ثلاثة آلاف ورقة:

كان تفسير الطبري موسوعة كبيرة جداً، ثم اختصره مؤلفه إلى مقدار ٣٠ جزءاً كبيراً كما أن كتابه تاريخ الأمم والملوك، ظفر بمثل هذا البسط والاختصار، قال ابن السبكي في الطبقات الكبرى:

(إن أبا جعفر قال لأصحابه أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ قال ثلاثة آلاف ورقة.

ثم قال: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟ قالوا كم قدره؟ قال ثلاثون ألف ورقة، فقالوا هذا كثير فقال الطبري: إنا لله، ماتت الهمم فاختصره في نحو ما اختصر التفسير).

شهادة العلماء له:

أجمع الباحثون والعلماء في الشرق والغرب، على عظيم قيمة تفسير الطبري، وأوليته الزمنية، وأوليته من ناحية الفن والصناعة، وما امتاز به التفسير من الطريقة البديعة التي سلكها مؤلفه، حتى أخرجه للناس كتاباً له قيمته ومكانته، فصار واحداً

في بابه، سبق به مؤلفه غيره من المفسرين، فكان عمدة المتأخرين، ومرجعاً مهما من مراجع المفسرين على اختلاف مذاهبهم.

قال أبو حامد الإسفرايني (لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل على كتاب تفسير محمد بن جرير الطبري، لم يكن ذلك كثيراً).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (وأما التفاسير التي في أيدي الناس، فأصحها تفسير ابن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين).

وذكر صاحب لسان الميزان: (أن ابن خزيمة استعار تفسير ابن جرير الطبري من ابن خالوية، فرده بعد سنين، ثم قال: نظرت فيه من أوله إلى آخره فما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير).

وجاء في كتاب المذاهب الإسلامية في التفسير للمستشرق جولد زيهر: أن (نودلكه) في سنة ١٨٦٠م أطلع على فقرات من تفسير الطبري فكتب بيده قائلاً: (لو كان بيدنا هذا الكتاب لا ستغنينا عن كل التفاسير المتأخرة، ومع الأسف فقد كان يظهر أنه مفقود تماماً، وكان مثل تاريخه الكبير مرجعاً لا معينه أخذ عنه المتأخرون معارفهم).

جهد مشكور:

نقل ابن جرير الطبري في تفسيره آراء المفسرين الذين تقدموا عليه، فنقل عن مدرسة ابن عباس في التفسير، ومدرسة عبد الله بن مسعود، ومدرسة علي بن أبي طالب، ومدرسة أبي بن كعب، فأصبح تفسير الطبري أعظم الكتب المؤلفة في التفسير بالمأثور.

كما أن ما جاء في الكتاب من إعراب، وتوجيهات لغوية، واستنباطات في نواح متعددة، وترجيح لبعض الأقوال على بعض، كان نقطة التحول في التفسير، ونواة لما وجد بعد من التفسير بالرأي، كما كان مظهراً من مظاهر الروح العلمية، السائدة في هذا العصر الذي يعيش فيه ابن جرير.

وفي الحق أن شخصية ابن جرير الأدبية والعلمية، جعلت تفسيره مرجعاً مهما من مراجع التفسير بالرواية، فترجيحاته المختلفة تقوم على نظرات أدبية ولغوية وعلمية قيمة، فوق ما جمع فيه من الروايات الأثرية المتكاثرة.

نقل الداودي عن أبي محمد عبد الله بن أحمد الفرغاني في تاريخه (أن الطبري أتم كتاب التفسير وجوده، وبين فيه أحكامه، ناسخه ومنسوخه، ومشكله وغريبه، ومعانيه، واختلاف أهل التأويل والعلماء في أحكامه، وتأويله، والصحيح لديه من ذلك، وإعراب حروفه، والكلام على الملحدين فيه، والقصص، وأخبار الأمة والقيامة، وغير ذلك مما حواه من الحكم والعجائب كلمة كلمة وآية آية، فلو ادعى عالم أن يصنف منه عشر كتب، كل كتاب منها يحتوي على علم مفرد وعجيب مستفيض لفعل).

وجاء في معجم الأدباء: أن الطبري أتم تفسيره هذا في سبع سنوات إملاء على أصحابه من سنة ٢٨٣هـ إلى ٢٩٠هـ وكان كتاب تفسير الطبري يشتمل على عشرة آلاف ورقة، أو دونها حسب سعة الخط أو ضيقه.

التفسير النقلي والعقلي:

نشأت مدارس للتفسير بمكة والمدينة والعراق، وتميز الحجاز بلزوم التفسير بالمأثور، كما تميز العراق بالاتجاه إلى التفسير بالرأي أو العقل، ونشأ اتجاهان في تفسير القرآن من عهد الخلفاء الراشدين إلى يومنا هذا، وهما التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي، ونشأت مساجلات حول تفضيل أحدهما على الآخر، لكنا في النهاية نرى أنه لا غنى لأحدهما عن الآخر، فمفسر القرآن ملزم بمعرفة تاريخ التشريع، وأسباب النزول، ومعرفة المكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، وما أثر عن النبي ﷺ، وصحابته والتابعين، في تفسير الآية، ثم هو ملزم باستخدام العقل والرأي إذا لم يجد أثراً في الآية، أو وجد أثراً معلولاً أو مضطربا، فعليه أن يجتهد رأيه إذا كان من أهل الاجتهاد كما قال سبحانه ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (النساء: ٨٣).

الطبري بين النقل والعقل:

كان ابن جــرير الطبري يورد المأثور من الأقــوال في الآية، ويرجح بعضــها على بعض، وغالباً ما يعتمد في الترجيح على قوة السند.

وقد أنــكر على من فســر القرآن برأيه، بدون اعــتمــاد على شيء إلا على مــجرد اللغة.

ولكنا مع ذلك نعتبر ابن جرير ممن جمــع بين النقل والعقل، وإن كان تفسيره من أهم مراجع التفسير النقلي.

إلا أنه مع ذلك يعتبر مرجعاً عظيم الأهمية من مراجع التفسير العقلي نظراً لما فيه من الاستنباط وتوجيه الأقوال واختيار أولاها بالصواب.

كما يعتمد على النظر العقلي والبــحث الحر الدقيق، فهو قد احتكم إلى المعروف من كلام العرب، ورجع إلى الشعر القديم بشــكل واسع، متبعاً في هذا ما أثاره ابن عباس ونجد ذلك في تفسيره للآية ٢٢ من سورة البقرة.

كما اهتم بالمذاهب النحوية ومثال ذلك تفسيره للآية ١٨ من سورة إبراهيم.

وعنى بالأحكام الفقهية المتعلقــة بالآية ويتضح ذلك في تفسيره للآية ٨ من سورة النحل.

كما عنى بمســائل العقيدة وما يتــصل بعلم الكلام ومثال ذلك ما تجده في تفــسير الآية السابعة من ســورة الفاتحة، فيــمكن أن نعتبر تفســير الطبري من التفــاسير التي جمعت بين النقل والعقل، أو الرواية والدراية.

نماذج من تفسير الطبري:

يضع الطبري في المرتبة الأولى من التراث التفسيــري ما صحت نسبته إلى رسول الله ﷺ.

١ ـ روى الطبري عن إســماعيل بن أبي رزين قال (أتى النبي ﷺ رجــل فقال

يارسول الله أرايت قوله تعالى ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ (البقرة: ٢٢٩) فأين الثالثة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان هي الثالثة» وقد تمسك الطبري بالحديث ورفض الآراء الأخرى.

٢ ـ قال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ (التوبة: ٣) قال الطبري وأما قوله: ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ فإنه فيه اختلافاً بين أهل العلم.

فقال بعضهم هو يوم عرفه ذكر من قال ذلك..

وقال آخرون هو يوم النحر، ذكر من قال ذلك..

وقال آخرون معنى قوله: ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ حين الحج الأكبر ووقته وذلك أيام الحج كلها لا يوم بعينه، ذكر من قال ذلك.. ويختم الطبري عرضه المطول للروايات النقلية بقولة: وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصحة، قول من قال: ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ يوم النحر، لتظاهر الأخبار عن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، من الرسالة إلى المشركين، وتلا عليهم براءة يوم النحر، هذا مع الأخبار التي ذكرناها عن رسول الله ﷺ، أنه قال: يوم النحر، أتدرون أي يوم هذا؟ هذا يوم الحج الأكبر. والله ولي التوفيق.

٦- جار الله الزمخشري

هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي، إمام حنفي معتزلي، ولد في شهر رجب من سنة ٤٦٧هـ بقرية (زمخشر) وهي قرية صغيرة من قرى خوارزم، وتوفي رحمه الله ليلة عرفة سنة ٥٣٨هـ بجرجانية خوارزم بعد رجوعه من مكة، ورثاه بعضهم بأبيات من جملتها:

فأرض مكة ندى الدمع مقلتها حزنا لفرقة جار الله محمد

رحلته في طلب العلم ومؤلفاته:

قدم الزمخشري إلى بغداد، ولقي الكبار وأخذ عنهم، وسافر إلى مكة، وجاور بها زمانا حتى لقب بجار الله، واشتهر بهذا اللقب وصار كأنه علم عليه، ودخل خراسان مرارًا، وتلقى العلم على مشاهير العلماء حتى فتح الله عليه، وصار علما من أعلام الدين، وما دخل بلدًا إلا واجتمع عليه أهلها وتتلمذوا له، وما ناظر أحداً إلا سلم له واعترف به، ولقد عظم صيته وطار ذكره، حتى صار إمام عصره من غير مدافعة.

وليس عجيبًا أن يحظى الزمخشري بكل هذا، وهو الإمام الكبير، في التفسير والحديث والنحو واللغة والأدب، وصاحب التصانيف البديعة في شتى العلوم، ومن أجمل مصنفاته كتابه: «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» والمحاجاة في المسائل النحوية، والمفرد والمركب في العربية، والفائق في تفسير الحديث، وأساس البلاغة في اللغة، والمفصل في النحو، ورءوس المسائل في الفقه، وله مؤلفات أخرى كثيرة.

تأليف الكشاف:

يقول الزمخشري في مقدمة تفسيره للقرآن:

ولقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجـية العدلية، الجامعين بين علم العربية والأصـول الدينية، كلما رجعـوا إلى تفسير آية فأبرزت لـهم بعض الحقائق، أفاضـوا في الاستحسـان والتعجب، واستطيـروا شوقا إلى مـصنف يضم أطرافًا من ذلك، حتى اجـتمعـوا إلي مقتـرحين أن أملي عليهم الكشف عن حـقائق التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، فاستعفـيت فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين، وعلماء العـدل والتوحيـد. فأمليت عليـهم مسألة في الفـواتح، وطائفة من الكلام في حقائق سورة البـقرة، وكان كلامًا مبسوطًا، كثـير السؤال والجواب. فلما حططت للرحل بمكة، وهممت العزم على معـاودة جوار الله، والإناخة بحرم الله، وتخطى عمري الستين، أخذت في إتمام تفسـير القرآن الكريم، في طريقة أخصر من الأولى، مع ضـمان التكثـير من الفـوائد، والفـحص عن السرائر، وقـد تم تأليف التفسيـر في مدة سنتين ونصف، وكان يقدر تمامه في أكـثر من ثلاثين سنة، وما هي إلا آية من آيات هذا البـيت المحـرم، وبركـة أفيـضت على من بركـات هذا الحـرم المعظم، وقد فرغت من تأليفه في الثاني من ربيع الآخر سنة ٥٢٨هـ.

منزلة تفسير الكشاف:

تفسير الكشـاف من التفاسير الرائدة، في بيان وجوه الإعجـاز والنكت البلاغية، وقد برع الزمخشـري في بيان جمال النظم وجودة السبك القـرآني، وليس غيره من يستطيع أن يظهر لنا ذلك، لأن هذا يسـتلزم معرفة جمة، واطلاعًا واسعًـا على كثير من علوم البلاغة والنحـو، والبديع والإعراب والأدب. فنبوغ الزمخـشري واطلاعه الواسع، وأسلوبه العـالي، هو الذي ألبس الكشاف هذا الثـوب القشيـب، مما جعله محط أنظار المفسرين من الذين جـاءوا بعده وقد شغفوا به، حتى كـانوا بين مقتبس جذوة بلاغية، أو ملتمس نكتة أدبية، أو ناشد قـضية اعتزالية، أو متلهف إلى سماع ناحية إعرابية.

ومن الجدير بالذكر، أن نقول إن جار الله محمود الزمخشري كان مستوفيًا لجميع ما يحتاج إليه المفسر من العلوم، فلا عجب أن جـاء تفسيره جامعًا لجملة من المعاني الجليلة، محتويا على درر من الفوائد المتعددة، حتى قال الزمخشري:

إن التـفاسـيـر في الدنيا بلا عـدد | وليس فـيهـا لعمري مـثل كشـافي
إن كنت تبغى الهـدى فالزم قراءته | فالجهل كالداء والكـشاف كالشافي

قال ابن عاشور في كتابه «التفسير ورجاله»:

«.. فانفتح في هذا الوضع الجليل باب كـان مغلقًا في أوجه متعاطى التـفسير، وهو بيان الوجه البـلاغي المعجز، من كل تركيب قرآني، وجـعل ذلك الوجه ملاك المعنى المستفاد من التركيب».

اعتزال الزمخشري:

جار الله الزمخشري إمام من أئمة المعتزلة، لذلك جابه في تفسيره بعض المشاكل، حيث إن هناك آيات لا تتفق ومبدأ الاعتزال تمامًا، لذا فإنه إذا مر على آية يشتبه عليه ظاهرها، ولا تتفق ومـذهبه الاعتزالي، فـإنه يحاول بكل ما أوتي من قوة كـلامية، ومعرفة بلاغية، أن يصرفها عن هذا المعنى الظاهر، ويحاول أن يجد لها معنى آخر، موجودا في اللغة العربية ولا تأباه.

رؤية الله يوم القيامة:

يذهب أهل السنة والجماعة إلى أن السعـداء يرون الله يوم القيامة. وهذه الرؤية منزهة عن الكم والكيف والجسم والتحديد، نؤمن بها ونفوض حـقيقة المراد منها إلى الله تعالى. قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ (القيامة: ٢٢، ٢٣).

وأما المعتزلة فإنهم ينكرون الرؤية لما يترتب عليها ـ في نظرهم ـ من تحديد وجهة وتجسيم، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وإذا اعترض الزمخـشري آية تثبت رؤية الله يوم القيامة، فـأنه يؤولها على معنى مجازى يخرجها عن المعنى الظاهري الذي تفيده. فمعنى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ أن هـذه الأنفس تتـوقع وترتجـي من الله، ولا تلتـفت إلى غيره، ويؤكـد الزمخشري أن مـعنى الآية التوقع والرجاء، وأن المؤمنين لا يتـوقعون

النعمة والكرامة في ذلك اليوم إلا من ربهم، كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا أياه.

ويضرب الزمخشري بعض الأمثلة بآيات مشابهة مثل:

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ (القيامة: ١٢).

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ (القيامة: ٣٠).

﴿إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ (الشورى: ٥٣).

﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (النور: ٤٢).

ومن معاني (إلى) النعمة، وجمعها آلاء. قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي كيف تجحدان نعم الله وهي كثيرة يا معشر الجن والإنس ويكون معنى ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾: نعم ربها منتظرة، فليست إلى هنا حرف جر ولكنها اسم بمعنى نعمة.

التمثيل والتخييل:

عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر: ٢١) يقول الزمخشري: هذا تمثيل وتخييل، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه، وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن وتدبر قوارعه وزواجره.

الحواشي على تفسير الكشاف:

ألف العلماء حواشى على تفسير الزمخشري، ومنها حاشية ابن المنير على تفسير الكشاف، وكان ابن المنير يتعقب الزمخشري إذا اتجه إلى الانتصار إلى مذهبه الاعتزالي، فعندما قال الزمخشري في تفسير الآية ٢١ من سورة الحشر: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا﴾ إنها تمثيل وتخييل، رد عليه ابن المنير بقوله: «وهذا مما تقدم

إنكاري عليه فيه، أفلا كان يتـأدب بأدب الآية حيث سمى الله هذا مثلاً، ولي يقل تلك الخيالات نضربها للناس؟ ألهمنا الله حسن الأدب معه والله الموفق».

المحكم والمتشابه:

في القرآن مـحكمات، وآيات متشـابهات، والمحكم الواضح الدلالة، والمتشـابهه المحتمل لعدة معان. أو أكثر من معنى على الأقل.

وإذا صادم الـنص القرآني مـذهب الزمخـشري وعـقيـدته، فإنه يحـمل الآيات المتشابهة على الآيات المحكمة.

في الآية السابعـة من سورة آل عمران يقـول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾. ويقول الزمخشري: إن المحكمة هي التي استبـانت عبارتها، ولم يكن هناك مجال للاشتـباه والاحتمال، أما المتشابهه فـإنها تكون محتملة لعدة معان، أو أكـثر من معنى على الأقل، ويقول إن أم الكتاب هي أصله الذي يرد إليـها المتشابه، ومن الأمثلة التي يحـتج بها ويقول برد المتشـابه إلى المحكم، ويعتبر الآية التي يوافـقها مبـدؤه متشابهـة ثم يحمل هذه المتشابهة على تلك المحكمة ليعزز مبدأه ومدعاه، هذا المثال التالي:

قال الله تعـالى في سورة الأنـعام: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ (الأنعام: ١٠٣) فهذه آية محكمة عند الزمخشري.

وقال سبحانه فـي سورة القيامة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامه: ٢٢ ـ ٢٣)، فهاتان الآيتان من المتشابهة، ويجب حملهما على الآية المحكمة وهي الآية السالفة.

إلا أن هذه الآراء جملة وتفصيلاً، لم تعجب أهل السنة والجماعة، لذلك نشاهد أنهم قد حملوا عليه حملات عنيفة جدا، ولا سيما العلامة ابن المنير، السني المذهب والمشرب.

وهكذا نشاهد أن الـعلامة الزمـخشري ينتـصر لمذهبه، ويـحاول أن يدافع عنه، ويخضع الآيات في براعة فـائقة لمذهبه الاعتزالي، وذلك بلا شك يثيـر حفيظة أهل

السنة عليه، فيتناولونه في الكلام، وهو كذلك لا يترك فرصة تسنح إلا ويستغلها، ويحاول أن يشهر بأهل السنة ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

خلود المؤمن العاصي في النار:

يذهب أهل السنة إلى أن صاحب الكبيرة لا يخلد في النار أما المعتزلة فإنهم يذهبون إلى خلوده في النار. ،يستشهدون بقوله تعالى: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾ (النساء: ٩٣) وعند تفسير هذه الآية، نجد الزمخشري يأخذ لها أكبر اهتمام، ويتخذ منها مطعنا يطعن خصومه من أهل السنة، ويشدد النكير عليهم، والسبب في ذلك أنهم لا يقولون بخلود صاحب الكبيرة في النار، اللهم إلا الشرك، والزمخشري لا يقول بجواز أن الله سبحانه وتعالى سيغفر لهذا الإنسان ما قدم من الأعمال والكبائر طالما لقي الله سبحانه لا يشرك به شيئًا.

فالقاتل للنفس عند أهل السنة يجوز أن الله سبحانه وتعالى لا يخلده في النار، وقد أخذوا ذلك من قول البارئ عز وجل ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ (النساء: ١١٦) إلا أن الزمخشري يقول لا يغفر لهذا، ويستدل بما روى عن ابن عباس أنه قال: «توبة قاتل المؤمن عمدا غير مقبولة».

ومن أجل هذا الخلاف العقائدي، بين الزمخشري وأهل السنة، نشاهد أن الخصومة بينهم، وقد وصلت حدها من العنف والقوة، فكل منهم يتهم صاحبه بالزيغ والضلال والابتداع، ويجعله في مصاف الكفرة العجزة.

وهذا تطرف لا مبرر له، ومبالغة في الخصومة، ما كان ينبغي أن تصل هذا الحد.

فاختلاف الرأي لا يفسد للود قضية، ومن أصولنا المتعارف عليها: نتعاون جميعًا فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه، والمجتهد إذا أصاب فله أجران، أجر الاجتهاد وأجر الصواب، وإذا أخطأ فله أجر واحد، هو أجر الاجتهاد، وكل ميسر لما خلق له.

إعجاب الأعداء:

رغم أن الزمخشري معتزلي. إلا أن تفسير الكشاف كانت له حظوة كبيرة، في الأوساط العلمية، ونال تقدير وإعجاب الكثير حتى من أعدائه.

وليس عجيبا أن ينال تفسير الكشاف هذه الحظوة والمكانة العلمية، وذلك لأنه أول كتاب في التفسير، كشف للقارئ عن أسرار البلاغة في كتاب الله العزيز وأزاح كثيرا من الحجب عن مواطن إعجازه، كما أنه أبان دقة المعنى وخفى اللفظ، وأخرجه في ثوب قشيب، وأسلوب بديع، لا يمكن أن يكون سلس القيادة، ولا سهل المنال لغير هذا العالم الجهبذ الجليل، ولا غرو فإنه إمام اللغة، وسلطان المفسرين، والذي نراه لزاما علينا أن نسجل له الشكر والتقدير اعترافًا بالجميل، ولا يجوز لنا بدافع العصبية، وذلك لكوننا من أهل السنة والجماعة، أن نغمط الرجل حقه لكونه معتزليا، وقد سبقنا إلى هذا الرأي كثير من أفاضل العلماء، منهم الشيخ القيسي في كتابه تاريخ التفسير، والتفسير ورجاله للفاضل بن عاشور والتفسير والمفسرين للشيخ محمد الذهبي، ودراسات في التفسير للأستاذ أبو اليقظان عطية الجبوري، وجولد زيهر في كتابه مذاهب التفسير الإسلامي، كما جاء ذلك في الجزء الثاني من وفيات الأعيان، والجزء الرابع من شذرات الذهب، وفي طبقات المفسرين للسيوطي، وفي الجزء الثاني من كتاب كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون وفي مقدمة ابن خلدون.

بلاغة القرآن:

عني الزمخشري بإبراز بلاغة القرآن، والكشف عن نواحي الإعجاز والبيان، وكان يورد الكثير من الملح والنكت البلاغية في تفسيره لكثير من آيات الكتاب العزيز، وكان شديد الحرص على أن يخرج التفسير بهذا اللون الزاهي، والثوب القشيب، والحقيقة أنه وفق في ذلك إلى حد كبير، حيث إنه استطاع أن يبين جمال الأسلوب وكمال التنظيم، وكل من جاء بعد الزمخشري من المفسرين، يكاد يكون عالة عليه، في استخراج النكت البلاغية، ولايوجد تفسير أكثر منه جمالا في هذا المجال، حتى أصبح مرغوبًا ومتداولاً بين الخاصة والعامة.

الشعراوي والزمخشري:

يتجه فضيلة الأستاذ محمد متولي الشعراوي، إلى بيان إعجاز القرآن وجمال الترتيب، وحسن السبك، وجودة الأداء في الكتاب العزيز.

ويتميز الأستاذ الشعراوي بذاكرة جيدة، وإلقاء جيد مع ضبط الألفاظ، وحفظ الشعر والأدب، وقدرة على تنويع الأداء، وكثرة الحركة، والاستيلاء على المشاعر.

وهناك سمة خاصة في الأستاذ الشعراوي، هي جلال الإخلاص، وروعة التقوى، والثقة الكاملة في روعة القرآن، وجمال التشريع الإسلامي، وقدرة هذا التشريع، على حل مشاكل العالم الإسلامي المعاصر، إذا وجد اليد الحانية، والأمة المؤمنة، والقلوب المتبصرة.

والأستاذ الشعراوي مدين بالكثير لتفاسير السابقين، ومن أبرزهم الزمخشري الحافل ببيان روعة القرآن وجمال نظمه، وجودة أسلوبه، لكن تفسير الزمخشري كتاب صامت، والأستاذ الشعراوي أداء متحرك، متفاعل، يتجاوب مع الجمهور، ويؤثر ويتأثر به، ويؤكد أن الخير في هذه الأمة إلى يوم القيامة.

والله ولي التوفيق،،

٧ـ أبو عبد الله القرطبي (المالكي)

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي الأندلسي، كان عابدا زاهدًا وناسكا تقيا، تغلب على حياته الـزهد والعبادة والتوجه إلى الله، وبلغ من زهده أن طرح التكلف، وصار يمشي بثوب واحد، وعلى رأسه طاقية، وكانت أوقـاته كلها معمورة بالتوجه إلى الله، وعبادته تارة، وبالتصنيف تارة أخرى، حتى أخرج للناس كتبًا انتفعوا بها.

من مؤلفات القرطبي:

١ ـ الجامع لأحكام القرآن.

٢ ـ الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى.

٣ ـ التذكار في أفضل الأفكار.

٤ ـ التذكرة بأمور الآخرة.

٥ ـ قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة، قال ابن فرحون لم أقف على تأليف أحسن منه في بابه.

سمع القرطبي من الشيخ أبي العباس بن عمر القرطبي، مؤلف المفهم في شرح صحيح مسلم بعض هذا الشرح، وحدث عن أبي علي الحسن بن محمد البكري، وغيرهما من أشياخ عصره، وعلم كل ما نقلوه إليه من العلوم والمعارف، وقد تفرغ للعلم والتأليف، وانصرف للعبادة والزهد، والفقه والتفسير وعلوم الدين وكان مستقرا بمنية ابن خصيب، وتوفي ودفن بها سنة ٦٧١هـ.

تفسير القرطبي: (الجامع لأحكام القرآن):

جمع تفسير القرطبي أحكام القرآن حقيقة وعملا، وذلك لأنه لم يكن منشغلا بالدنيا كغيره، ولم يحش كتابه بكثير من القصص، بل كان جل همه منصبا على الأحكام الفقهية ونقل آراء الفقهاء وأدلتهم، ومناقشتها في أغلب الأحيان والرد على بعضها، وتطرق للقراءات والإعراب، والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول والرد على أهل البدع والزيغ، وقد وصف العلامة ابن فرحون تفسير القرطبي فقال: «هو من أجل التفاسير وأعظمها نفعا، أسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن، واستنباط الأدلة، وذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ».

وقال القرطبي في مقدمة التفسير: «وشرطي في هذا الكتاب: إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنفيها، فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله.

وقد عزمت أن أبين آي الأحكام، بمسائل تفسر عن معناها، وترشد الطالب إلى مقتضاها، فضمنت كل آية تتضمن حكما أو حكمين فما زاد مسائل، أبين فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول، والتفسير، والغريب، والحكم، فإن لم تتضمن حكما ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل.. وهكذا إلى آخر الكتاب، وسميته بالجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمنه من السنة وأحكام الفرقان..».

منهجه في التفسير:

عنى القرطبي في تفسيره بالرد على المعتزلة وغيرهم، وكان يكثر من الاستشهاد بأشعار العرب، وربما كان يحتكم إلى معاني اللغة في تفسيره بعض آيات كتاب الله العزيز، وكذلك كان كثير النقل عن المفسرين الذين تقدموه، وأكثر ما كان ينقل عن ابن جرير الطبري، وابن عطية، وابن العربي، وأبو بكر الجصاص وغيرهم.

وقد مدحه شيخ الإسلام ابن تيمية، وفضل تفسيره على كثير من التفاسير كما فضله على تفسير الكشاف للزمخشري، قال ابن تيمية: «وتفسير القرطبي خير من تفسير الكشاف وأقرب إلى طريقة أهل الكتاب والسنة، وأبعد عن البدع».

أما من جهة الأحكام فإن القرطبي يعرض الآراء وأدلتها، ثم يفيض في ذكر مسائل الخلاف، وكل ما تعلق منها بآيات الكتاب العزيز، ويبين جميع ما ذكر منصفا، غير متعصب، وغالبًا ما ينحاز إلى ترجيح مذهبه المالكي، وفي أحيان متعددة يرجح غير مذهب المالكية، تمشيا مع الدليل والحجة الساطعة.

ولم يكن القرطبي شديدًا على من خالفه في الرأي، أمثال ابن العربي وابن حزم، بل كان يعتب على ابن العربي، شدته وقسوته في الحكم على من يخالفه في الرأي.

والمتتبع لتفسير القرطبي يشاهد أنه يعرض الآية والآيتين والثلاث، ثم يتبعها بالشرح، ويجعل الشرح والتفسير على هيئة مسائل، قد تتجاوز الثلاثين مسألة، وأول شيء يبدأ به غالبا هو الإعراب، ثم وجوه القراءات، ولا يفوته التعرج على المعاني اللغوية، فتراه يبين معاني المفردات، ثم بعد ذلك يتطرق إلى الأحكام، ويبين آراء الفقهاء، وأحيانًا يشرح أبياتا من الشعر، أو يذكر بعض القصص، إذا رأى لها مناسبة في تفسير الآية.

قال الشيخ الدكتور محمد حسين الذهبي:

«وعلى الجملة فإن القرطبي رحمه الله في تفسيره هذا حر في بحثه، نزيه في نقده، عف في مناقشته وجدله، ملم بالتفسير من جميع نواحيه، بارع في كل فن استطرد إليه وتكلم فيه».

وتفسير القرطبي تفسير جليل القدر، عظيم الفائدة، وقد طبعته دار الكتب المصرية في عشرين مجلدًا من الحجم الكبير، ثم أعادت طبعه مرة ثانية، وكان قبل ذلك مخطوطًا، ولم يطبع إلا في النصف الثاني من القرن العشرين.

والله ولي التوفيق.

٨ـ إسماعيل بن كثير

هو عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير الدمشقي الشافعي. ولد في قرية (مجدل) من توابع بصري الشام عام ٧٠٠هـ أو ٧٠٥هـ من أسرة عريقة في العلم، فقد كان أبوه من العلماء الفقهاء، ورحل ابن كثير مع أبيه إلىٰ دمشق عام ٧٠٦هـ.

وقد بدأ ابن كثير دراسته العلمية على يد أخيه عبد الوهاب، وحفظ القرآن وعني بالقراءات والفقه والأصول والحديث، وبلغ في العلم مرتبة عالية فكان من أبرز العلماء في عصره.

وتوفي بدمشق عام ٧٧٤هـ ودفن بمقبرة شيخه ابن تيمية على وصية منه.

مؤلفاته:

ابن كثير له مؤلفات متنوعة في التفسير والفقه والحديث والتاريخ والرجال، وفيما يلي بعض تلك المؤلفات:

١ ـ تفسير القرآن.
٢ ـ البداية والنهاية في التاريخ.
٣ ـ الفصول في اختصار سيرة الرسول.
٤ ـ اختصار علوم الحديث.
٥ ـ جامع المسانيد والسنن.
٦ ـ التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل.
٧ ـ مسند الشيخين أبي بكر وعمر.
٨ ـ رسالة في الجهاد.
٩ ـ طبقات الشافعية.

١٠ ـ كتاب الأحكام.

١١ ـ كتاب المقدمات.

١٢ ـ شرح صحيح البخاري.

١٣ ـ تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب[1].

منهج ابن كثير في التفسير:

تفسير ابن كثير بالمأثور ويعتبر من أصح التفاسير بالمأثور إن لم يكن أصحها. وقد التزم ابن كثير تفسير القرآن بالقرآن ـ فما أجمل في مكان فإنه قد بسط في مكان آخر ـ فإن لم يجد قصد إلى السنة النبوية الشارحة للقرآن الموضحة له. فإن لم يجد التفسير في القرآن ولا في السنة عمد إلى أقوال الصحابة الكرام ولا سيما علماؤهم، كالخلفاء الراشدين وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم. فإن لم يجد في القرآن ولا في السنة ولا في أقوال الصحابة، رجع إلى أقوال التابعين كسعيد بن جبير ومجاهد بن جبر والحسن البصري وسعيد بن المسيب.

فإن لم يجد التفسير في ذلك رجع أخيراً إلى رأيه واجتهاده.

ومن نماذج ذلك ما نراه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ (المائدة: ٢) قال: «أي إذا فرغتم من إحرامكم وأحللتم منه فقد أبحنا لكم ما كان محرما عليكم في حال الإحرام في الصيد وهذا أمر بعد الحظر، والصحيح الذي يثبت على السير أنه يرد الحكم إلى ما كان عليه قبل النهي فإن كان واجبا رده واجبا وإن كان مستحبا رده مستحبا»[2].

طريقة ابن كثير في ترتيب الكتاب وعرض موضوعاته:

لم يسلك ابن كثير منهجًا منظمًا مرتبًا يلتزمه عند كل سورة، بل نهج نهجا متشابكًا فيما يتصل بتفسير الآيات لغة ومضمونا ونظما واستدلالا بالآثار.

---

(١) الأعلام للزركلي، عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير للمحقق أحمد شاكر.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٥.

وعلى العموم فإنه يبدأ في كل سورة ببيان فضلها ومكان نزولها، ثم بيان عدد آياتها وربما كلماتها وحروفها ونحو ذلك من الإحصاءات الطريفة التي يمتاز بها هذا السفر الجليل، حتى أنه نقل مثلا أن سورة البقرة تشتمل على ألف خبر وألف أمر وألف نهي، ولا شك أن هذا النوع من الإحصاءات يدل على جهد صادق لخدمة القرآن الكريم وإن لم يكن من صميم التفسير.

وبعد المقدمات يبدأ في تفسير السورة، كل مجموعة من الآيات على حدة أو كل آيتين حسب السياق.

وهو كما سبق يميل إلى تفسير القرآن بالقرآن، ويميل إلى عرض الأحاديث والآثار في طول زائد، وكثيراً ما يعرض لآراء المفسرين المعروفين مبينا وجهة نظرهم في الموضوع مناقشا لهم كلما وجد حاجة للمناقشة. وكان لابن جرير الطبري النصيب الأوفى من ذلك، حيث نجد ابن كثير قد اعتمد على تفسير الطبري اعتمادا واضحًا ولكنه اعتماد رجل ألمعي يستفيد ويعترض ويناقش.

ولم يعن ابن كثير ببيان إعجاز القرآن أو أسرار الترتيب والنظم بل يتميز الكشاف عليه في هذه الظاهرة.

وقد اعتنى ابن كثير بأخبار الأنبياء والمرسلين وما يتصل بهم فأورد كثيرا من قصصهم على نحو ما نجد في قصة آدم ونوح وإبراهيم وموسى ويوسف ومريم وقصص عاد وثمود ومدين ولوط، وقصص أصحاب الجنتين والكهف وذي القرنين وغيرهم.

ويبدو أن عناية ابن كثير بهذه القصص هو من ناحية ورود الآثار في شأنها وإن داخلها ركام من الإسرائيليات التي اعترف ابن كثير بوجودها في التفسير ونبه على لزوم الحذر منها.

موقفه من الأحاديث:

ابن كثير مفسر محدث، وتمكنه من صناعة الحديث جعله يقبل الأحاديث الصحيحة وينبه على غير الصحيح. وهذه ظاهرة مميزة لهذا التفسير السلفي الضخم. فالبرغم من اعتماد ابن كثير اعتمادًا كليًا على النصوص والآثار في تفسيره، لكنه لا

يوردها على علاتها بل يبين مـا فيها من صحة أو حسـن أو ضعف أو غرابة أو نحو ذلك. وهذه الظاهرة مما تميـز هذا التفسـير وتشهـد لصاحبـه بكثرة معـلوماته وتنوع معارفه وتمكنه من النقد العلمي المنهجي.

ومن نماذج ذلك ما تجده فـي تفسير ابن كثـير لسورة الإسراء فـقد أورد أحاديث الإسراء ونبه على ما في بعضها من غرابة ونكارة واضطراب[1].

وابن كثـير منهـجي في رده للحديث، حتى أنه رد حـديثا ورد في مـسند الإمام أحمد وتعجب من رواية الإمام أحمد بن حنبل له في مسنده موقوفا ومرفوعا. وهو ما روى عن أنس بـن مالك: «المولود حتـى يبلغ الحنث ما عـمل من حسنة كـتبت لوالده أو لولديه..».

وتحدث عن هذا الحديث بأنه غريب جداً وفيه نكارة شديدة[2].

وقد يترك ذكر القصة لغرابتها وطولها، أو ينبه على خطأ المفسرين بذكرها.

فعند تعليقـه على قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ (الحج: ٥٢) يقـول ابن كثيـر: قد ذكـر كثـير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق وما كان من رجوع المهاجرين من أرض الحبشة ظنا منهم أن مشـركي قريش قد أسلمـوا، ولكنها من طرق مرسلة ولم أرها مـسندة من وجه صحيح[3].

موقفه من المباحث الكلامية:

السمـة البارزة لتفسـير ابن كثـير أنه تفسيـر بالمأثور، ولم يتعرض تعـرضا ظاهرا للمبـاحث الكلامية التي شـغل بها الزمخشـري المعتزلي والفـخر الرازي السني، بل تجنب ابن كثير الخوض في مسائل العقيدة مثل مسائل القضاء والقدر، والخير والشر، والمنزلة بين المنزلتين، والتحسين والتـقبيح العقليين، ومسألة العـدل الإلهي، ومسألة

---

(١) تفسير ابن كثير، ج٣، ص٣، ٧، ١٩، ٢١.

(٢) المرجع السابق ٣/٢٠٧.

(٣) المرجع السابق ٣/٢٢٩.

إعطاء الثواب وهل يلزم إعطاؤه بالعمل كما هو رأى المعتزلة، أم يجوز أعطاؤه ولو دون عمل، أو حجبه عن العبد ولو مع العمل كما هو رأى الأشاعرة من المتكلمين. وغير ذلك من المباحث الكلامية التي حفلت بها كتب التفسير والتي وردت عن تفسير العديد من الآيات القرآنية مثل قوله تعالى: ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1] (الإسراء: ١٥).

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[2] (النحل: ٥٣).

﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ﴾[3] (الإسراء: ٩٧).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ (آل عمران: ١٢٩).

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم..﴾ (آل عمران: ١٩٥) الآية.

وقد يتعرض ابن كثير للبحوث الكلامية بصورة مجملة لينصر مذهب المحدثين وليؤيد ما تفيده الأحاديث الصحيحة.

ففي الحديث عن رؤية الله تعالى يقول القرآن: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي﴾ (الأعراف: ١٤٣).

ويقول ابن كثير: «وقد أشكل حرف (لن) ههنا على كثير من العلماء لأنها موضوعة لنفي التأبيد فاستدل به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة وهذا أضعف الأقوال لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة»[4].

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾

---

(١) المرجع السابق ١٨/٣.

(٢) المرجع السابق ٦١/٥.

(٣) المرجع السابق ٢٧٣/٥.

(٤) تفسير ابن كثير ٢٤٤/٢.

(النجم: ٨، ٩) ناقش أقوال المفسرين ورجح القول القائل بأن الذي دنا منه ﷺ هو جبريل لا الله سبحانه وتعالى[١].

وإعراض ابن كثير عن الخوض في المباحث الكلامية يتفق مع منهجه السلفي، فالقرآن سهل سمح ميسر في فهمه ولا يتوقف تفسيره وفهمه على إدخال مباحث فلسفية كلامية عند تفسير آيات معينة.

وهذه المباحث الكلامية دخيلة على تفسير القرآن ولم ترد فيما أثر عن رسول الله ﷺ وعن صحابته الأبرار. وإلا فماذا يفيد القارئ للتفسير إن كانت الصفات هي عين الذات أو هي مستقلة عن الذات.

إن المؤمن العادي يؤمن بالله ربا خالقا قادراً، ولا يمتد فكره إلى المباحث المتفرعة التي شغلت بعض المفسرين، وهي أقرب إلى الفلسفة منها إلى التفسير، حتى قال بعض الناس في تفسير الفخر الرازي: فيه كل شيء إلا التفسير.

أسباب النزول:

يعني ابن كثير بأسباب النزول، لأن تفسيره سلفي بالمأثور، وأسباب النزول توضح القصة أو الحادثة التي نزلت الآية بشأنها. ويقول الواحدي: لا يمكن فهم الآية دون الوقوف على قصتها. فأسباب النزول تبين الجو الاجتماعي وتذكر الأحداث التي سبقت نزول القرآن، وبذلك تعين على فهم الآية ومعرفة تفسيرها.

ومثال ذلك ما ذكره ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ (المائدة: ٤).

فقد روي عن سعيد بن جبير أنها نزلت بعد سؤال عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيين للرسول حين قالا: يارسول الله إن الله قد حرم الميتة، فماذا يحل لنا منها؟ فنزلت الآية[٢].

(١) المرجع السابق ٣/٣، ٢/١٣.

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢/١٥.

ومـا ذكـره في سـبب نزول قـوله تعـالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ..﴾ (المائدة: ٣٣) الآية[1].

وقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا..﴾[2] (المائدة: ٨).

وقوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾[3] (النور: ٣٣).

الأحكام الفقهية:

يتعرض ابن كثيـر في أثناء تفسيره لآراء الفقهاء في المسائل الفـرعية كلما سنحت الفرصة لذلك وقد يعقب ببيان رأيه في الموضوع. ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره في مسـألة جواز أكل الصـيد إذا قتله الكلـب بثقلة[4]، ومسألـة حد المحارب[5]، وحد السارق[6]، والقصاص في الجراح[7]، ووقت النحر بمنى[8]، ومسألة غسل القدمين في الوضوء[9].

وقد حمل على الشيعة وخطأ رأيهم في مسائل عدة من مذاهبهم مثل نكاح المتعة ومسح القدمين في الوضوء وغير ذلك.

قال بعد بيان رأي المذاهب الأربعة: «وقد خالف الروافض في ذلك بلا مستند بل بجهل وضـلال مع أنه ثابت في صحـيح مسلم من رواية أميـر المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كمـا ثبت في الصحيـحين عن النبي ﷺ، النهي عن نكاح المتعـة، وهم يستـبيـحونها، وكـذلك هذه الآية الكريمة[10] دالة على وجـوب غسل

(١) المرجع السابق ٢/ ٤٩.

(٢) المرجع السابق ٢/ ٦.

(٣) المرجع السابق ٣/ ٢٨٨.

(٤) المرجع السابق ٢/ ٨.

(٥) المرجع السابق ٢/ ٥٠ ـ ٥١.

(٦) المرجع السابق ٢/ ٥٥.

(٧) المرجع السابق ٢/ ٦٣.

(٨) المرجع السابق ٢/ ٢٣٣.

(٩) المرجع السابق ٢/ ٢٦ ـ ٢٨.

(١٠) يشير إلى الآية ٦ من سورة المائدة.

الرجلين مع ما ثبت بالتواتر من فعل رسول الله ﷺ على وفق ما دلت عليه الآية الكريمة، وهم مخالفون بذلك كله وليس له دليل صحيح في نفس الأمر»[1]. كما ناقشهم في مسألة المهدي المنتظر وأبطل رأيهم وحجتهم[2].

الإسرائيليات:

قسم ابن كثير الإسرائيليات وبين ما يباح روايته منها وما لا يباح، فما علم صدقه قبلناه، وما علم كذبه رفضناه، وما هو مسكوت عنه توقفنا فيه.

ويعتبر تفسير ابن كثير من أحسن كتب التفسير بالمأثور وإن كانت جميع كتب التفسير بالمأثور في حاجة إلى نقد علمي مدروس، لنستبعد منها كثيراً مما لا يستحق البقاء ونريح الناظرين في كتاب الله من الاتصال بركام من الروايات تحجبهم عن فهم القرآن.

أما هذه الإسرائيليات، فعلينا إزاءها واجب آخر هو جمع هذه القصص ودرسها مردودة إلى أصولها، مبينة مصادرها ليدل ذلك على مسالك التأثر والتأثير بين الأديان.

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٨.

(٢) المرجع السابق ٢/٣٢.

٩ـ محمد رشيد رضا

هو محمد رشيد، بن علي رضا، بن محمد شمس الدين، بن محمد بهاء الدين، بن منلا علي خليفة، القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب، صاحب مجلة المنار، وأحد رجال الإصلاح الإسلامي، من الكتاب، العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير، ولد ونشأ في القلمون، وهي بلدة من أعمال طرابلس الشام، سنة ١٢٨٢هـ، الموافق سنة ١٨٦٥م، وتوفي في مصر سنة ١٣٥٤هـ الموافق سنة ١٩٣٥م.

وقد زرت مدينة طرابلس لبنان، ورأيت أعمامه وأقاربه الذين تحدثوا عن نشأته بينهم في القلمون، وفي طرابلس، ورغبته في العلم والتنسك والعبادة والزهد، وقد نظم رشيد رضا الشعر في صباه، وكتب في بعض الصحف. ثم رحل إلى مصر سنة ١٣١٥هـ، فاتصل بالإمام الشيخ محمد عبده وتتلمذ عليه، وتعاونا في إصدار تفسير القرآن الحكيم، الشهير بتفسير المنار.

وأصدر الشيخ رشيد رضا مجلة المنار؛ لبث آرائه في الإصلاح الديني الاجتماعي، وأصبح مرجع الفتيا في التأليف بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة، ولما أعلن الدستور العثماني (سنة ١٣٢٦هـ) زار بلاد الشام، واعترضه في دمشق، وهو يخطب على منبر الجامع الأموي، أحد أعداء الإصلاح، فكانت فتنة، عاد على أثرها إلى مصر وأنشأ مدرسة (الدعوة والإرشاد) ثم قصد سورية في أيام الملك فيصل بن الحسين، وانتخب رئيسا للمؤتمر السوري فيها، وغادرها على أثر دخول الفرنسيين إليها (سنة ١٩٢٠م) فأقام في وطنه الثاني (مصر) مدة من الزمن، ثم رحل إلى الهند والحجاز وأوروبا، وعاد فاستقر في مصر إلى أن توفي فجأة في (سيارة) كان راجعاً بها من السويس إلى القاهرة ودفن بالقاهرة سنة ١٩٣٥م.

أشهر مؤلفاته:

١ ـ نداء الجنس اللطيف.

٢ ـ الوحي المحمدي.

٣ ـ يسر الإسلام وأصول التشريع العام.

٤ ـ الخلافة.

٥ ـ الوهابيون والحجاز.

٦ ـ محاورات المصلح والمقلد.

٧ ـ ذكرى المولد النبوي.

٨ ـ شبهات النصارى وحجج الإسلام.

٩ ـ تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (ثلاثة مجلدات).

١٠ ـ تفسير القرآن الحكيم (الشهير بتفسير المنار)، طبع منه ١٢ مجلداً، ولم يكمل تفسير القرآن بل وصل إلى الجزء الثاني عشر منه. ومات عند تفسير قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف: ١٠١).

عنوان طويل:

في صدر تفسير المنار، نجد وصفا من ستة أسطر لهذا التفسير يقول:

هذا هو التفسير الوحيد الجامع بين صحيح المأثور وصريح المعقول، الذي يبين حكم التشريع، وسنن الله في الإنسان، وكون القرآن هداية للبشر في كل زمان ومكان، ويوازن بين هدايته وما عليه المسلمون في هذا العصر، وقد أعرضوا عنها، وما كان عليه سلفهم المعتصمون بحبلها، مراعى فيه السهولة في التعبير، مجتنبا مزج الكلام باصطلاحات العلوم والفنون، بحيث يفهمه العامة، ولا يستغني عنه الخاصة.

وهذه هي الطريقة التي جرى عليها في دروسه في الأزهر حكيم الإسلام، الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، تأليف السيد محمد رشيد رضا، منشئ المنار.

بين محمد عبده ورشيد رضا:

فسر الشيخ محمد عبده سورة البقرة وآل عمران وجزءاً من سورة النساء، ثم أكمل السيد رشيد رضا تفسير المنار، لاثني عشر جزءاً من القرآن الكريم.

وكثير من الناس يلتبس عليهم الأمر، فيسندون تفسير المنار جميعه للشيخ محمد عبده.

بل أن هذا الخطأ قد وقع فيه أساتذة متخصصون من العرب، ووقع فيه أيضاً المستشرق الكبير جولد تسيهر في كتابه مذاهب التفسير الإسلامي، حيث أسند إلى الشيخ محمد عبده كلام تلميذه السيد رشيد رضا.

مقدمة المنار

قال السيد رشيد رضا في مقدمة تفسير المنار:

(كان من سوء حظ المسلمين أن أكثر ما كتب في التفسير يشغل قارئه عن مقاصد القرآن العالية وهدايته السامية، فمنها ما يشغله عن القرآن بمباحث الإعراب وقواعد النحو، ونكت المعاني ومصطلحات البيان، ومنها ما يصرف عنه بجدل المتكلمين وتخريجات الأصوليين واستنباط الفقهاء المقلدين، وتأويلات المتصوفين، وتعصب الفرق والمذاهب، بعضها على بعض، وبعضها يلفته عنه بكثرة الروايات وما مزجت به من خرافات الإسرائيليات.

فكانت الحاجة شديدة، إلى تفسير تتوجه العناية الأولى فيه إلى هداية القرآن، على الوجه الذي يتفق مع الآيات الكريمة، المنزلة في وصفه، وما أنزل لأجله من الإنذار والتبشير، والهداية والإصلاح، وهو ما ترى تفصيل الكلام عليه في المقدمة، المقتبسة من دروس شيخنا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، رحمه الله تعالى وأحسن جزاءه.

ثم إلى العناية إلى مقتضى حال هذا العصر في سهولة التعبير، ومراعاة أفهام صنوف القارئين، وكشف شبهات المشتغلين بالفلسفة والعلوم الطبيعية وغيرها..).

وإذا قرأنا المقدمة إلى نهايتها خرجنا منها بالنقاط الآتية:

١ ـ كان السيد جمال الدين الأفغاني أول من أسس النهضة الإسلامية الحديثة، وهو رجل الإصلاح الذي نفخ في هذا الشرق من روحه الفياضة، فدبت فيه الحياة، وعادت إليه ذكريات أمجاده وماضيه العريق.

٢ ـ حمل راية الإصلاح تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده، وكان إصلاحه دينيا اجتماعيا، واهتم لذلك بتفسير القرآن الكريم، وجعله أساساً لنهضته الاجتماعية، وأفكاره التربوية، للنهوض بالأمة الإسلامية.

٣ ـ كان السيد رشيد رضا صوفيا، ناشئاً بقرية القلمون بطرابلس الشام، وقرأ العروة الوثقى فتحول تصوفه السلبي إلى رغبة في الجهاد، وانتقل من رجل صالح إلى عالم مصلح، وحضر إلى مصر، ولازم الشيخ محمد عبده ملازمة التلميذ المخلص، واتخذه الشيخ أخا ورفيقا ومقرراً لدروسه.

٤ ـ خالف السيد رشيد رضا منهج إمامه وأستاذه الشيخ محمد عبده، بيد أنها مخالفة في الأسلوب والوسيلة لا في الهدف والغاية.

قال السيد رشيد رضا:

«. . هذا وإنني لما استقللت بالعمل بعد وفاته، خالفت منهجه رحمه الله تعالى، بالتوسع فيما يتعلق بالآية، من السنة الصحيحة سواء كان تفسيرا لها، أو في حكمها، وفي تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية، والمسائل الخلافية بين العلماء. . ».

وفي الإكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة، وفي بعض الاستطرادات، لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها، بما يثبتهم بهداية دينهم، في هذا العصر، أو يقوى حجتهم على خصومهم، من الكفار والمبتدعة، أو يحل بعض المشكلات التي أعيا حلها، بما يطمئن به القلب، وتسكن إليه النفس، واستحسن للقارئ أن يقرأ الفصول الاستطرادية الطويلة وحدها في غير الوقت الذي يقرأ فيه التفسير.

خصائص تفسير المنار للسيد رشيد رضا

الخاصة الأولى: التحقيق العلمي:

تميز السيد رشيد رضا بالعلم الغزير، والمعرفة المتنوعة، ويعتبر حجة في

البحوث الفقهية والتشريعية، وأصول الفقه ومعرفة رجال الحديث، وأقوال المفسرين وعلوم القرآن.

وقد كتب عنه أمير البيان شكيب أرسلان كتاباً حافلاً عنوانه (رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة).

جاء في صفحة ٢٢٥ من هذا الكتاب ما يأتي:

وكان الذي يدهش في الشيخ رشيد رضا رسوخ قدمه في مختلف العلوم، حتى إذا نظرت إليه في علم منها، وعلمت مبلغ إحاطته فيه، ظننته متخصصًا في ذلك العلم وحده، كأنه انفرد به.

والحال أن له في سائر العلوم الملكة نفسها، فكان إذا أمسك القلم تدفق نحوا وصرفا ولغة وبياناً وبديعا، وفقها وحديثاً وتفسيراً وتوحيداً وأصولاً، وكل ذلك في نسق واحد.

وهو وإن كان لا يسامى جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في العلوم العقلية، فقد سبقهما في مزية الكتابة، وفيض القلم، إذ كانا يؤثران تنبيه العقول، وإيقاظ الهمم، من طريق الخطابة والمحادثة، وكانت مجالس جمال الدين، لا يمر منها مجلس إلا كان أشبه بمحادثة تاريخية، تسجل ألفاظها وتحفظ جوامع كلمها.

وكانت مجالس محمد عبده يقدر السامع أن يكتبها بأسرها، لا يزيد منها حرفا من شدة أحكامها، وكأنما هي فصول مكتوبة يقرؤها قارئ، وكأنما هي نفثات سحر في استيلائها على الأفكار وطالما خرج السامعون منها نشاوى تترنح أعطافهم، فأما السيد رشيد رضا فانصرف بكليته إلى أعمال القلم، وصار يكتب في الساعات ما لا يقدر أن يسوده غيره في الأسابيع، حتى لو قيل إن محصول قلمه قد يتوزع على عشرة كتاب كبار، ويصيب كلا منهم نصيب وافر، لم يكن في ذلك أدنى غلو، لأن سهولة الكتابة التي كانت عند صاحب المنار، بما أوتي من اجتماع القوتين الحافظة والحاكمة، وانتظام الملتين المطبوع والمسموع، كانت آية باهرة لا يتمارى فيها إلا

حاسد أو معاند، وتفسير السيد رشيد رضا للقرآن الكريم هو وحده كاف ليخلده بين علماء هذه الأمة.

وكان للسيد رشيد رضا تحقيقات علمية بارعة، فقد ذهب الإمام محمد عبده إلى أن سورة الفاتحة أول ما نزل من القرآن على الإطلاق.

وحقق السيد رشيد رضا: أن أول ما نزل على الإطلاق هو أول سورة العلق ثم كانت سورة الفاتحة أول سورة نزلت كاملة، وأمر النبي بجعلها أول القرآن.. وانعقد على ذلك الإجماع.

وقد كان السيد رشيد رضا عالما ضليعا في حديث رسول الله ، رواية ودراية، وكان متأثراً بابن كثير في إيراد الأحاديث المتعلقة بالآية، والآيات المتصلة بها.

الخاصة الثانية: السؤال والجواب:

وقد وجد في تفسير الكشاف للزمخشري، يقول الكشاف، فإن قلت بفتح التاء قلت بضم التاء وهذا ما يسمى (الفنقلة).

ولصاحب المنار أبحاث متعددة في العبادات وأصول الفقه ويمتاز في بحوثه بالتحديد، والبعد عن التقليد، وترجيح ما يناسب حال الناس.

وكان السيد رشيد رضا يعقد في كل عدد من المنار، بابا للمراسلات (الأسئلة والأجوبة الدينية) ينشر فيه مسائل واردة من كل جوانب العالم الإسلامي، مع الجواب عليها، ليثبت نظرياته في ضوء الأحوال الواقعية الجارية، والظاهر أن جانبا كبيراً من هذه الأسئلة مصنوع، حصل إعداده على حسب الأجوبة المقصود بيانها.

وهذا فن من فنون التحرير في كل مكان، اصطنعه لنفسه أيضاً رئيس التحرير السوري المصري.

الخاصة الثالثة: التأثر بابن تيمية وابن القيم:

كان صاحب المنار من مدرسة ابن تيمية التي دعت إلى الاجتهاد، وحاربت التقليد والتعصب للمذاهب، ونقل السيد رشيد رضا في تفسير المنار فصولا كاملة،

وبحوثا منقولة من كتب ابن تيمية، وقال إن كتب ابن تيمية وابن القيم أنفع كتب الكلام، وإن هذين الشيخين هما الجديران بلقب شيخ الإسلام، وكان ابن كثير تلميذا لابن تيمية، وكثيراً ما كان صاحب المنار ينقل آراء ابن كثير في سياق الإكبار والإعجاب، خصوصاً في المتشابه من القرآن، وما تعددت فيه آراء المفسرين.

الخاصة الرابعة: التوسع والإطالة:

السيد رشيد رضا عالما ضليعا في نواحي المعرفة الإسلامية، وكان يطيل في بعض البحوث المتعلقة بالآية طولا شديداً.

لقد فسر السيد رشيد رضا ١٢ جزءاً من القرآن وقعت في (٦٠٠٠) ستة آلاف صفحة فمتوسط الجزء الواحد (٥٠٠) خمسمائة صحيفة مما جعل بحوث المنار مرجعا ممتازاً للعلماء والباحثين والمهتمين بالدين.

الخاصة الخامسة: بيان السنن الاجتماعية، وأسباب التطورات التاريخية واستنباط ذلك من القرآن الكريم:

حرص صاحب المنار على بيان أن لله سننا ونواميس كونية واجتماعية وأن هناك أسبابا للنصر والهزيمة وكان قصده من ذلك إيقاظ المسلمين ولفت أنظارهم إلى الأخذ بأسباب العمران والحضارة والتقدم.

لقد بين أن قيام الأمم ونصرها أو هزيمتها مرتهن بأعمالها وسلوكها وهذه الخاصة أبرز الخصائص والسمات التي تميز تفسير المنار وقد وضع أساس ذلك الشيخ محمد عبده، وتوسع السيد رشيد رضا في هذه الخاصة توسعا ملحوظاً يكاد يطغى على جميع الخصائص الأخرى مدفوعاً في ذلك بإرشاد إمامه، وصفاء نفسه، وكثرة مشاهداته وحالة المسلمين الراهنة، التي جعلتهم يحولون القرآن الكريم إلى تمائم وتعاويذ تجلب النصر وتدفع الضر.

ذكر الشيخ محمد عبده أنه كان في أوروبا مر على بلاد المجر وزار دار الآثار فيها فمما وجده محفوظاً في ذلك المتحف قميص الوزير «كوبريلي مصطفى باشا» وهو

آخر قائد عثماني حارب تلك البلاد وبعد قتله تقلص عنها ظل السلطنة العثمانية سنة ١١٠٢ للهجرة.

قال الشيخ محمد عبده إنه رأى ذلك القميص وقد نقشت عليه الآيات القرآنية وخاتم الإمام الغزالي، واستعاذة الجلجلوتية وأمثال ذلك من الطلاسم وغريب الخواتيم.

لقد ورث السيد رشيد رضا هذا الميراث، ونماه وبرع في عرضه ليذكر المسلمين أن للنصر أسباباً هي الإيمان بالله، وإعداد العدة، وإصلاح القلوب، وتفوق المجتمع، ورعاية أحكام الله، والتفوق العلمي والحضاري ليكون المسلم عزيزاً لا يذل، عاملاً لا يكسل، قويا لا يضعف، لأن المسلم صاحب رسالة دعوة وفكرة، ولأن القرآن يفيدنا (أن هلاك الأمم يكون بما يغلب عليها من الظلم أو الفسق أو الفجور الذي يفسد الأخلاق ويقطع روابط الاجتماع ويجعل بأس الأمة بينها شديداً فيكون ذلك سبباً اجتماعيا لسلب استقلالها وذهاب ملكها بحسب سنن الاجتماع وقد أنذرنا الله هذا في كتابه وعلى لسان رسوله)[1].

حيث يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥) ويقول عز شأنه: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٨) ويقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ (سورة الكهف: ٣٠).

---

(١) تفسير المنار ٨/ ١١٠.

تفسير سورة الأنفال

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝٥ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ۝٨ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ

عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ

وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ
وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ
يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ
﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ
وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ
نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ
هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ
﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا
أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ
صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ
عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ
الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي
جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ
سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ
وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا
فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن
شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ
إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ

فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ

مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ
مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ
بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ
اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي
الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾
وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ
بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

أولاً: الأهداف العامة لسورة الأنفال

من الأسباب المباشـرة لنزول سورة الأنفال معالجة شـئون حدثت بين المسلمين في غـزوة بدر، منهـا كراهـتهم للـخروج إلى بدر حـين دعاهم الرسـول إلى الخـروج وكراهتهم للقتال حين وصلوا إلى بدر وتحتم عليهم أن يقاتلوا.

ومنها اختلافهم بعد تمام النصر في قسمة الغنائم.

ومنها اختلاف الرأي في معاملة الأسرى أيقبلون منهم الفداء أم يقتلونهم؟

وفي جو هذه الشئون عرضت السورة لما يجب أن يكون عليه المسلمون في خاصة أنفسهم من جهـة امتثال الأمر والإخلاص والحيطـة والحذر من الأعداء، وتذكر نعم الله عليهم، والآداب التي يجب مراعـاتها أثناء القتال، وفيمـا يتصل به، ومن إعداد العدة، والمحافظة على العهود، وعلاقة بعضهم ببعض، حتى يكونوا أهلا لما وعدهم الله من النصر والتأييد وحتى يفوزوا بدرجات المغفرة والرضا عند الله.

ولا يفهم من ذلك أن كراهة القـتال كانت طابعا عاماً بل كانت رغـبة فريق قليل ونفر محدود كان يفضل الغنيمة والحصول على التجارة عن القتال، لكن بقية الجيش كان على استعداد للتضحية والفـداء وكان القرآن يوحد الهدف ويرشد الجميع إلى أن القتال أفـضل لأن فيه انتصافا للمـؤمنين وإعلاء لكلمة الله ودحرا للطغيـان وتحطيما لطواغيت الكفر وردعـا للمشركين، وقد استشار النبي المسلمـين قبل بدء المعركة هل يقدم على القتال؟ أم يعود إلى المدينة؟

فأدلى أبو بكر وعمر برأيهما، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يارسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كمـا قال بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون.

ثم قال النبي ﷺ : «أشيروا على أيها الناس» فقـام سعد بن معاذ زعيم الأنصار وقال: يارسول الله آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهـودنا ومواثيـقنا على السمع والطاعـة، فامض لما أردت فنحن مـعك فوالذي بعثك بالحق نبـيا لو استعـرضت بنا هذا البحر فخـضته لخضناه مـعك وما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصـبر في الحرب صدق في اللقاء، لعل الله أن يريك منا ما تـقر به عينك. وعندئذ أشـرق وجه الرسول بالمسـرة، وقال لأصحـابه سيروا وأبشروا فـإن الله وعدني إحدى الحسنيين العـير أو النفير وقـد فرت العير فلم يبق إلا النفير فسار المسلمون وكلهم أمل في النصر وتأييد الله.

صور من معركة بدر

نزلت سـورة الأنفال في غـزوة بدر، وهي الموقـعة الفـاصلة في تاريخ الإسـلام والمسلمين، بل في تاريخ البشرية كلها إلى يوم الدين، المـوقعة التي قدر المسلمون أن تكون غايتـها غنيمة أمـوال المشركين، وقدر رب المسلمين أن تكون فيـصلا بين الحق والباطل وأن تكون مـفرق الطريق في تاريخ الإسلام، ومن ثم تكون مـفرق الطريق في خط سير التاريخ الإنساني العام، والتي ظهرت فيها الآماد البعيدة بين تدبير البشر لأنفسهم فيما يحسبونه الخير، وتدبير رب البشر لهم ولو كرهوه في أول الأمر.

نزلت سورة الأنفـال في غزوة بدر فتضـمنت الكثير من دستـور السلم والحرب. ودستور الغنائم والأسرى. ودستور المعـاهدات والمواثيق، وتضمنت بعد ذلك الكثير من دستور النصر والهزيمة بتضمنها لأسـباب النصر والهزيمة ولواجبات المجاهدين في الإعداد والاستعداد ثم ترك الأمر بعد ذلك لله ـ وما النصر إلا من عند الله. ثم إنها تضمنت بعد ذلك مشاهد من الموقعة ومـشاهد من حركات النفوس قبل المعركة وفي ثناياها وبعدها. مشاهد حـية تعيد إلى المشاعر وقع المعركة وصـورها وسماتها، كأن القارئ يراها. وإلى جوار المعركة استطراد السياق أحياناً إلى صور من حياة الرسول ـ ﷺ ـ وحياة أصحابه في مكة، حين كانوا قليلا مستضعفين في الأرض يخافون أن يتخطفـهم الناس. وصور من حيـاة المشركين قبل هجـرة الرسول ـ ﷺ ـ من بين ظهرانيـهم ومن بعدها. وأمـثلة من مصـائر الكافرين من قـبل ـ كدأب آل فـرعون

والذين من قبلهم ـ والدأب معناه الصفة والشأن أي أن شأن الكافرين واحد في تكذيب الرسل، واستحقاق العذاب وبذلك تقرر السورة سنة الله التي لا تتخلف في نصر المؤمنين وهزيمة المكذبين.

الغنائم

لقد افتتح الله السورة بالحديث عن الأنفال، وهي الغنائم التي يغنمها المسلمون في جهادهم لإعلاء كلمة الله. وقد ثار بين أهل بدر جدال حول تقسيمها بعد النصر في المعركة فردهم الله إلى كلمته وحكمه فيها، ردهم إلى تقواه وطاعته وطاعة رسوله واستجاش فيهم وجدان التقوى والإيمان، ثم أخذ يذكرهم بما أرادوا هم لأنفسهم من الغنيمة وما أراده الله لهم من النصر، وكيف سارت المعركة وهم قلة لا عدد لهم ولا عدة وأعداؤهم كثرة في الرجال والعتاد، وكيف ثبتهم الله بمدد من الملائكة، وبالمطر يستقون منه ويثبت الأرض تحت أقدامهم فلا تسوخ في الرمال وبالنعاس يغشاهم، فيسكب عليهم السكينة والاطمئنان ويلقي الرعب في قلوب أعدائهم وينزل بهم شديد العقاب. قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ (الأنفال: ١١).

الحرب والسلام

تضمنت سورة الأنفال دراسة كاشفة وتصويرا ملموسا للمواقف الناجحة والحروب الهادفة، كما رسمت السورة ـ مع سور أخرى في القرآن الكريم ـ أسباب النصر في الميدان، ومن هذه الأسباب ما يأتي:

١ ـ إخلاص النية والرغبة في الشهادة وإيثار الآخرة على الدنيا وتحمل تبعات الحرب وآلام القتال.

٢ ـ الثبات في اللقاء وتذكر الله في العسر واليسر وعدم الفرار من الميدان وبذل النفس والنفيس في سبيل الله.

٣ ـ إعداد العدة وتجهيز أدوات القتال والتدريب عليها مع وحدة الصف وتماسك القوى وترابط المقاتلين.

٤ ـ التوكل على الله والالتجاء إليه بعد الأخذ في الأسباب وطاعة القائد وتنفيذ الأوامر والمحافظة على النظام وأخذ الحذر.

٥ ـ البعد عن التنازع والاختلاف في حال القتال وما يتعلق به فإن النزاع والخلاف من أكبر الأسباب في إذهاب القوة وتمكين الأعداء، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

أي لا تختلفوا فإن الخلاف يؤدي إلى الضعف والهزيمة وضياع القوة والدولة.

٦ ـ عدم تصديق الإشاعات والأراجيف ومصاولة اليأس والقنوط والقضاء على أساليب العدو وعلى الحرب النفسية التي يشنها رغبة في تثبيط الهمم والتيئيس من النصر.

ومن ثم يأمر الله المؤمنين في سورة الأنفال أن يثبتوا في كل قتال مهما خيل إليهم في أول الأمر من قوة أعدائهم فإن الله هو الذي يقتل وهو الذي يرمي وهو الذي يدبر، وما هم إلا أسباب ظاهرة لتنفيذ إرادة الله. ويسخر القرآن من المشركين الذين كانوا قبل الموقعة يستفتحون، فيطلبون أن تدور الدائرة على أضل الفريقين وأقطعهما للرحم فيقول:

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾.

ويحذر المسلمين أن يتشبهوا بالكفار والمنافقين الذين يسمعون بآذانهم ولكنهم لا يسمعون بقلوبهم لأنهم لا يستجيبون ولا يهتدون.

ثم تدعو السورة المسلمين إلى الاستجابة لله وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم ولو خيل إليهم أن فيه القتل والموت، وتذكرهم كيف كانوا قليلا مستضعفين يخافون أن يتخطفهم الناس فأعزهم الله ونصرهم، وأنهم إذا اتقوا الله جعل لهم فرقانا من النصر الكامل ذلك فوق تكفير السيئات وغفران الذنوب وما ينتظرهم من فضل الله الذي تتضاءل دونه المغانم والأموال.

وكما وضعت سورة الأنفـال صفحة في كتاب الإسلام عن الجهاد، فـإنها قابلتها بصفحـة أخرى عن السلم لمن يجنح إليه ويختار الهـدنة. ويتضح لنا من السورة أن السلم هو القاعدة في الإسلام، أمـا الحرب فطارئة لدفع الباطل وإقرار الحق ومن ثم يدعـو الإسـلام إلى السلم دعـوته إلى الجـهاد، ويحـافظ على الـعهـد مـا وفى به المعاهدون ويؤمن المخالفين للإسلام في العقيدة من كل اعتداء غادر ويحصر الحروب في أضيق نطاق تقضي به ضرورة تأمين السلم والحق والعدل، ويعد الناقضين للعهود من عالم الحيوان لا من عالم الإنسان.

يقول سـبحـانه وتعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنفال: ٦١).

والتعـبير عن الميل إلى السلم بالجنوح تعـبير لطيف يلقي ظل الدعة الرقـيق فهي حركـة جناح يميل إلى السلم ويرخي ريشه في وداعـة واطمئنان فإذا الجـو من حوله طمأنينة وسلام.

وهنـاك حالـة اسـتثنائيـة واحدة هي حـالة جزيرة العرب التي سيـجيء في سورة براءة نبذ عهـود المشـركين فيهـا جميعـاً وتخليصهـا من الشرك كافـة لتكون موطنا خالصا للإسلام.

صفات المؤمنين

تعرضت سورة الأنفال كبيان صفات المؤمنين كما ورد تحديد هذه الصفات في أول سورة البقرة وأول سورة المؤمنون، وفي سورة الفرقان، وفي كثير من السور.

وإذا استـوعبنا هذه الآيات وجدناها تدور حـول تحديد المؤمن ـ الذي يريده الله ـ بمن يجمع بين سلامة العقيـدة وسلامة الخلق، وصلاح العمل، وبمن يكون في ذلك كله مثالا صادقاً وصورة صحيحة لأوامر الله وإرشاداته.

وقد وصف الله المؤمنين في سورة الأنفال بخـمس صفات هي وجل القلوب عند ذكر الله، وزيادة الإيمان عند تلاوة آياته، والتوكل على الله وحـده، وإقامة الصلاة،

والإنفاق مما رزق الله. ثم بين أنهم بهذه الصفات يكونون أهل الإيمان حقا وأن لهم عند الله درجات عالية في الجنة.

فالمؤمن حقا يراقب مولاه ويرجو رحمته، ويخشى عقابه ويخشع عند تذكر آياته، وهو في خشوعه وخضوعه وعبادته مخلص القلب ثابت اليقين.

ومن صفة المؤمن زيادة ورسوخ عقيدته عند تلاوة القرآن، وتدبر آياته، ومعرفة أحكامه وأسراره كما أن إقامته للصلاة وإيتائه للزكاة، وعمله بمقتضى هذا الإيمان سلوكا وتطبيقا، مما يزين الإيمان في القلب ويزيده ثقة ويقينا.

فالصلاة في حقيقتها مناجاة ومناداة وخشوع وقراءة ودعاء ومن ثمرتها طهارة المؤمن من الفحشاء والمنكر وتهذيب الغرائز وتقويم السلوك وتربية الضمير. والزكاة فيها تكافل المجتمع وترابط الأغنياء والفقراء.

وفي سورة الأنفال حث على الإنفاق من كل ما رزق الله وهو يشمل ـ كما فصل الفقهاء ـ زكاة الأموال وزكاة الزروع والثمار وزكاة الماشية وزكاة الركاز وكل ما يستخرج من الأرض، وزكاة التجارة. ولا نكاد نجد آية عرضت للصلاة إلا وتذكر الإنفاق في سبيل الله. كما أنا لا نكاد نجد آية تعرضت لأوصاف المؤمنين وتهملهما أو تهمل أحدهما.

فقد جعل الله إقامة الصلاة مثالا لبذل النفس في سبيله وجعل الإنفاق مثالا لبذل المال في سبيله.

وبذلك يتسم الإيمان بطابع تهذيب النفس وطهارة القلب، كما يتسم بأنه دافع عملي إلى السلوك النافع والعمل الصالح الذي يؤدي إلى إصلاح المجتمع وتماسك الأمة القوية وتقوية روابط المودة والرحمة والألفة بين الناس.

نداءات إلهية للمؤمنين

أخذت سورة الأنفال تنادي المؤمنين ست مرات بوصف الإيمان في النداء الأول تأمرهم بالثبات في الميدان والشجاعة في القتال وتنهاهم عن الفرار من المعركة

وتتوعد الفار من ميدان القتال بعذاب السعير وغضب الله العلي القدير والنداء الثاني يشتمل على الأمر بطاعة الله ورسوله، وقد امتثل المسلمون لذلك الأمر فانقادوا لأحكام الله وبذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله وهذا الطريق هو طريق النصر للسابقين واللاحقين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (الأنفال: ٢٠).

والنداء الثالث - الاستجابة لله وللرسول وتغليب أمرهم على كل ما سواهما من أوامر وفي الحديث الشريف:

«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار».

النداء الرابع - دعوة إلى ترك الخيانة والبعد عن إفشاء أسرار الأمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٢٧).

النداء الخامس - دعوى إلى تقوى الله في أحكامه وسنته وبيان أن التقوى شجرة مثمرة وأعظم ثمارها النور الذي يبصر صاحبه بالحق والعدل وطريق الصلاح والهدى.

النداء السادس - يأمر بذكر الله وتلاوة كتابه وينهي عن الفرقة والتنازع والاختلاف ويحث على الصبر والتمسك بالوحدة والجماعة، حيث يقول سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأنفال: ٤٥).

ثانيًا: تفسير سورة الأنفال

سورة الأنفال، هي خمس وسبعون آية مدنية بدرية. إلا من الآية ٣٠ إلى الآية ٣٦ فمكية.

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

المفردات:

(الأنفال) :

الغنائم ومفردها نفل «بفتح الفاء» أي غنيمة لأنها من نفل الله وفضله، والنفل (بالسكون) هو الزيادة على الواجب ومنه صلاة النفل، والمراد بالأنفال هنا الغنيمة لأنها زيادة من الله للمجاهد، فالمجاهد يقاتل في سبيل الله طلبًا للثواب، وتوزع عليه الغنيمة زيادة فضل من الله تعالى.

(لله والرسول) :

هي رزق وملك لله، يأمر بتقسيمها حسب ما تقتضيه حكمته ويمتثل الرسول أمر الله في قسمتها.

(وأصلحوا ذات بينكم) :

وأصلحوا الأحوال بينكم وأزيلوا الخلاف والمباعدة بالمواساة والمودة.

(الوجل) :

الخوف والفزع، استعظاما لله وتهيبا لجلاله.

(زادتهم إيمانا) :

زادتهم يقينا وطمأنينة نفس.

(الدرجات) :

منازل الرفعة والكرامة.

سبب النزول:

كانت غزوة بدر أول معركة كبرى في الإسلام، وقد انتصر فيها المسلمون رغم قلة عددهم. ولما جاء النصر وانتهى القتال اختلف المسلمون حول تقسيم الغنائم ونصيب كل مقاتل.

روي أن الكفار عندما ما انهزموا في بدر انقسم المسلمون إلى ثلاث فرق تعقبت إحداها فلول العدو، وأحدقت الثانية برسول الله ﷺ واستولت الثالثة على الغنائم، فلما خلصوا من كل ذلك، وأرادوا قسمة الغنائم، ادعى كل فريق من الثلاثة أنه أحق بها من الآخرين.

من الأحاديث النبوية

روى أبو داود والنسائي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: من قتل قتيلا فله كذا وكذا، ومن أسر أسيرا فله كذا وكذا، فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات، وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم فقالت المشيخة للشبان إنا كنا لكم ردءا ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا، فاختصموا إلى النبي ﷺ، فنزلت: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ**﴾.

وروى أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن سعد بن أبي وقاص أنه قال:

قتل أخي عمير يوم بدر، فقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه فأعجبني

فجئت به رسول الله ﷺ ، فقلت إن الله تعالى قد شفى صدري من المشركين فهب لي هذا السيف. فقال لي عليه الصلاة والسلام: ليس هذا من حقي ولا من حقك اذهب فاطرحه في القبض، أي فيما جمع من الغنائم، فذهبت وطرحته، وبي ما لا يعلمه إلا الله، من قتل أخي وأخذ سلبي، وقلت عسى أن يعطي هذا من لم يبل بلائي، فما جاوزت إلا قليلا، حتى نزلت سورة الأنفال، فقال رسول الله ﷺ : ياسعد إنك تسألني السيف وليس لي، وقد صار لي فاذهب فخذه.

التفسير:

(يسألونك عن الأنفال) :

أي يسألونك أيها الرسول عن الأنفال لمن هي؟ أللشبان أم للشيوخ؟ أم للمهاجرين، أم لهم جميعا؟

(قل الأنفال لله والرسول) :

أي قل لهم الله يحكم فيها بحكمه، والرسول يقسمها بحسب حكم الله تعالى وقد قسمها ﷺ بالسواء.

وقد بين الله بهذا أن أمرها مفوض إلى الله ورسوله، ثم بين مصارفها وكيفية قسمتها في آية الخمس: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الأنفال: ٤١).

وقد سكتت هذه الآية عن حكم الأخماس الأربعة الباقية فأشعرت بأنها من حق الغانمين: للراجل سهم وللفارس سهمان أو ثلاثة على حسب المصلحة.

(قل الأنفال لله والرسول) :

أي الأنفال لله يحكم فيها بحكمه، وللرسول يقسمها بحسب حكم الله تعالى، وقد قسمها رسول الله ﷺ بالسواء.

أو الأنفال رزق ساقه الله لكم وفضل جاء بسبب نصر الله وقيادة رسول الله، وما كـان لكم أن تختلفـوا بشـأن الغنائم وهي نعمـة من عند الله وخـير تفـضل الله به عليكم.

(فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم) :

راقبوا الله واتركوا الخلاف بشـأن الغنائم واعملوا على إصلاح ذات البين فالصلح خيـر وسيلة لجمع الشـمل ووحدة الصف وقد أكـثر القرآن من الدعـوة إلى الوحدة ولزوم الجماعة وحذر من الفرقة والخلاف.

روي عن عبادة بن الصـامت قال: نزلت هذه الآية فينا معشـر أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل وساءت فـيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا فجعله لرسـوله قسمة بين المسلمين على السواء وكان في ذلك تقوى الله وطاعته وإصلاح ذات البين.

(وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين) :

طاعـة الله التزام أوامـره واجتناب نواهيـه، والرسول مـبلغ عنه مبين له بالـقول والفعل والحكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم كاملي الإيمان فامـتثلوا هذه الأوامر وهي تقوى الله وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله.

الآية ٢ ـ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

(أ) وجـل القلـب وهو توقـير الله وتعظيـمه والخـوف من جلاله والفـزع من وعيده ومحاسبته لخلقـه، قـال تعـالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (الحج: ٣٤، ٣٥).

(ب) زيادة الإيمان عند سمـاع آيات الله فكلما تعددت الأدلة على وجـوده تعالى زاد يقينهم وتصديقهم، واطمأنت قلوبهم وتمكن الإيمان في قلوبهم.

وإبراهيم عليه السلام كان مؤمنا بقدرة الله على إحياء الموتى ولكنه قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠).

فمقام الطمأنينة في الإيمان يزيد على ما دونه من الإيمان المطلق قوة وكمالا، ويروى أن عليا المرتضى قال: لو كشف عني الحجاب ما ازددت إلا يقينا. وفي معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾.

يقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٣).

ويقول سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ (الفتح: ٤).

(جـ) ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾:

أي يعتمدون على الله وحده ويفوضون أمورهم إليه.

والتوكل هو الاعتماد على الله تعالى مع الأخذ بالأسباب.

لأن الله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الجمعة: ١٠).

والتوكل غير التواكل. المتوكل هو الذي يزرع الزرع وينتظر من الله إنبات الثمر، هو الذي يذاكر ويجتهد ويدعو الله أن ينجح مقاصده.

أما الذي يقعد عن طلب الرزق وعن الأخذ بالأسباب فهو متواكل لا متوكل. قال عمر رضي الله عنه: «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة». ويقول الإمام أبو حامد الغزالي: «ليس من التوكل الخروج على سنة الله أصلا».

وقد كان الرسول ﷺ أشد الناس توكلا على الله ولكنه بلغ الدعوة ونصح

الأمـة وهاجر من مـكة إلى المدينة وجـاهد المشركين في غـزوة بدر وأحـد والخندق والحديبية وفتح مكة وكذلك كان أصحابه الكرام.

قال ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا».

فأثبت للطير سـعيا وحركة لتـأخذ بأسباب الرزق وتسـير مع ناموس الله في هذه الحياة من ترتيب الأسباب والمسـببات قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ (الكهف: ٨٤، ٨٥) وقال عز شأنه: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ (الفتح: ٢٣).

الآية ٣ ـ ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

(د) من صفات المؤمنين إقامة الصلاة أي أداؤها كاملة الأركان والخشوع مستكملة الشروط والآداب في تدبر لتلاوة القرآن وحضور القلب ومناجاة الله وبهذا كله تكون الصلاة صلة بين المخلوق والخالق وتنهي صاحبها عن الفحشاء والمنكر.

(هـ) ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

أي يخرجون زكاة أموالهم ويتصدقون في وجوه البر والمعروف ويؤدون زكاة النعم كالعلم والجاه والسلطان.

إذا كنت في نعـمـة فـارعـهـا ... فـــإن المـعـــاصي تـزيل الـنـعم
وداوم عليـــهــا بشـكـر الإله ... فـــإن الإلـه ســـريـع الـنـقم

الآية ٤ ـ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

أي هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الفضائـل هم المؤمنون حقا دون سواهم قد أعد الله لهم مغفـرة لذنوبهم وأجرا كريما جزاء ما اتصـفوا به من الأعمال القلبيـة والسلوكية وهي:

١ ـ وجل القلب وخشوعه عند ذكر الله.

٢ ـ زيادة الإيمان عند سماع آيات الله.

٣ ـ التوكل على الله تعالى مع الأخذ بالأسباب.

٤ ـ إقامة الصلاة كاملة الأركان في خشوع وتدبر.

٥ ـ الإنفاق بالزكاة والصدقة مما أعطاهم الله.

روى الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري رضي الله عنه أنه مر برسول الله ﷺ فقال له: «كيف أصبحت ياحارثة؟». قال: أصبحت مؤمنا حقا.

قال: انظر ماذا تقول فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ قال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلى واظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها فقال: ياحارثة عرفت فالزم (ثلاثا).

الخروج إلى بدر

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾.

المفردات:

(من بيتك):

من المدينة مهاجرك، وفيها بيتك ومسكنك.

(وإن فريقا من المؤمنين لكارهون):

وإن بعض من خرجوا معك لكارهون للقتال إما لنفور منه، أو لعدم استعدادهم له.

(يجادلونك في الحق):

يحاورونك ويراجعونك من الفزع والرعب فيما أردت من إيثار الجهاد لتنصر الحق، وهم يؤثرون العير ليأخذوا المال، ويأمنوا القتال.

(بعد ما تبين):

بعد ما ظهر لهم من الحق الذي أعلمك به الله، بأنه سينصرهم حيثما توجهوا معك.

(كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون) :

يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت، وهو يشاهد أسبابه.

(إحدى الطائفتين) :

عير قريش التي أقبلت من الشام في تجارة عظيمة، وفي أربعين راكبا، أو النفير أي الحرب والقتال والنصر.

(غير ذات الشوكة) :

الحدة والقوة، وأصلها واحدة الشوك، شبهوا بها أسنة الرماح، أي يرغبون في الاستيلاء على تجارة قريش ويكرهون الدخول في القتال واستعمال السلاح.

(أن يحق الحق): أن يظهر الإسلام.

(بكلماته): بوعده وأمره في آياته.

(ويقطع دابر الكافرين): يستأصلهم بالهلاك.

قصة بدر

هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة وتركوا أموالهم ودورهم وما يملكون وكانت هناك تجارة لأهل مكة قادمة من الشام إلى مكة عن طريق المدينة فانتدب رسول الله ﷺ أصحابه للاستيلاء على هذه التجارة مقابل ما ترك المسلمون بمكة، وقال لهم هذه عير لقريش أخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها.

فخـرج مع الرسول ﷺ ثلاثـمائة وأربعـة عشر رجـلا، وما كـانوا يظنون أن الرسول ﷺ سيلقي حربا.

ثم إن أبا سفـيان حين أحس بالخطر غيـر طريق الرحلة وسار بالتـجارة من على ساحل البحر الأحمر.

وأخبر الرسول ﷺ أصحابه بذلك، كما أخبرهم أن الله وعده إحدى الحسنيين العير أو النفير أي الاستيلاء على التجارة أو الانتصار في الحرب وقد فرت العير فلم يبق إلا النفيـر ولكن المسلمين كانوا يرجون العـير ويخافون من الحـرب لقلة عددهم ولكثرة عدد أعدائهم فقد كان عدد المسلمين ٣١٤ رجلاً وعدد الكفار قرابة الألف.

وقد أراد الله من غـزوة بدر أن تكون ملحمة ينتـصف فيهـا الحق من الباطل وأن تظل معلما في تاريخ الإسلام لانتصار القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة.

وفي غزوة بدر حدث ما يأتي:

١ ـ بدأ القتال بالمبارزة فقتل حمزة شيبة وعليا الوليد وكرا على عتبة فقتلاه ثم بدأ الهجـوم بالصفـوف وحمى الوطيس والتـحم الجيـشان، ورسـول الله ﷺ يشجع المسلمين ويقول:

والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل مقبل غير مدبر إلا وجبت له الجنة.

٢ ـ قتل من الكافرين سبعون وأسر وفر الباقون.

٣ ـ استـشار رسول الله ﷺ أصـحابه قبل المعـركة بشأن مـبدأ القتـال فتكلم المهاجرون وقالوا امض لما أمرك الله فنحن معك.

وتكلـم سعـد بـن مـعـاذ مـن الأنصار وقال يارسول الله: لا نقول لك كـما قال بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فـقاتلا إنا هاهنا قاعـدون، ولكن نقول اذهب أنت وربك فقـاتلا إنا معكما مـقاتلون، لنقـاتلن بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وشمـالك، إنا لجلد في الحرب صـبر عند اللقـاء ولعل الله أن يريك منا مـا تقر به عينك.

وسر الرسول ﷺ لمقالة سعد ورتب الجيش وأعد الرماة.

واستشار المسلمين في مكان نزول الجيش، فأشار عليه الحباب بن المنذر بقوله يارسول الله أرى أن ننزل أقرب ماء من القوم فنبنى عليه قليبا ونغور ما عداه من الآبار فنشرب والقوم لا يشربون فعمل الرسول ﷺ بمشورته.

واستشار أصحابه بشأن أسرى بدر فمنهم من أشار بقتلهم، ومنهم من أشار بقبول الفداء فأخذ برأي من رأى قبول الفداء ثم نزل وحي السماء يلومهم على قبول الفداء، وهكذا أرسى رسول الله ﷺ دعائم الشورى، وجعلها مبدأ ثابتا من دعائم الحكم في الإسلام. عملاً بقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩) وقوله سبحانه: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى: ٣٨) وفي الأثر كان ﷺ أكثر الناس مشورة لأصحابه.

تفسير الآيات: ٥-٨ من سورة الأنفال

الآية ٥ - ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾.

أي أن الأنفال لله يحكم فيها بالحق، كما أخرج الله محمداً من بيته بالحق وإن كره تقسيم الأنفال بالحق بعض المتنازعين، كما كره الخروج للقاء قريش بعض المتقاعسين عن القتال.. فكلا الأمرين حق كرهه بعضهم، وأحد الأمرين سبب والثاني نتيجة له، فليس بينهما انفصال.. أما هذا الفاصل الكلامي من تعداد صفات المؤمنين ووصف جزائهم - فهو سبب الخروج والنصر كليهما، ومن ثم حسن ذكره بينهما.

الآية ٦ - ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾.

وهم يجادلونك ويحاورونك في تلقي نفير قريش، ويفضلون عليه تلقي العير، ويقولون ما كان خروجنا إلا للعير، ولم يكن للنفير لأننا لسنا مستعدين، يجادلونك في القتال بعد ما تبين لهم أنه الحق، وأن الله وعدهم: إما أن يكون لهم العير وإما النفير في القتال، وقد مضت العير فلم يبق إلا القتال.

فلو كانت العـير هي المرادة مـا نجت، ولأن الظفر بقريش لـم يكن موضع شك عندهم بعد نجاة العير فقد تبين أنها هي الطائفة التي وعدوها ولو لم يستعدوا للقائها ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾.

أي كأنهم لشدة ما هم فـيه من جزع ورهب يساقون إلى موت مـحقق لا مهرب منه، لوجود أماراته وأسبابه.

«وإنما صعب على فـريق من المؤمنين لقاء قريش لما كان بين الفـريقين من تفاوت كبـير فـي العدد والعـدة والخيل والزاد، فـبدا هؤلاء المؤمنون في خـوفهم الشـديد كالمحكوم عليه بالإعـدام، وهم يساقون إلى المشانق التي يرونها بأبصـارهم على قيد خطوات منهم تنتظر رقابهم»[1].

الآية ٧ ـ ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾.

واذكروا أيهـا المؤمنون وقت أن وعدكم الله أن إحدى الطائفـتين: إما العيـر وإما النفير، تكون لكم، تتسلطون عليهـا تسلط الملاك على ما يملكون، وتسخر لإرادتكم كما تشاءون.

وأنتـم تتمنـون أن الطائفـة غير ذات الشـوكة (وهي العيـر) تكون لكم، لأنه لم يكن فيها إلا أربعـون فـارسـا، وعبر عنها بذلك تعريضاً لكراهتهم للقـتال وطمعهم في المال.

﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أي إرادة الله أن يظهر الإسلام ويعلى كلمة الدين ويستأصل شأفة المشركين.

﴿ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي ويهلك المعانديـن جملة، ويمحق قوتهم وقـد كان الظفر ببدر فاتحة الظفر فيما بعدها إلى أن قطع الله دابر المشركين بفتح مكة.

قال الزمخشري في تفسير الكشاف:

---

(١) د. مصطفى زيد. سورة الأنفال عرض وتفسير ص ٦١.

«يعني أنكم تريدون الفائدة العاجلة وسفساف الأمور وألا تلقوا ما يرزؤكم في أبدانكم وأموالكم، والله عز وجل يريد معالي الأمور وما يرجع إلى عمارة الدين ونصرة الحق وعلو الكلمة والفوز في الدارين وشتان بين المرادين ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة وكسر قوتهم بضعفكم، وغلب كثرتهم بقلتكم، وأعزكم وأذلهم».

الآية ٨ - ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾.

أراد الله ذلك لكم ليحق الحق، ويثبت الإسلام، ويظهره ويبطل الباطل ويمحق الشرك ويدحضه، على رغم المشركين «ولا يكون ذلك بالاستيلاء على العير، بل بقتل أئمة الكفر من صناديد قريش الذين خرجوا إليكم من مكة ليستأصلوكم»[1].

عون الملائكة:

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾.

(تستغيثون ربكم):

تطلبون منه الغوث والنصر.

(ممدكم):

ناصركم ومغيثكم.

---

(١) تفسير المراغي جزء ٩ ص ١٧١.

(مردفين) :

متتابعين فريقا بعد فريق، من أردفه إذا أركبه وراءه.

(تطمئن) :

تسكن بعد ذلك الزلزال والخوف الذي عرض لكم في جملتكم.

(يغشيكم النعاس):

يجعله غاشيا لكم ومحيطا بكم.

(أمنة منه):

فتنعسون أمنا واطمئنانا من الله لا إعياء وكلالا.

(رجز الشيطان):

وسوسته وتخويفه لكم من العطش.

(وليربط على قلوبكم):

يثبتها ويوطنها على الصبر.

(ويثبت به الأقدام):

يجعلها ثابتة فلا تسوخ في الرمال، ولا تزل في معارك الحروب.

(إني معكم):

إني معينكم، وموفقكم في تثبيت المؤمنين وتقويتهم.

(فثبتوا الذين آمنوا):

احملوهم على الثبات في مواطن الحروب، برفع روحهم المعنوية وتقوية يقينهم بنصر الله لهم.

(الرعب):

الخوف الذي يملأ القلب.

(فوق الأعناق):

أي الرءوس.

(البنـــان):

أطراف الأصابع اليدين والرجلين.

(شاقوا):

وعادوا وخالفوا، وسميت العداوة مشاقة لأن كلا من المتعادين يكون في شق غير الذي يكون في الآخر.

تمهيد:

كانت معركة بدر أول معركة للإسلام وكان عدد المسلمين قليلا (٣١٤) وعدد الكفار قرابة الألف. وهنا لجأ النبي ﷺ إلى دعاء الله والاستغاثة به واقتدى به المسلمون في الدعاء فأنزل الله ملائكة السماء تؤيد المؤمنين وتلقي الرعب في قلوب المشركين.

من الحديث الشريف:

١ ـ روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثة مائة رجل وبضعة عشر رجلا ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف أو يزيدون، فاستقبل نبي الله القبلة ثم مد يده وجعل يهتف بربه: «اللهم انجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض». فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبلا القبلة حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يانبي الله، كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ فلما كان يومئذ والتقوا هزم الله المشركين فقتل منهم سبعون رجلا وأسر سبعون.

٢ ـ روى البخاري عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد» فأخذ أبو بكر بيده فقال حسبك، فخرج وهو يقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر».

التفسير:

الآية ٩ ـ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ[1] رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ واذكروا أيها المؤمنون وقت استغاثتكم ربكم قائلين ربنا انصرنا على عدوك، ياغياث المستغيثين أغثنا.

واذكروا يوم وقوف نبيكم، وقد مد يديه إلى السماء يدعو الله أن يقويه ويكتب لكم النصر فاستجاب له ووهب لكم من الضعف قوة ومن الخوف أمنا، وقال لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بأني سأمدكم وأعينكم بألف من الملائكة مردفين، يتتابعون فريقا بعد فريق، ويجيئون ألفا بعد ألف، يقفون من أمامكم ومن خلفكم يقاتلون معكم ويشدون أزركم.

الآية ١٠ ـ ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وما جعل الله إمدادكم عيانا بالملائكة، ومشاهدتكم إياهم في صفوف القتال في صورة الأبطال، إلا استباقا لكم بالبشرى بأنكم ستغلبون وتنصرون ولتسكن إلى هذا المدد نفوسكم ولتطمئن به قلوبكم، ولكن النصر في الحقيقة من عند الله وحده، من غير أن يكون لأي سبب من الأسباب، أو عدد من الأعداد دخل فيه، وإن كانت السنة الإلهية قد جرت على أن تكون العدة والسلاح والجيش والقوة هي الوسائل الظاهرة للظفر والنصر، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ (الأنفال: ٦٠). ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي أنه تعالى غالب على أمره حكيم لا يضع شيئاً في غير موضعه.

---

(١) ذكر النحاة في ناصب إذ وجوها كثيرة، أظهرها أنه بدل من (وإذ يعدكم) أو منصوب باذكروا محذوفا.

وهناك روايات في كتب التفسير تفيد أن الملائكة باشروا القتال مع المؤمنين.

نجد هذا في معالم التنزيل للبغوي، ولباب التأويل للخازن والكشاف للزمخشري، والتفسير الكبير للفخر الرازي وظاهر الآية يفيد أن إنزال الملائكة وإمداد المسلمين بهم كان لتثبيت القلوب ورفع الروح المعنوية.

قال ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ومعناه: (قووا عزمهم، وصححوا نياتهم في قتال عدوهم من المشركين)[1].

وقد أنكر أبو بكر الأصم قتال الملائكة ثم قال: «إن الملك الواحد يكفي في إهلاك أهل الأرض كما فعل جبريل بمدائن قوم لوط، فإذا حضر هو يوم بدر فأي حاجة إلى مقاتلة الناس مع الكفار؟

بل أي حاجة حينئذ إلى إرسال الملائكة؟ وأيضاً فإن الكفار كانوا مشهودين، وقاتل كل منهم من الصحابة معلوم.. إلخ»[2].

وإذا تأملنا آيات القرآن وجدنا أنها تفيد أن الله أمد المؤمنين بالملائكة، ونحن نؤمن بهذا ونكتفي بأن الملائكة ساعدت المؤمنين نوعا من المساعدة سواء أكان ذلك بالقتال أم بتثبيت القلوب وإلقاء الحماس والشجاعة ورفع الروح المعنوية وهي أمور لا تقل عن القتال المباشر.

فقد ثبت في الحروب الحديثة أن للروح المعنوية أبلغ الأثر في إحراز النصر.

الآية ١١ ـ ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾.

في ليلة المعركة اشتد الخوف بالمسلمين، لقلة عددهم، وكثرة عدوهم فأرسل الله النوم عليهم فغشيهم جميعا ومن شأن هذه الغشية أن تهدأ فيها الأعصاب وأن يسكن الخوف.

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري ٩/ ١٢٤.

(٢) تفسير المنار ٤/ ١١٣ نقلا عن الرازي والنيسابوري.

واستغـرق بعضهم في النوم حتى أصـبح جنبا فجأ الشيطان يوسـوس للمسلمين ويقول لهم:

تزعمـون أنكم أحبـاب الله وأولياؤه، وستـدخلون المعركـة وعليكم الجنابة، ولا تجدون ماء تتطهرون به.

فأمر الله السـماء فأمطرت، فـاغتسل المسلمون من الماء وشـربوا وتلبدت الأرض تحت أقدامهم وصار الماء نعمة على المسلمين بينما كان نقمة على المشركين، وجاء في تفسير المراغي ما يأتي:

وقد فهم من الآية أنه كان لهذا المطر أربع فوائد:

١ ـ تطهيـرهم حسـيا بالنظافة التـي تنشط الأعضاء وتدخل السـرور على النفس وشرعيا بالغسل من الجنابة والوضوء من الحدث الأصغر.

٢ ـ إذهاب رجس الشيطان ووسوسته.

٣ ـ الربط على القلوب: أي توطين النفس على الصبر وتثبيـتها كما قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ (القصص: ١٠) وهذا لما للمطر من المنافع التي تكون أثناء القتال.

٤ ـ تثبيت الأقـدام به، ذاك أن هذا المطر لبد الرمل وصيره بحيث لا تغـوص فيه أرجلهم فقدروا على المشي كيف أرادوا، ولولاه لما قدروا على ذلك.

هل غشيهم النوم ليلا أو نهارا؟

قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾.

أي امتن الله على المؤمنين بالنوم ليلة المعركة.

١ ـ يقول الشيخ محمد عـبده: «لقد مضت سنة الله في الخلق بأن من يتوقع في صبيحـة ليلته هولاً كبيرا، ومصابا عظيـما، فإنه يتجافى جنبه عن مـضجعه، ويبت بليلة الملسوع، فيصبح خاملا ضعيفا، وقد كان المؤمنون يوم بدر يتوقعون مثل ذلك،

إذ بلغهم أن جيشا يزيد على عددهم ثلاثة أضعاف سيحاربهم غدا، وهو أشد منهم قوة وأعظم عدة، فكان من مقتضى العادة أن يناموا على بساط الأرق والسهاد، يضربون أخماسا لأسداس، ويفكرون بما سيلاقون في غدهم من الشدة والبأس، ولكن الله رحمهم بما أنزل عليهم من النعاس: غشيهم فناموا، واثقين بالله تعالى، مطمئنين لوعده وأصبحوا على همة ونشاط، في لقاء عدوهم وعدوه، فالنعاس لم يكن يوم بدر في وقت الحرب بل قبلها.. ومثله المطر الذي أنزل عليهم عند شدة حاجتهم إليه»[1].

٢ ـ ويقول الفخر الرازي في تفسيره الكبير:

«لم يكن نوما غرقا يتمكن العدو منهم أثناءه بل كان نعاسا يحصل لهم زوال الإعياء والكلال، مع أنهم كانوا بحيث لو قصدهم العدو لعرفوا وصوله لقدروا على دفعه.. ثم أنه غشيهم دفعة واحدة مع كثرتهم، وحصول النعاس للجمع العظيم في الخوف الشديد أمر خارق للعادة، ومن هنا قيل إن ذلك النعاس كان في حكم المعجز».

وذهب بعض المفسرين إلى أن النعاس كان في أثناء القتال وهذا النعاس يمنع الخوف لأنه ضرب من الذهول والغفلة عن الخطر.

روى ابن جرير الطبري عن عبد الله بن عباس: «النعاس في القتال أمنة من الله عز وجل، وفي الصلاة من الشيطان».

ورجح بعض المفسرين أن النعاس كان ليلا في ليلة المعركة إذ لا يعقل أن يكون النعاس قد وقع أثناء القتال والمؤمنون يضربون الأعداء ويتلقون بدروعهم ضربات سيوفهم.

ومفهوم الآية لا يمنع حدوث النعاس ليلة المعركة، أو في أثناء القتال فهو نعمة من الله يشمل به المقاتل لحظة من اللحظات تهدأ فيها نفسه ويطمئن قلبه وتستعيد جوارحه نشاطها وقوتها.

---

(١) تفسير المنار ٤/ ١٨٥، ١٨٦.

الآية ١٢ ـ ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾.

اذكر يا محمد إذ أوحى ربك إلى الملائكة، أن اقتلوا وقاتلوا وإني معكم معينكم وموفقكم في تثبيت المؤمنين وتقويتهم، فسأقذف الرعب في قلوب المشركين وسأجعل ضرباتكم مسددة إليهم فاضربوهم حيث لقيتموهم، فإذا كان الضرب فوق الأعناق شل تفكيرهم وقطع عنقهم وإذا كان الضرب على الأيدي والأصابع شل حركتهم.

والآية تستعرض صورة من صورة الفضل والإمداد للمؤمنين حيث يأمر الله الملائكة أن تنزل من السماء لتثبيت المؤمنين وحيث يلقي سبحانه الرعب في قلوب الكافرين فتصبح قلوبهم هواء وأفئدتهم هباء ويطيرون من شدة الهلع والجزع. ثم يرشد الملائكة والمؤمنين إلى مكان الضرب القاتل والموجع وهو الضرب في أعلا العنق حيث يموت المقتول. والضرب فوق الأصابع حيث تضعف حركة المقاتل أو تشل.

الآية ١٣ ـ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

أي ذلك الذي ذكر من تأييد الله للمؤمنين وخذلانه للمشركين بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله، أي عادوهما فكان كل منهما في شق غير الذي فيه الآخر.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

أي ومن يخالف أمر الله ورسوله فهو يعاقبه، فلا أجدر بالعقاب من المشاقين لأنهم الذين يؤثرون الشرك وعبادة الطاغوت على توحيده تعالى وعبادته.

الآية ١٤ ـ ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾.

أي هذا العقاب الذي عجلت لكم أيها الكافرون المشاقون لله ورسوله في الدنيا من انكسار وانهزام مع الخزي والذل أمام فئة قليلة العدد والعدة من المسلمين فذوقوه

عاجلاً واعلموا أن لكم في الآخرة عذاب النار إن أصررتم على كفركم وهو شر العذابين وأبقاهما.

الثبـــات:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾.

المفردات:

(الزحف) :

من زحف إذا مشى على بطنه كالحية، أو دب على مقعده كالصبي، أو على ركبتيه، أو مشى يثقل في الحركة واتصال وتقارب في الخطو كزحف صغار الجراد والعسكر المتوجه إلى العدو، لأنه لكثرته وتكاثفه يرى كأنه يزحف، إذ الكل يرى كجسم واحد متصل فتحس حركته بطيئة وإن كانت في الواقع سريعة.

(الأدبار):

واحدها دبر وهو الخلف ومقابله القبل ومن ثم يكنى بهما عن السوأتين، وتولية الدبر والأدبار يراد بهما الهزيمة لأن المنهزم يجعل خصمه متوجها إلى دبره ومؤخره.

(المتحرف للقتال وغيره):

هو المنحرف على جانب إلى آخر، من الحرف وهو الطرف.

(الفئـــة) :

الطائفة من الناس.

(المــأوى) :

الملجأ الذي يأوى إليه الإنسان.

(الموهــن):

المضعف من أوهنه إذا أضعفه.

(الكيــد):

التدبير الذي يقصد به غير ظاهره فتسوء عاقبة من يقصد به.

(الاستفتاح):

طلب الفتح والفصل في الأمر كالنصر في الحرب.

تمهيــد :

ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآيات حكما عاماً لما سيقع من الوقائع والحروب في مستأنف الزمان وجاء به في أثناء قصة بدر عناية بشأنه وحثا للمؤمنين على المحافظة عليه.

التفسير:

الآية ١٥ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا﴾ .

أي يأيها الذين صدقوا الله ورسوله إذا لقيتم الذين كفروا حال كونهم زاحفين لقتالكم زحفا، إذ الكفار هم الذين زحفوا من مكة إلى المدينة لقتال المؤمنين فقابلوهم ببدر.

﴿فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾ أي تولوهم ظهوركم وأقفيتكم منهزمين منهم وإن كانوا أكثر منكم عددا وعدة ولكن اثبتوا لهم، فإن الله معكم عليهم.

الآية ١٦ ـ ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ .

أي ومن يولهم حين تلقونهم ظهره إلا متحرفـا لمكان رآه أحوج إلى القتال فيه أو لضرب من ضروبه رآه أنكى بالعـدو، كأن يوهم خصمه أنه منهزم منه لغـريه باتباعه حتى إذا انفرد عن أنصاره كر عليه فقتله - أو متنقلا إلى فئة من المؤمنين في جهة غير التي كان فيهـا ليشد أزرهـم وينصرهم على عدو تكاثر جمعه علـيهم فصاروا أحوج إليه ممن كان مـعهم - من فعل ذلك فقـد رجع متلبسا بغـضب عظيم من الله ومأواه الذي يلجأ إليه في الآخرة جهنم دار العقاب وبئس المصير.

ذلك أن المنهزم أراد أن يأوى إلى مكان يأمن فيـه الهلاك، فعوقب بجعل عـاقبته دار الهلاك والعذاب الدائم وجوزى بضد غرضه.

وفي الآية دلالة على أن الفرار من الزحف من كـبائر المعاصي، وجاء الـتصريح بذلك في صحيـح الأحاديث فقد روى الشيـخان عن أبي هريرة مرفوعـاً: «اجتنبوا السبع الموبقات (المهلكات) قالوا يارسول الله ومـا هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النـفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مـال اليتيم، والـتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

وقـد خـصص بعض العلمـاء هذا بمـا إذا كان الـكفـار لا يزيدون على ضـعف المؤمنين، قال الشـافعي: إذا غزا المسلمون فلقـوا ضعفهم من العدو حـرم عليهم أن يولوا إلا متحرفين لقتال أو متحيزين إلى فئة، وإن كان المشركون أكثر من ضعفهم لم أحب لهم أن يولوا، ولا يستـوجبون السخط عندي من الله لو ولوا عنهم عـلى غير التحرف للقتال أو التحيـز إلى فئة. وروى عن ابن عباس قال: من فر من ثلاثة فلم يفر، ومن فر من اثنين فقد فر.

الآية ١٧ - ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾.

أي يأيهـا الذين آمنوا لا تولوا الكفـار ظهـوركم أبدا فـأنتم أولى منهم بالـثبـات والصبر ثم بنصـر الله تعالى، انظروا إلى ما أوتيتم من نصر عـليهم على قلة عددكم وعدتكم وكثرتهم واستعـدادهم، ولم يكن ذلك إلا بتأييد من الله تعالى لكم وربطه على قلوبكم وتثـبيت أقـدامكم، فلم تقـتلوهم ذلك القتل الذي أفنى كـثيـراً منهم

بقوتكم وعدتكم ولكن قتلهم بأيديكم، بما كان من تثبيت قلوبكم بمخالطة الملائكة وملابستها لأرواحكم، وبإلقائه الرعب في قلوبهم، وهذا بعينه هو ما جاء في قول تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: ١٤).

ثم انتقل من خطاب المؤمنين الذين قتلوا أولئك الصناديد بسيوفهم إلى خطاب الرسول ﷺ، وهو قائدهم الأعظم فقال:

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ أي وما رميت أيها الرسول أحدا من المشركين في الوقت الذي رميت فيه القبضة من التراب بإلقائها في الهواء فأصبت وجوههم ما فعلته لا يكون له من التأثير مثل ما حدث، ولكن الله رمي وجوههم كلهم بذلك التراب الذي ألقيته في الهواء على قلته أو بعد تكثيره بمحض قدرته.

فقد روى «أن النبي ﷺ رمي المشركين يومئذ بقبضة من التراب وقال: شاهت الوجوه ثلاثاً، فأعقبت رميته هزيمتهم».

وروى على بن أبي طلحة عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما قال في استغاثته يوم بدر: «يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً» قال له جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها وجوههم، ففعل، فما من أحد من المشركين إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين.

﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ أي فعل الله ما ذكر لإقامته حجته وتأييد رسوله، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا بالنصر والغنيمة وحسن السمعة.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي أنه تعالى سميع لما كان من استغاثة الرسول والمؤمنين ربهم ودعائهم إياه وحده ولكل نداء وكلام، عليم بنياتهم الباعثة عليه والعواقب التي تترتب عليه.

الآية ١٨ ـ ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾.

أي ذلكم البلاء الحسن هو الذي سمعتم ـ إلى أنه تعالى مضعف كيد الكافرين

ومكرهم بالنبي ﷺ والمؤمنين ومحاولتهم القضاء على دعوة التوحيد والإصلاح قبل أن يقوى أمرها وتشتد.

وبعد أن ذكر خذلانهم وإضعاف كيدهم انتقل منه إلى توبيخهم على استنصارهم إياه على رسوله ﷺ وقد روى محمد بن إسحاق عن الزهري أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أينا كان أقطع للرحم، وآتى بما لا يعرف فاحنه الغداة فكان ذلك منه استفتاحا. وقال السدي: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين، فأجابهم الله بقوله:

الآية ١٩ - ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾.

أي إن تستنصروا لأعلى الجندين وأهداهما فقد جاءكم الفتح ونصر أعلاهما وأهداهما.

وهذا من قبيل التهكم بهم، لأنه قد جاءهم الهلاك والذلة.

﴿وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي وإن تنتهوا عن عداوة النبي ﷺ وقتاله فالانتهاء خير لكم، لأنكم قد ذقتم من الحرب ما ذقتم من قتل وأسر بسبب ذلك العدوان.

﴿وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ﴾ أي وإن تعودوا إلى حربه وقتاله نعد إلى مثل ما رأيتم من الفتح له عليكم حتى يجيء الفتح الأعظم الذي به تدول الدولة للمؤمنين عليكم وبه يذل شرككم وتذهب ريحكم.

﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي ولن يدفع عنكم رهطكم شيئاً من بأس الله وشديد نقمته ولو كثرت عددا، إذ لا تكون الكثرة وسيلة من وسائل النصر أمام القلة إلا إذا تساوت معها في أمور كثيرة كالصبر والثبات والثقة بالله تعالى، فهو الذي بيده النصر والقوة.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بمعونته وتوفيقه فلا تضرهم قلتهم ولا كثرة عددكم، فهو يؤتي النصر من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

الطاعة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

تمهيد:

بعد أن هدد الله المشركين بقوله: وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ـ قفى على ذلك بتأديب المؤمنين بالأمر بطاعة الرسول وإجابة دعوته إذا دعا للقتال في سبيل حياطة الدين وصد من يمنع نشره ويقف في طريق تبليغ دعوته.

التفسير:

الآية ٢٠ ـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾.

أي أطيعوا الله ورسوله في الإجابة إلى الجهاد وترك المال إذا أمر الله بتركه، ولا تعرضوا عن طاعته، وعن قبول قوله، وعن معونته في الجهاد وأنتم تسمعون كلامه الداعي إلى وجوب طاعته وموالاته ونصره، ولا شك أن المراد بالسماع هنا سماع الفهم والتصديق بما يسمع، كما هو شأن المؤمنين الذين من دأبهم أن يقولوا: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

الآية ٢١ ـ ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴾.

وهؤلاء القائلون فريقان: فريق الكفار المعاندين، وفريق المنافقين الذين قال في بعض منهم ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾ (محمد: ١٦).

الآية ٢٢ ـ ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴾.

الدواب واحدها دابة أو هي كل مادب على الأرض كما قال: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ

دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ (النور: ٤٥) وقل أن يستعمل في الإنسـان بل الغالب أن يستعمل في الحشرات ودواب الركوب، فـإذا استعمل فيه كان ذلك في مـوضع الاحتقار، أي أن شر ما دب على الأرض في حكم الله وقضائه هم الصم الذين لا يصغون بأسماعهم ليعرفوا الحق ويعتبروا بالموعظة الحسنة، فهم بفـقدهم لمنفعة السمع كانوا كأنهم فقدوا حاسته، البكم الذين لا يقولون الحق، ومن ثـم كانوا كأنهم فقدوا النطق، الذين لا يعقلون الفرق بين الحق والباطل والخيـر والشر، إذ هم لو عقلوا لطلبوه واهتدوا إلى ما فيه المنفعـة والفائدة لهم كما قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق: ٣٧).

والخلاصة ـ أنهم حين فقدوا منفعة السمع والنطق والعقل كانوا كأنهم فقدوا هذه المشاعـر والقوى، بأن خلقوا خـداجا ناقصـى هذه المشاعر، أو طرأت عليـهم آفات أذهبت هذه القوى بل هم شر منهم، لأن هذه المشاعر خلقت لهم فأفسدوها، إذ لم يستعملوها فيما خلقت لأجله حين التكيف.

الآية ٢٣ ـ ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾.

أي ولو علم الله فيهم استعدادا للإيمان والهداية بنور النبوة ولم يفسد قبس الفطرة سوء القدرة وفساد التـربية، لأسمعهم بتوفيقه الكتـاب والحكمة سماع تدبر وتفهم، ولكنه قد علم أنه لا خير فيهم ممن ختم الله على قلوبهم وأحاطت بهم خطاياهم.

﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي ولو أسمعهم ـ وقـد علم أنه لا خير فيهم ـ لتولوا عن الـقبول والإذعان وهم معرضون من قـبل ذلك بقلوبهم عن قبوله والعمل به كراهة وعنادا للداعي إليه فقد فقدوا الاستعداد لقبول الحق والخير فقدا تاما لا فقدا عارضا موقوتا.

والخلاصة ـ إن للسماع درجات باعتبار ما يطالب الله به من الاهتداء بكتابه:

١ ـ أن يتعمد من يتلى عليه ألا يسمعه مبارزة له بالعدوان بادئ ذي بدء خوفا من سلطانه على القلوب أن يغلبهم.

٢ ـ أن يستمع وهو لا ينوي أن يفهم ويتدبر كالمنافقين الذين قال الله فيهم:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾ (محمد: ١٦).

٣ ـ أن يستمع لأجل التماس شبهة للطعن والاعتراض، كما كان يفعل المعاندون من المشركين وأهل الكتاب وقت التنزيل وفي كل حين إذا استمعوا إلى القرآن أو نظروا فيه.

٤ ـ أن يسمع ليفهم ويتدبر ثم يحكم له أو عليه، وهذا هو المنصف، وكم من السامعين أو القارئين آمن بعد أن نظر وتأمل، فقد نظر طبيب فرنسي في ترجمة القرآن فرأى أن كل النظريات الطبية التي فيه كالطهارة والاعتدال في المآكل والمشارب وعدم الإسراف فيهما ونحو ذلك من المسائل التي فيها محافظة على الصحة ـ توافق أحدث النظريات التي استقر عليها رأى الأطباء في هذا العصر ـ فرغب في هذا كله وأسلم، ورأى ربان بارجة إنكليزية ترجمة للقرآن واستقصى كل ما فيها من الكلام عن البحار والرياح فظن أن النبي ﷺ كان من كبار الملاحين في البحار، وبعد أن سأل عن ذلك وعرف أنه لم يركب البحر قط، وهو مع ذلك أمي لم يقرأ كتابا ولا تلقى عن أحد درسا قال: الآن علمت أنه كان يوحي من الله لأن فيه حقائق لا يعلمها إلا من اختبر البحار بنفسه، أو تلقاها عن غيره من المختبرين، ثم أسلم وتعلم العربية.

وكثير من المسلمين يستمعون القراء ويتلون القرآن فلا يشعرون بأنهم في حاجة إلى فهمه وتدبر معناه، بل يستمعونه للتلذذ بتجويده وتوقيع التلاوة على قواعد النغم، أو يقصدون بسماعه التبرك فقط، ومنهم من يحضر الحفاظ عنده في ليالي رمضان، ويجلسهم في حجرة البوابين أو غيرهم من الخدم تشبها بالأكابر والوجهاء.

تربية إلهية

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا

منكُمْ خاصَّةً واعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

المفردات:

(استجيبوا لله وللرسول) :

أجيبوه بكمال الطاعة.

(إذا دعاكم لما يحييكم) :

إذا حثكم على الطاعة، والجهاد الذي فيه حياتكم وسعادتكم.

(يحول بين المرء وقلبه) :

يميته فتفوته فرصة تمكن القلب من الإخلاص والطاعة.

(وأنه إليه تحشرون) :

وأنه إليه تجمعون يوم القيامة، فيجازيكم على أعمالكم.

(واتقوا فتنة) :

واتقوا ذنبا يعم ضـرره، كإقرار المنكرين أظهركم، أو تفريق وحـدة الجماعة، أو ترويج الإشاعات الضارة.

(لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) :

لا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم.

(واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض) :

واذكروا وقت أن كنتم قلة أذلاء، مستضعفين في مكة، تستذلكم قريش.

(تخافون أن يتخطفكم الناس) :

تخشون لهوانكم وذلتكم أن يتخطفكم من استضعفوكم من قريش فلا تملكون أن تدافعوا عن أنفسكم.

(فآواكم) :

فجعل لكم المدينة مأوى تهاجرون إليه وتتحصنون فيه.

(وأيدكم بنصره) :

وقواكم على الكفار بتأييد الأنصار، وإمداد الملائكة.

(ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) :

وأعطاكم طيبات الرزق من الغنائم لتشكروا الله على فضله.

(لا تخونوا الله والرسول) :

لا تخونوهما بتعطيل الفرائض والسنن، أو بأن تظهروا غير ما تخفون.

(وتخونوا أماناتكم) :

وتخونوا ما اؤتمنتم عليه من مال أو عرض أو سر، أو عهد أو نصيحة.

(وأنتم تعلمون) :

وأنتم تقصدون وتعلمون أنكم تخونون.

(فتنة) :

محنة وبلاء.

(فرقانا) :

هداية في قلوبكم، تفرقون بها بين الحق والباطل.

التفسير:

الآية ٢٤ ـ أيها المؤمنون، عليكم أن تجيبوا الله وتطيعوا رسوله، وتمتثلوا أمره، إذا

حثكم على عمل طاعة، أو خروج للجهاد، أو اتباع لأحكام الدين، لأن ذلك يحيي قلوبكم بالإيمان، ويوجهكم إلى الخير، ويكسبكم العزة والقـوة، فتصير إليكم الغلبة والفوز، وتحيون حياة طيبة، واعلموا أن الله أقرب إلى المرء من قلبه الذي هو يصرفه من حال إلى حـال، وهو أملك له من صاحبـه، فيستـطيع أن يكون حائلا بين المرء وقلبه، ويمكن فـيه ـ على حـسب مشيـئته ـ الإيمان والطاعـة، أو الكفر والمعصـية، ويبـدله من الخـوف أمنا، أو من الأمن خوفـاً، وهو الذي يبـعـثكم يوم القـيامـة، وتجمعون إليه يوم الحساب ليجازى كل نفس بما كسبت.

الآية ٢٥ ـ وقد أمـركم الله أن تتقـوا الفتنة، وتجـتنبوا العمل الـذي يعم ضرره، وينتشر خطره والفتنة من أشد الذنوب، وأخطر الجرائم، لأن ضررها لا يقتصر على من أثاروها، ولا تصيب فريق الظالمين والآثمين خـاصة، ولكنه يعم البريء والمذنب والمصلح والمفسد ولهذا أعقب الله التحذير منها بتـهديد أصحابها تهديداً مؤكداً بأشد العقاب، فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ والمقصود بالفتنة في الآية: جميع الأعمال التي تصيب المجـتمع بضرر أو خسارة أو توقع فيه شقـاقا أو كارثة، أو تقر منكراً، أو تروج إشـاعات ضارة أو أخـبار كـاذبة، توهن من قوته، وتضـعضع من عزمه أو ثقته، وتبعث فيـه الرعب والفزع، وينبغي أن يضرب على أيدي من يثيرون الفتنة، وأن يؤخذوا بأشد العقـوبات، قال رسول الله ﷺ في تصوير الفتنة تعم، والضرر يصيب غير من يفعله ووجوب المبادرة بالقضاء عليها «مثل القائم على حدود الله والواقع فيهـا (أي مثل المطيع والعاصي) كمثل قـوم استهموا (أي اقـترعوا) على سفينة فأصاب بعـضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسـفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وأن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً».

الآية ٢٦ ـ واذكروا أيها المؤمنين حالكم في مكة قـبل الهجرة وقت أن كنتم عددا قليلا أذلة مـستضعفـين بالنسبة إلى قريش وقـوتهم وبطشهم، تعيشـون في استكانة ورعب وفزع، لا أمن لكم ولا اطمـئنان، وتخافون أن يتـخطفكم الناس من قريش ويأخذوكم ليسومؤكم العـذاب والهوان، فمن الله عليكم وآواكم في المدينة، وجعلها

لكم مأوى تـنزلون فيه وتتـحصنون من أعـدائكم، وشد أزركم بالأنصـار، وأيدكم بالملائكة في بدر، وقـواكم بنصـركم عليـهم، وجعل لكم من الغـنائم طيبـات من الرزق، لتشكروه على عظيم فضله، وعميم فيضه.

الآية ٢٧ ـ والله ينهاكم أيها المؤمنون عن أن تخونـوا الله ورسوله فتعطلوا أحكام دينه أو تقولوا بألسـنتكم ما ليس في قلوبكم، أو تظهـروا غير مـا تخفون، ويـنهاكم عن أن تنقـضوا العـهود، وتخـونوا الأمانات التي اؤتمنتم عليـها من أمـوال الناس وأعراضـهم وأسرارهم، وأنتم تعلمون أنكم مـؤتمنون عليها، فتعمدون إلى جـحود الودائع أو انتهاك الأعراض أو إفشاء الأسرار، وإخفاء المسـتندات ذلك إثم كبير، ولقد كان أول هم للنبي ﷺ ليلة أن هاجـر أن يترك عليـا وراءه ليرد الأمانات ويـعيد الودائع، وكـانت عنده لأعدائه من المشركين، وأبى أن يهاجر من مكة، وفي ذمته لأحد من أعدائه وديعة.

أبو لبابة يصلب نفسه على سارية، ليكفر عن خيانته:

حاصر النبي ﷺ بني قريظة، إحدى وعشرين ليلة، فسألوه صلحا كصلح بني النضير، وهو أن يتركهم يسيرون إلى إخوانهم بأذرعات وأريحاء من الشام، فأبي إلا أن ينزلوا على حكم سـعد بن معـاذ الأنصاري سيـد الأوس وكان حليفـهم، وكان حكمه: أن تقتل المقاتلة وتقسم الأموال وتسبى الذرية والنساء، فأبوا ذلك، ثم طلبوا أن يرسل إليهم: أبا لبابة، وكان مناصحا لهم لأن ماله وعياله كانا في أيديهم، فبعثه إليهم، فـقالوا: ما ترى؟ هل ننزل على حكم سـعد؟ فقال: لا تفـعلوا فإنه الذبح، وأشـار إلى حلقـه، فنـزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾، قال أبو لبابة: فما زالت قدماي حتى علمت أني خنت الله ورسوله.

حزن أبو لبـابة، وقام فشد نفـسه على سارية في المسجـد، وقال: والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت، أو يتوب الله علي، فمكث سبعة أيام حتى خر مغشيا عليه، ثم تاب الله عليه، فـقيل له: قد تيب عليك فحل نفـسك، فقال: لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني فجاءه فحله بيده، فقال: إن من

تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيـها الذنب، وأن أنخلع من مالي، فقال عليه السلام: يجزئك الثلث أن تتصدق به.

الآية ٢٨ ـ ولما كان الإنسان شديد الحب والحرص على أمواله وأولاده، وكان تعلقه بهم يتسـبب عنه وقوعه في الإثم والعـقاب، أو يدعوه إلى الاتصـاف ببعض الرذائل: كالبـخل والخيـانة والجبن، فقـد جعلهم الله فتنـة في قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، أي محنة يفتن الله بـها عبـاده، ليبلوهم بذلك، ولينبـههم على أن حبهما لا ينبغي أن يحـملهم على الخيانة كأبي لبابة، وأن الله عنده الجزاء الأوفى، وأن عنده الأجـر العظيم، لمن رزئ في مـاله أو أصيب في عـيـاله، فآثر رضـاه، وراعى حدوده في الأموال والأولاد وجعل همه منوطا بما ينال به أجر الله، فهو خير وأبقى.

الآية ٢٩ ـ وقد وعد الله المؤمنين الذين يتقونه في كل ما يأتون وما يذرون، وفي كل ما يقولون وما يفعلون ويراقبـونه سرا وعلانية، أن يجعل لهم بسبب ذلك هداية ونورا في قلوبهم وفـرقانا يفرقـون به بين الحق والباطل ويميـزون به الخيـر من الشر ويعفـو عن سيئـاتهم، ويتجـاوز عن ذنوبهم، والله ذو الفضل العظيم على عـباده، يتفضل عليهم بإحسانه، ويعفو عن كثير.

عناد المشركين

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

المفردات:

(وإذ يمكر بك الذين كفروا) :

واذكر وقت أن اجتمعت كفار قريش في دار الندوة ليدبروا أمر القضاء عليك.

(ليثبتوك) :

ليوثقوك ويحبسوك.

(أو يقتلوك) :

أو ينوشوك بسيوفهم حتى يقتلوك.

(أو يخرجوك) :

أو يخرجوك من مكة.

(ويمكرون) :

ويدبرون لك المكايد خفية.

(ويمكر الله) :

ويدبر الله ما يحيط به مكايدهم، ويأتيهم بغتة.

(والله خير الماكرين) :

وتدبير الله أنفذ من مكرهم وأبلغ في التأثير والنكاية بهم.

(آياتنا) :

القرآن.

(أساطير الأولين) :

ما سطره الأولون في الكتب، أو الأباطيل والترهات.

(إن كان هذا هو الحق من عندك) :

إن كان هذا القرآن هو الحق الذي نزل على محمد من عندك.

(فأمطر علينا حجارة من السماء) :

فعاقبنا على إنكاره بحجارة من سجيل تهلكنا كما أهلكت أصحاب الفيل.

(أو ائتنا بعذاب أليم) :

أو عاقبنا بنوع آخر من العذاب، يكون أشد قسوة من حجارة السماء.

(وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) :

وليس من سنة الله أن يصيبهم بعذاب يستأصلهم، أو صاعقة تهلكهم وأنت بينهم لأنك بعثت رحمة للعالمين، وهو معذبهم إذا فارقتهم.

(وما كانوا أولياءه) :

ما استحقوا لإشراكهم وعدواتهم للدين، أن يكونوا ولاة لأمر المسجد الحرام.

(مكاء) :

صفيرا كصوت المكاء، وهو طائر أبيض بالحجارة كالقنبرة، مليح الصوت، فكانوا يجمعون بين أصابع أيديهم ثم يدخلونها في أفواههم فتحدث صفيرا.

(وتصدية) :

وتصفيقا.

(فذوقوا العذاب) :

فذوقوا عذاب القتل والأسر.

تمهيد:

بعد أن عدد الله على المسلمين فيما سبق من الآيات، ما تفضل عليهم به من النعم العامة، أنزل على نبيه ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا..﴾، ليذكره ﷺ بنعمته عليه في خاصة نفسه، إذ نجاه من تآمر قريش عليه وتبييتهم نية الغدر به في دار الندوة.

لما سمعت قريش بإسلام الأنصار، ومبايعتهم للنبي ﷺ، خافوا أن يعظم أمره وتقوى شوكته فاجتمعوا في دار الندوة يتشاورون في أمر، فدخل إبليس عليهم في صورة شيخ، وقال: أنا شيخ من نجد، دخلت مكة، فسمعت باجتماعكم، فأردت أن أحضركم ولن تعدموا مني رأيا ونصحا، فقال أبو البختري: رأيي أن تحبسوا محمدا في بيت، وتشدوا وثاقه، وتسدوا بابه، غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها، وتتربصوا به ريب المنون، فقال إبليس: بئس الرأي، يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم. فقال هشام بن عمرو: رأيي أن تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم، فلا يضركم ما صنع، واسترحتم، فقال إبليس: بئس الرأي، يفسد قوماً غيركم ويقاتلكم بهم. فقال أبو جهل: أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاما، وتعطوه سيفا، فيضربوه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلها، فإذا طلبوا العقل: أي الدية عقلناه واسترحنا، فقال إبليس: صدق هذا الفتى، هو أجودكم رأيا، فتفرقوا على رأي أبي جهل، مجتمعين على قتله، فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ، وأمره إلا يبيت في مضجعه، وأذن له الله في الهجرة، فأمر عليا فنام في مضجعه، وقال له: اتشح ببردتي، فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه، ودعا الله أن يعمى عليهم أثره، وباتوا مترصدين، ولكن الله طمس على بصيرتهم، فخرج ولم يروه، فلما أصبحوا ساروا إلى مضجعه، فأبصروا عليا، فبهتوا، وخيب الله سعيهم وخرج هو مع أبي بكر رضي الله عنه إلى الغار بعد أن دفعا راحلتيهما إلى عبد الله بن أريقط، وكان دليلا هاديا حاذقا بالطريق، واستأجراه ليدلهما على طريق المدينة، وواعداه أن يوفيهما عند غار ثور بعد ثلاث ليال، ولما علمت قريش بخروج النبي ﷺ، جعلت تطلبه بقائف معروف يقفو الأثر، ومضى برحالهم حتى وقف على الغار، فقال: هنا انقطع الأثر، فنظروا فإذا بالعنكبوت قد نسج على فم الغار، فأيقنوا أن لا أحد فيه، فرجعوا، وجعلوا في النبي ﷺ مائة ناقة، لمن يرجع به عليهم، ولما سمع أبو بكر صوت من يقصون أثرهم على باب الغار، قال للنبي ﷺ: «لو أن

أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه»، فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين، الله ثالثهما؟ يا أبا بكر، لا تحزن، إن الله معنا».

التفسير:

الآية ٣٠ ـ واذكر وقت أن كان يمكر بك الذين كفروا، ويبيتون لك الكيد، مجتمعين في دار الندوة، فمنهم من أشار بأن يثبتوك بالقيد، ويشدوك بالوثائق، ويحبسوك حتى تموت، ومنهم من أشار بأن يخرجوك من بلدك، وينفوك من وطنك، وهم يمكرون ويدبرون الغدر بك، والله يرد مكرهم عليهم، ويحبط تدبيرهم وتدبير الله في نجاتك وفرارك من أيديهم، أنفذ من مكرهم وأبلغ في النكاية بهم من حيث لا يشعرون.

الآية ٣١ ـ وكان عليه السلام يقرأ القرآن، ويتلو منه أخبار القرون الماضية، فلما سمعه النضر بن الحارث ومن كانوا معه، قالوا: قد سمعنا مثل هذه الأخبار من غير محمد، ولو نشاء أن نقول مثل هذا القرآن لقلنا، وما هو إلا أخبار مما سطره الأولون، وقولهم هذا مكابرة، وليس في استطاعتهم، فقد طولبوا بسورة منه فعجزوا، وكان أحب شيء إليهم أن يستطيعوا فيتغلبوا، فكيف يقولون: لو نشاء لقلنا مثل هذا؟

الآية ٣٢ ـ وكان النضر بن الحارث من أشد قريش معارضة للنبي ﷺ، وكان قد سافر إلى فارس والحيرة للتجارة، ورجع منها بقصص سمعها من الرهبان كما رجع بنسخة من أخبار رستم واسفنديار، وكان يجمع الكفار من قريش حوله، ويقرأ لهم منها، ولما قال النضر حين سمع القرآن: «إن هذا إلا أساطير الأولين»، قال له النبي: «ويلك، إنه كلام الله»، فقال في استخفاف وإنكار: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم»، أي إن كان هذا القرآن حقا، فعاقبنا على إنكاره وتكذيبه، بحجارة تنصب علينا كالمطر من السماء التي تهبط الوحي منها على محمد، وينزل عليه القرآن من جهتها، فتهلكنا كما أهلك السجيل أصحاب الفيل، أو عاقبنا بعقاب آخر أشد ألما وأقسى عذابا، وهو قول يدل على غاية الجحود والإنكار،

وعلى أن الله تعالى قد حال بين الهداية وقلوب هؤلاء بحجب وأقفال منيعة، كما يدل على سفه العقل، وسقم التفكير، لأن المنطق كان يقضي عليهم أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه، لكنه عمى العقل وجنون العناد.

الآية ٣٣ ـ وكان من اليسير على الله أن يهلك النضر ومن معه من المعاندين المكابرين فيصيبهم بما أصاب به عادا وثمود، ولكن الله أرسل نبيه ﷺ رحمة للعاملين، فقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي ما كان الله ليعذب أمتك وأنت قائم فيهم لهدايتهم، بل كرامتك عند ربك أجل وأعظم، وسيؤجل الله عذاب المشركين حتى تخرج من بينهم، ويحول شقاؤهم دون هدايتهم، ولو كانوا ممن يؤمنون ويستغفرون الله من الكفر والمعاداة، لما عذبهم، ولكنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون فجزاؤهم من الله أشد العذاب.

الآية ٣٤ ـ وكيف لا يعذبهم الله وهم ـ زيادة على ما هم فيه من الكفر والضلال ـ يصدون المؤمنين عن زيارة المسجد الحرام، ويمنعونهم كما منعوهم في عام الحديبية أن يحجوا، ويزعمون لأنفسهم حق الولاية عليه، وما كانوا أولياءه، لم يولهم الله عليه، لأنه بيته، وهو صاحب الحق في أن يولي عليه من يشاء، فليسوا متأهلين ولا مستحقين لهذه الولاية، لأنهم أهل شرك، وعبدة أصنام، وأوثان، فكيف يتولون على بيت الله، إنما يتولى على البيت المسلمون المتقون الذين يعبدون الله حق عبادته ويعرفون لبيته حرمته، ولكن كثيرا من قريش لا يعلمون أن لا ولاية لأحد على المسجد الحرام إلا للمتقين من عباده.

الآية ٣٥ ـ وإن أفعالهم القبيحة عند البيت، التي تقوم مقام صلاتهم، لتنافي أن يكونوا أولياء البيت، أو محافظين على ما يجب له من هيبة ووقار، فقد جعلوا مكان الصلاة والتقرب إلى الله، المكاء والتصدية، أي التصفير والتصفيق، إذ كانوا يطوفون عراة، رجالا ونساء، مشبكين بين أصابعهم، يصفقون ويصفرون، يفعلون ذلك ورسول الله ﷺ قائم يصلي ويقرأ، ليحدثوا جلبة وضوضاء عليه، ويثيروا الضجيج حوله، ويشغلوه عن صلاته، فذوقوا العذاب الذي لقيتموه ببدر في الدنيا، وذوقوا عذاب جهنم في الآخرة، جزاء ما كنتم فيه من كفر وضلال.

تهديد ووعيد

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾.

المفردات:

(ليصدوا عن سبيل الله) :

ليمنعوا الناس من الدخول في دينه، واتباع رسوله، معاداة له.

(ثم تكون عليهم حسرة) :

ثم تكون عاقبة إنفاقها ندما وغما عليهم، لأنهم أضاعوا المال ولم يحققوا المقصود.

(ليميز الله الخبيث من الطيب) :

سيغلبون في الدنيا ويحشرون إلى جهنم في الآخرة ليميز الله الكافر من المؤمن.

(ويجعل الخبيث بعضه على بعض) :

ويجعل الكفار بعضهم فوق بعض في جهنم.

(فيركمه جميعا) :

فيتراكبوا لشدة ازدحامهم.

(إن ينتهوا) :

إن ينتهوا عن معاداة الرسول بالدخول في الإسلام.

(يُغْفَرْ لهم ما قد سلف) :

يَعْفُ الله عما قد سلف من ذنوبهم.

(وإن يعودوا) :

وإن يرجعوا إلى معاداته وحربه.

(فقد مضت سنة الأولين) :

فإن السنن الماضية عن الأمم السابقة، وعمـا حدث للمشركين في بدر، تنبئهم بما يحيق بهم.

(حتى لا تكون فتنة) :

حتى لا يكون شرك، ولا يعبد غير الله في الأرض.

(ويكون الدين كله لله) :

ويقضي على العبادات الباطلة، ولا تبقى إلا عبادة الله وحده.

(فإن الله مولاكم) :

فإن الله ناصركم ومعينكم.

التفسـير:

الآية ٣٦ ـ إن الذين كفـروا ينفقون أموالهم في الفـساد، والتمكين للكفـر، وإقامة البغي، ومـعاداة النبي، ومحـاربة المسلمين، ليمنعـوا الناس عن الدخول في دين الله، واتباع رسوله، وسيـأتون على كل أموالهم إنفاقاً وتضييعـا، دون أن ينالوا مقصودهم، لأن الإسلام دين الحق، والناس يعـتنقونه عن يقين وبينة، وهم يريدون أن يطفـئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ـ وسـتبقى لهم الحسـرة والندامة والغم، لأنهم أضاعوا أموالهم وأوقاتهم دون أن يقضـوا على دعوة الإسلام، التي تمضي وتنتشر أسرع من انتـشار النور في الظلام، ثم يكون مـصيـرهم أن يغلبـوا ويقهـروا ويقضي عليـهم وينتهوا، وقد نزلت الآية في المطعمين يوم بدر، وكانوا اثنـى عشر رجلا من كبار قريش

وكان ينحر الواحد منهم لمقاتلة الكفار في بدر كل يوم عشر جزر - أي عشرا من الإبل - وفي أبي سفيان بن حرب لما استأجر لقتال المسلمين يوم أحد ألفين من الأحابيش، سوى من تطوع معه للقتال من العرب، وأنفق عليهم أربعين أوقية ذهبا.

وليس ما وقع في نفوس المشركين من الحسرة والندامة، من خسارة أموالهم، وعدم تحقيق غرضهم، من القضاء على محمد ودينه، هو كل ما يحل بهم من العقاب والنكال، وإنما الذين بقوا منهم، أو ماتوا على الكفر، سيحشرهم الله في جهنم حشرا، ويعد للمؤمنين نعيما وأجراً.

الآية ٣٧ ـ ليميز الله الخبيث من الطيب، والمؤمن من الكافر، ومن أنفق ماله للجهاد في سبيل الله، ومن أنفقه لمحاربة محمد ودينه، وليجعل فريق الخبيث بعضه على بعض، فيجمعه متراكما متزاحما، ليتذوقوا من التكدس والتراكم والتزاحم في نار جهنم، جميع ألوان العذاب والهوان، هؤلاء هم الذين خسروا الدنيا والآخرة، وأضاعوا أموالهم وأنفسهم وحقت عليهم كلمة العذاب.

الآية ٣٨ ـ والله واسع المغفرة رحيم بعباده فأمر نبيه أن يعلن هؤلاء الكفار الذين حاربوه وعادوه، أنهم إن يقلعوا عن الكفر، ويتركوا سبيل الضلال، ويدخلوا في دين الله، فإن الله سيعفو عنهم ويغفر لهم ما فرط من ذنوبهم، لأن الإسلام يجب ما قبله، أما إذا عادوا إلى القتال، وبقوا في الكفر والضلال، فإنهم يعلمون بما ضمت به سنة الأولين، وأنباء السابقين، من إهلاك الأمم التي تحزبت على الأنبياء، وبما حل بهم من النكال والقتل يوم بدر.

الآية ٣٩ ـ لقد أمرتم أيها المؤمنون أن تقاتلوا الكفار، حتى لا يكون كفر أو شرك، ولا تعبد أصنام ولا أوثان، ويكون الدين كله خالصا لله، ولا يعبد أحد في الأرض سواه، فإن قاتلتموهم وانتهوا ـ وقت القتال ـ عن الكفر، واعتنقوا الإسلام، فكفوا عنهم، فإن الله سيقبلهم، وهو البصير بما يعملون.

الآية ٤٠ ـ أما إن أعرضوا عنكم وأصروا على قتالكم، فاستمروا في قتالهم، واعلموا أن الله مولاكم، وناصركم عليهم، وكونوا على يقين وثقة، بأنه سيجعل

الظفر والغلبة لكم، إنه خير مولى، فلا يضيع من يتولاه، وخير نصير، فلا يهزم من ينصره.

كيف تقسم الغنائم؟

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾.

المفردات:

(غنمتم):

من الغنيمة وأصلها إصابة الغنم والمراد ما أخذ من الكفار قهرا، أما ما أخذ بلا حرب فهو فيء كالجزية وعشر التجارة إلخ ما هو مبين في كتب الفقه.

﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ هو يوم بدر لأنه فرق بين الحق والباطل وظهر في الوجود أن لمحمد المهاجر من بلده قوة غلبت كفار قريش المغرورين.

(المعنى):

سئل النبي ﷺ عن الأنفال وتقسيمها، والمراد بها الغنائم كما سبق. فأجاب القرآن على سؤالهم مبينا أن حكمها لله ويقسمها الرسول ﷺ على حسب ما أمر به ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

وهذا بيان لحكمها بالتفصيل:

واعلموا أيها المسلمون أن الذي غنمتوه من الكفار. أيا كان قليلا أو كثيرا فحق ثابت، واجب، أن لله خمسه وللرسول، ولذوى القربى، واليتامى والمساكين وابن السبيل.

فالغنيمة تقسم خمسة أقسام خمسها لهؤلاء الخمسة، وأربعة أخماسها الباقية للجيش بدليل بيان هذا الخمس والسكوت عن الباقي مع قوله تعالى (غنمتم) قال القرطبي: لما بين الله تعالى حكم الخمس وسكت عن الباقي دل ذلك على أنه ملك للغانمين.

والمراد بذوى القربى هم بنو هاشم وبنو المطلب دون بني عبد شمس، وبني نوفل، واليتامى من فقدوا آباءهم وهم فقراء، والمساكين هم ذوو الحاجة من المسلمين، وابن السبيل المنقطع في سفره مع شدة حاجته حتى صار الطريق أبا له.

كان يقسم النبي ﷺ الخمس على خمسة. سهم له يصرفه في مصالح المسلمين وسهم لذوي القربى، والثلاثة الباقية لأصحابها المذكورين، وبعد وفاته اختلف الأئمة فمن قائل إن سهم النبي وسهم ذوي القربى يسقطان، وفقراء آل البيت كفقراء المسلمين، ولا يُعطي أغنياؤهم، وهكذا كان يسير أبو بكر مع بني هاشم، وقال الشافعي سهم رسول الله يصرف على مصالح المسلمين. وسهم ذوي القربى لفقراء آل البيت وأغنيائهم بالسوية كالميراث، والرأي أن سهم الرسول وسهم ذوى القربى يترك أمرهما للإمام يفعل ما فيه المصلحة للمسلمين.

وبعض العلماء تمسك بظاهر الآية وقال: الخمس يقسم ستة أقسام لا خمسة.

إن كنتم آمنتم بالله وما أنزل على رسول الله من الوحي والملائكة والنصر يوم الفرقان يوم التقى الكفار والمسلمون، فاعلموا أن الخمس ليس لكم ولكنه لله ولرسوله، وللأصناف المذكورة فحذار من أن تتعدوا الحدود في وقت من الأوقات ولا غرابة في جعل الأيمان بإنزال هذه الأشياء من دواعي العلم بأن لله خمسه وللرسول إلخ الأصناف؛ لأن الوحي ناطق بهذا، ولما كانت الملائكة والنصر من عند الله، وجب أن تكون الغنيمة التي حصلت بسببها مصرفة في الجهات التي عينها الله، وليس المراد اعلموا فقط بل العلم المشفوع بالعمل والاعتقاد.

امتنان الله على المؤمنين بالنصر على عدوهم

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ

﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾.

المفـردات:

(العدوة) :

شط الوادي والدنيا أي القريبة من المدينة.

(القصوى) :

مؤنث الأقصى أي البعيدة عن المدينة.

(المعنى) :

الآية ٤٢ ـ يذكرنا الله سبحـانه وتعالى بالنعم العظيمة التي حبـانا بها، وكان لها الأثر الفعال في الانتصار على كفار قريش، وهذا يوجب الشكر علينا والامتثال لأمر الله في تقسيم الغنائم وغيره.

واذكروا يوم التقى الجمعان إذ أنتم بالعدوة القريبة من المدينة اخترتموها مكانا لكم مع أنها كانت رملية تسوخ فيها الأقدام، ولا يسهل السير عليها، والكفار في العدوة البعيـدة، وكانت مكانا صالحـا للوقوف قريباً من الماء، ومع ذلك فكان العـير الذي يحمل التجـارة والركب الذي يرأسه أبو سفيان في أربعـين من قريش أسفل منكم، ووراء ظهور المشركين حاميا لها، وهم يدافـعون عنه دفاع المستميت، وهذا بلا شك مما يقوى الروح المعنوية فيـهم، واعلموا أنكم لو تواعدتم على القتـال لاختلفتم في الميعاد خوفاً من بطشهم وقوة عددهم، كل ذلك ليتحقق للمسلمين أن النصر من عند الله وحده، وأن الله هو الذي جعلهم يتغلبـون على عدوهم مع قلة عددهم وعدتهم فيزدادوا إيمانا وشكرا وامتثالا لأمر الله.

ولكن جمع الله بينكم على هذه الحال من غير ميعاد ليقضي الله أمرا كان مقدورا فعله، محتما وقوعه لأنه نصـر لأوليائه، وقهر لأعدائه، ليهلك من هلك بعد ظهور

تلك البينات الواضحات عن حجة وبينة، فإن المقدمات الظاهرة لو تركت وحدها لأنتجت هزيمة المسلمين هزيمة ساحقة، أما وقد ظهر أن الله على كل شيء قدير وأنه ولي الذين آمنوا وقد نصر الله المسلمين على عدوهم نصرا مؤزرا، وتحقق قوله ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (القمر: ٤٥) فمن يهلك بعد ذلك يهلك عن بينة وحجة، ومن يحيا بعد ذلك يحيا عن بينة وحجة، إذ هذه معجزات قواطع دمغت الكفر، ومحقت الشرك، وقيل المراد بالحياة والهلاك الإسلام والشرك، وإن الله لسميع بكل دعاء والتجاء إليه، عليم بكل قصد وعمل.

الآية ٤٣ ـ واذكر إذ يريك الله الكفار في منامك قليلا بمعنى ضعفاء فتخبر أصحابك بذلك فتثبت قلوبهم، ولو أراكهم على حسب الواقع لفشلتم واختلفتم وتنازعتم في أمر القتال، ولكن الله سلم من الفشل والنزاع، حيث أخرجكم للعير ثم وعدكم الله إحدى الطائفتين وقد وفر العير فلم يبق إلا القتال وقد من عليكم بنعمه حتى انتصرتم إنه عليم بذات الصدور.

الآية ٤٤ ـ واذكروا إذ يريكم الله الكفار ساعة القتال قلة في أعينكم حتى تجرءوا وتقوى روحكم المعنوية، ويجعلكم قلة في أعين الكفار فيغتروا، ولا يعدوا العدة لكم ولا يحكموا الضربة الموجهة إليكم، هذا قبل القتال وأما فيه فإنهم رأوا المسلمين مثلى عددهم لتفاجئهم الكثرة فيبهتوا ويتملكهم الفزع وتسوء حالتهم المعنوية ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (آل عمران: ١٣).

كل ذلك ليقضي الله أمرا كان مفعولا بلا شك، وإلى الله ترجع الأمور كلها يصرفها كيف يشاء، ولا معقب لحكمه سبحانه وتعالى.

نصائح حربية

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ

الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾.

المفردات:

(فئة):

جماعة .

(ريحكم):

المراد القوة والغلبة والدولة ويقال هبت رياح فلان إذا دالت له الدولة ونفذ أمره.

(بطرا):

البطر والأشر هما الفخر بالنعمة ومقابلتها بالتكبر والخيلاء وجعلها وسيلة إلى ما لا يرضى الله.

(رئاء الناس):

أصله رياء الناس.

المعنى:

الآية ٤٥ ـ يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله، إذا حاربتم جماعة من الكفار، والتقيتم بهم في ميدان الحرب فالواجب عليكم أن تثبتوا في قتالهم وتصمدوا للقائهم، وإياكم والفرار من الزحف، وتوليتهم الأدبار، فالثبات فضيلة، والفرار كبيرة، وعليكم بذكر الله في السراء والضراء وحين البأس، فبذكره تطمئن القلوب وبدعائه تفك الكروب، فهو القريب المجيب دعوة الداعي، لا سيما إذا كان دعاء بالنصر على عدو الله، اثبتوا عند اللقاء، واذكروا الله كثيرا، رجاء أن تفوزوا بالأجر والثواب، والنصر على الأعداء.

الآية ٤٦ ـ وأطيعوا الله في كل ما أمر به ونهى وكذا رسوله الكريم، فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله وإياكم والنزاع فإنه مدعاة للفرقة وأساس للهزيمة، وإنما أهلك من كان قبلكم اختلافهم وكثرة اعتراضهم، إذ به تذهب الدولة، وتفني القوة

وعليكم بالصبر فهو سلاح المؤمن الذي لا يفل، ولقد قيل: الشجاعة صبر ساعة وكفى بالصبر شرفا أن الله مع الصابرين بالمعونة والتأييد.

الآية ٤٧ - وإياكم أن تكونوا كأولئك الكفار الذي خرجوا من ديارهم حالة كونهم بطرين طاغين بالنعمة، غير شاكرين، إذ قيل لهم: إن العير نجا فارجعوا، فقال أبو جهل: لا حتى نقدم بدرا ونشرب الخمور وتضرب القيان علينا بالدفوف، وتسمع العرب بمقدمنا. كما مر قريبا وكان مآلهم كما علمت، بدل الله شرب الخمر بشرب كأس الموت، وبدل ضرب القيان والغناء بنوح النائحات وبدل نحر الجزور بنحر الرقاب وهكذا.. ولا تكونوا مثلهم بطرين أشرين مرائين الناس صادين عن سبيل الله، فهذه من عوامل الهدم، والفناء واعلموا أن الله بما يعمل العاملون محيط وسيجازى كلا على عمله.

فهذه هي النصائح التي تكفل النصر للمسلم: الثبات عند اللقاء، وذكر الله والالتجاء إليه، وطاعة الله وطاعة رسوله وكذا قائد الجيش ورئيس الدولة مادام يأمر بما يرضي الله ورسوله، وعدم النزاع والشقاق، والصبر عند الشدائد، وعدم البطر والرياء والكبر والخيلاء.

كيف يتخلص الشيطان

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ ﴾.

المفردات:

(زين) :

زين : حبب إليهم أعمالهم ووسوس لهم بها.

(نكص) :

نكص أي رجع هاربا أي رجع القهقري والمراد أحجم والعقب مؤخر القدم.

(أدبارهم) :

أدبارهم: جمع دبر أي مؤخرهم والمراد ظهورهم وقيل المراد أسنانهم.

المعنى:

الآية ٤٨ ـ واذكر يا محمد إذ زين لهم الشيطان أعمالهم التي عملوها ضد دين الله، وحببهم فيها حتى فهموا أنهم لا يغلبون أبداً.

فلما تراءى الجمعان، والتقت الفئتان في الميدان وجها لوجه، نكص على عقبيه، ورجع هاربا لا يلوى على شيء، وقال: إني بريء منكم ومن عملكم إني أرى ما لا ترون من جند الله التي تحارب في صفوفهم، والمراد أنه بطل عمله، وذهب كيده أدراج الرياح، وهذا تمثيل لحاله مع الكفار في الدنيا فما باله في الآخرة؟

وفي المأثور: إن إبليس تمثل في صورة سراقة بن مالك الشاعر الكناني وتحدث معهم بالفعل، وفي بعض الروايات: كانت يده في يد الحارث بن هشام، فلما نكص وتركهم وقد حمى الوطيس قال له الحارث: إلى أين؟ أتخذلنا في هذه الحال؟ فقال: إني أرى مالا ترون، إني أخاف الله ودفع في صدر الحارث وانطلق.. انظر كيف وقف الشيطان منهم هذا الموقف، والله شديد العقاب فاحذروا عقابه.

الآية ٤٩ ـ واذكر وقت أن يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض الشك والحسد وداء الحقد والبطر: غر هؤلاء المسلمين دينهم حتى يخرج ثلاثمائة لمحاربة ألف من زعماء قريش، إن هذا لغرور.

وما علم المنافقون أن من يتوكل على الله فهو حسبه، وناصره ومؤيده، فإن الله عزيز يعز أولياءه ويذل أعداءه، غالب على أمره، حكيم في فعله عليم بخلقه سبحانه وتعالى.

الآية ٥٠ ـ ولو رأيت يا من تتأتي منك الرؤية وقت أن يتـوفى الذين كفروا الملائكة، ورأيت الكفـرة في هذه الحال لرأيت شيـئاً عـجيـباً لا يكاد يوصف، فهـم يضربون وجوههم وظهورهـم بمقامع من حديد، ويقولون لهم: ذوقـوا عذاب الحريق، وهذه بشارة لهم بعذاب الآخرة.

الآية ٥١ ـ ذلك العذاب الشديد والضرب الأليم بسبب مـا قدمته أيدي الكفار، واجـترحـته من المعـاصي والذنوب، وأن الله ليس بذى ظلم لـلعبـاد أبدا بل يضع الموازين القسط، ويعطي كل ذي حق حقه.

ما حل بهم بسبب عملهم

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

المفـردات:

(كدأب) :

الدأب مصدر دأب يدأب إذا كـدح وأتعب نفسه وداوم على فعله، ثـم سميت به العادة لأن الإنسان يداوم عليها ويواظب.

المعنى:

الآية ٥٢ ـ هذا استئناف أي كلام جديد مسوق لبيان أن ما حل بهم من العذاب بسبب كـفرهم لا بسبب شيء آخـر فهو تأكيـد لمضمون مـا قبله ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (الأنفال: ٥١).

عمل هؤلاء الكفرة الذي مرنوا عليه وتعـودوه كعمل آل فرعون والذين من قبلهم

من آل عاد وثمود وقوم لوط والمؤتفكات، أتتهم رسلهم بالبينات فكفروا بآيات الله، وكذبوا برسله، فأخذهم بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر، ولا غرابة في ذلك فإن الله قوي عذابه شديد عقابه.

الآية ٥٣ ـ ذلك العذاب الذي يأتي مسببا عن العمل بسبب أن الله سبحانه وتعالى لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، أي لم يصح في حكمته أن يغير نعمة حتى يتغير صاحبها إذ هو الحكيم الكريم السميع العليم. وهؤلاء الكفار كانوا في نعمة الأمن والرفاهية أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف وبعث إليهم النبي ﷺ من بينهم يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

فلما بعث إليهم النبي ﷺ غيروا حالهم السيئة إلى أسوأ منها حيث كذبوا النبي وعادوه وحاولوا قتله وعذبوا أصحابه وتحزبوا عليه، فغير الله تعالى ما أنعم به عليهم من نعمة الإمهال، وعاجلهم بالعذاب والنكال ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١) وذلك بسبب أن الله يسمع كل صوت ويعلم كل قصد وعمل.

الآية ٥٤ ـ دأبهم وما هم عليه من عادة كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فكان من نتيجة ذلك أن أهلكهم الله بذنوبهم التي من جملتها التكذيب وإغراق آل فرعون وإرسال الريح والصيحة على غيرهم، وكل هؤلاء كانوا ظالمين.

كيف حال من نقض العهد ؟

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

المفـردات:

(الدواب) :

جمع دابة وهي ما تدب على الأرض والمراد الناس.

(تثقفنهم) :

تثقفت الرجل في الحرب أدركته وثقفته ظفرت به.

(فشرد بهم) :

التشريد تفريق مع إزعاج واضطراب.

(انبذ) :

أي اطرح وارم.

(سبقوا) :

افلتوا وفاتوا.

(المناسبة) :

بعـد أن تكلم على الكافريـن الظالمين الذين هلكوا بأعـمالهم. أخـذ يتكلم على أحوال الباقين منهم.

روى أنهـا نزلت في بني قـريظة من اليـهـود، وذلك أن رسول الله ﷺ كـان عاهدهم ألا يحـاربوه وألا يعاونوا أحداً عليه فنقـضوا عهدهم وأعانوا مـشركي مكة بالسلاح على قتال رسول الله، ثم قالوا نسينا، فعاهدهم ثانية فنقضوا ومالئوا الكفار يوم الخندق، وركب كـعب بن الأشرف زعـيمهم إلـى مكة فحالـفهم على مـحاربة رسول الله.

المعنى:

الآية ٥٥ ـ إن شر الناس عند الله الذين كفروا وصدوا عن سبيله ولجوا في العناد

وأصروا على الكفر، وقد جعلهم القرآن شر الدواب إلى أنهم بلغوا درجة الحيوانات والدواب ومع ذلك هم شر منها ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (الفرقان: ٤٤) وهم لذلك لا يؤمنون ولا يرجى منهم خير أبداً.

الآية ٥٦ ـ إن شر الناس عند الله، أي في حكمه وقضائه، الذين كفروا أي الذين عاهدت منهم وأخذت العهد عليهم كبنى قريظة ثم تراهم ينقضون العهد في كل مرة من المعاهدة، والحال أنهم لا يتقون الله ولا يخافون حسابه وليس لهم ضمير أو ذمة يرعونها.

الآية ٥٧ ـ وهذا حالهم عند الله أما حكم من نقض العهد منهم فإن أمكنتك الفرصة منهم وثقفتهم في الحرب فاضربهم الضربة القاضية التي تفرق بها جمع كل ناقض للعهد حتى يخافك من وراءهم من أهل مكة وغيرها، افعل هذا لعل الذين خلفهم يتعظون بهم.

الآية ٥٨ ـ أما من بدرت منه بوادر تؤذن بأنه سينقض العهد فهناك حكمه: وإما تخافن من قوم خيانة بنقض العهد بأن لاح لك دلائل الغدر ومخايل الشر. والمراد بالخوف العلم فاطرح لهم عهدهم وانبذه لهم نبذ النواة مستويا أنت وهم في العلم بنقض العهد بأن تعلمهم به حتى لا يتهموك بالغدر والخيانة، إن الله لا يحب الخائنين. وقيل المعنى فانبذ إليهم عهدهم على طريق مستو واضح، والمراد أخبرهم خبرا مكشوفا.

الآية ٥٩ ـ ولا يحسبن الذين كفروا أنهم أفلتوا من القتل والأسر يوم بدر، إنهم بهذا السبق لا يعجزوا الله من الانتقام منهم بل هم في قبضته ولن يفتلوا أبدا، إما في الدنيا بالقتل وإما في الآخرة بالعذاب الشديد، وأما أنت يا محمد فاعلم أن الله محيط بهم ومعذبهم على كفرهم ومنتقم منهم فاطمئن واصبر فإن الله معك.

الإعداد الحربي

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ

وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

المفـردات:

(رباط الخيل) :

يقول الكشاف: الرباط اسم للخيل التي تربط في سبيل الله.

(ترهبون) :

تخيفون.

المعنـى:

الآية ٦٠ ـ المعنى: الجيش هو عدة الوطن وسلاحه، ودرعه وسياجه، وهو وجه الأمة التي تقابل به العدو، ويدها التي تبطش به وقلبها النابض وعينها الساهرة، ولذا كانت عناية القرآن به كما ترى في كثير من الآيات، ورعاية النبي ﷺ له وإعطاؤه القسط الوافر المناسب لزمنه أمر ظاهر واضح.

والإعداد والتكوين أمر شاق على النفوس عسير على الناس إلا المؤمنين بالله المتوكلين عليه أصحاب النفوس العزيزة والهمم العالية.

والآية الكريمة على اختصارها جمعت أنواع الإعداد للجيوش التي تتلاءم مع كل عصر وزمن ﴿مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: ٦٠).

فالإعداد الأدبي، والمادي والإداري والفني والمالي مع الحث على ذلك كله بالثواب الجزيل والعطاء الكثير كل ذلك في الآية الشريفة، ولقد فرض القرآن علينا الإعداد بأنواعه ﴿وَأَعِدُّوا﴾ وأن نبذل فيه أكثر جهودنا وأن نقدم النفس والنفيس ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

ولم تغفل الآية الإعداد في وقت السلم حتى يكون الجيش على أتم استعداد في كل وقت (كلما سمعوا هيعة طاروا إليها) فأمرنا بإعداد الخيل المرابطة في الثغور لمقابلة العدو ليلا ونهارا، ولقد ذكرت الآية سبب الإعداد وهو إرهاب العدو الظاهر والعدو الخفي، ما نعلمه، وما لا نعلمه.

ولم يكن هناك إعداد ونصر إلا بالمال، ولا سبيل إليه إلا بالإنفاق المطلق كل على قدر طاقته وإيمانه، مع حثنا على التسابق فيه والعمل على إحراز ثوابه الكبير المعد لنا يوم القيامـة. ولا يمكن أن تقوم أمة بهذا الإعداد الكامل ثم تظلم من جيرانها أبدا، وأنتم لا تظلمون كذلك في الآخرة ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٢).

والخيل في العـصر القديم كانت عنوان الرهـبة للأعداء ولا تزال لها مكانتـها في العصر الحديث لهذا ذكـرت، وإن كانت الآية تدعو لإعداد المستطاع المناسب من كل قوة صالحة للزمان والمكان قال العلماء: «والقوة في كل زمان بما يناسبها، كانت القوة الرمي، ثم المدفع، ثم النفاثة ثم الصاروخ. فهـذا سبيل النصر، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب».

الميل إلى السلام، وتقوية الروح المعنوية في الجيش

﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ (٦٥) الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)﴾.

المفـردات:

(جنحوا) :

مالوا.

(السلم) :

السلام، والسلم واحد.

(حسبك) :

كافيك.

المعنــى:

الآية ٦١ ـ بعد ما أمر بالاستعداد التام للحرب ـ ولا يمنع الحرب مثل الاستعداد لها ذكر هنا حكم ما إذا طلبوا الصلح ومالوا إلى السلم، فقال: ما معناه: وإن مالوا إلى السلم وطلبوا عقد الهدنة والأمان فأعطهم ما طلبوا. والصحيح كما قال الزمخشري في كشافه إن الأمر في الآية موقوف على ما يرى فيه الإمام صلاح الإسلام وأهله من حرب أو صلح وليس بحتم أن يقاتلوا أبداً، أو يجابوا إلى الهدنة أبداً.

وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله، فالله حسبك وكافيك وهو السميع لكل قول وطلب، العليم بكل قصد ونية، وهذا يفيد أن دين الإسلام دين السلام والمحبة، وأنه عدو للحرب إلا إذا اقتضتها الظروف.

الآية ٦٢ ـ وإن يريدوا خداعك بطلب الصلح حتى يستعدوا للحرب فاعلم أن الله كافيك شرهم وناصرك عليهم، ولا غرابة، فهو الذي أيدك بنصر من عنده ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ (الأنفال: ١٠) وأيدك بالمؤمنين معك من الأنصار والمهاجرين الذين دافعوا عنك دفاع الأبطال.

الآية ٦٣ ـ وهو الذي ألف بين قلوبهم، وجمعهم على كلمة الحق والشهادة، وألزمهم كلمة التقوى، وكانوا أحق بها وأهلها وقد كانوا في الجاهلية أصحاب حروب وفتن وعداوات وعصبيات وحب للانتقام وإثارة الحروب لأتفه الأسباب مع أنك لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله القوي القادر الحكيم العليم ألف بين قلوبهم، وجمعهم على صراط سوى، إنه عزيز كامل القدرة والغلبة حكيم في كل ما يصنع.

الآية ٦٤ ـ ياأيها النبي حسبك الله وكافيك في جميع أمورك أنت والمؤمنين بك فكونوا أقوياء العزم ثابتي الجنان فإن الله معكم بالنصر والمعونة، ولا شك أن هذا يقوى الروح المعنوية في جيش المسلمين.

الآية ٦٥ ـ وهذا لا يمنع الأخذ بالأسباب ولذا يقول الله: ياأيها النبي حرض المؤمنين على القتال، وحثهم عليه حثا شديدا حتى يبذلوا النفس والنفيس في سبيل الله طيبة نفوسهم بهذا، وذلك ببيان فضيلة الجهاد وأنهم ينتظرون في الجهاد إحدى الحسنيين: إما الشهادة، ويالها من شرف وإما الغنيمة والنصر. واعلموا أن الواجب عليكم أن الواحد يقاتل عشرة من الكفار، إن هناك فرقا شاسعا بين من يقاتل عن عقيدة ثابتة ونفس مطمئنة، وبين من يقاتل مكرها أو مأجورا أو لغرض دنيوي بسيط.

إن يكن منكم عشرون صابرون محتسبون أجرهم عند الله يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة صابرة على هذا الشرط يغلبوا ألفا من الذين كفروا بالله وبرسوله ولم يؤمنوا بالبعث والجزاء، ذلك بسبب أنهم قوم لا يفقهون حقيقة الدنيا وأنها ممر للآخرة والأسرار الحربية ونظامها الذي يكفل النجاح وهم قوم لا يقاتلون عن عقيدة وحجة ثم هم لا يؤمنون بالبعث والجزاء. أما أنتم فتقاتلون صابرين محتسبين الأجر من عند الله منتظرين إحدى الحسنيين من الغنيمة أو الشهادة. هذا هو الوضع الذي يجب أن يكون عليه المسلم وعدم الفقه والفهم هو الوضع الذي وصف به المشركون واليهود لأنهم ماديون أشد الناس حرصا على حياة.

الآية ٦٦ ـ هذه هي المرتبة العليا للمؤمنين وهاك مرتبة أقل منها، وهي: الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا في البدن من كثرة الجهاد والعمل، فإن تكن منكم مائة صابرة على هذا الشرط يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله وقوته، والله مع الصابرين بالمعونة والرعاية، ولقد كرر القرآن مقاومة الجماعة لأكثر منها مرتين قبل التخفيف وبعده للدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة واحدة لا تتفاوت أبداً مادام الجيش يسير حسب الشرع وتبعا لتعاليم الإسلام.

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾.

المفردات:

(يثخن) :

يقال أثخنه المرض والجرح إذا أثقله وجعله لا يتحرك، والمراد يكثر القتل ويبالغ فيه.

(سبب النزول) :

سبب النزول: روى أن النبي ﷺ استشار أصحابه فيما يعمله في أسرى بدر فأشار أبو بكر بالفدية، وقال: هم قومك وأهلك استبقهم لعل الله يتوب عليهم، وخذ منهم فدية تقوى بها أصحابك، واستشار عمر فأشار بالقتل قائلا: اضرب أعناقهم فإنهم أئمة الكفر والله أغناك عن الفداء، مكن عليا من عقيل، وحمزة من العباس، ومكن من فلان نسيب له، فلنضرب أعناقهم. وقد مال الرسول ﷺ إلى رأي أبي بكر فنزلت الآية، وقد ختم الله سياق الكلام في القتال بذكر حكم يتعلق بالأسرى.

المعنى:

الآية ٦٧ ـ الأسير عدو من الكفار وقع في يد المسلمين، والحكم فيه أن الإمام يتصرف فيه تبعا للمصلحة العامة فيعرض عليه الإسلام فإن أسلم فبها، وإلا قتله

الإمام أو قبل الفداء منه، أو استرقه، أو من عليه بدون فداء. هذا إذا كان للأمة الإسلامية دولة وصولة، أما في مبدأ الأمر كما هنا عند قيام الدولة فالرأي ألا يبقوا على الأسرى ولا يحملوهم معهم بل يقتلوهم قتلا. إذ هم عالة عليهم وضغث على إبالة وإن بقي ربما تظاهر بالإسلام وكان جاسوسا على المسلمين وفي هذا المعنى كانت الآية الكريمة.

ما كان لنبي أي ما صح له وما استقام أبداً أي لا ينبغي أن يكون له أسرى ثم يبقى عليهم، ويقبل الفدية. فإن في هذا خطرا على الدولة، وما كان له ذلك حتى يكثر القتل في الكفار ويبالغ فيه إذ في هذا إعزاز المسلمين، وإضعاف للكفار وكسر لشوكتهم، أتريدون بقبول الفداء والإبقاء عليهم عرضا من أعراض الدنيا وحطامها الزائل؟ والله يريد لكم ثواب الآخرة، أو يريد إعزاز دينه، والقضاء على أعدائه، وهذا سبب الوصول إلى ثواب الآخرة، والله عزيز يعز أولياءه، ولله العزة ولرسوله والمؤمنين، حكيم في أفعاله وأعماله فامتثلوا أمره فهو يهديكم إلى سبيل الرشاد والخير.

الآية ٦٨ ـ لولا كتاب من الله سبق وحكم قضاه في اللوح المحفوظ أن المخطئ لا يعاقب على خطئه، لولا هذا لأصابكم بسبب ما أخذتم من الفداء عذاب عظيم وقعه، شديد هوله وفي هذا تهويل لخطر ما فعلوه.

الآية ٦٩ ـ قد أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا، واتقوا الله وامتثلوا أمره ونهيه، إن الله غفور رحيم يقبل التوبة، ويعفو عن السيئة.

الآية ٧٠ ـ روى أنه كان من بين الأسرى العباس بن عبد المطلب وقد كلفه النبي أن يفدى ابن أخيه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، فقال: يا محمد تركتني أتكفف قريشا ما بقيت، فقال له النبي ﷺ: فأين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة؟ وكان هذا إخبارا بالغيب حيث لم يكن يعلم بهذا إلا الله فقال العباس: والله ما كان عندي ريب قبل هذا ولكن الآن لا ريب، وفي رواية قال العباس: فأبدلني الله خيرا مما أخذ مني.

يا أيها النبي قل لمن في ملككم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم إخلاصا وحسن نية يؤتكم خيراً مما أخذ منكم في الفداء ويغفر لكم والله غفور ستار للذنوب.
وقيل: المراد من الآية أن يعرض النبي على الأسرى الإسلام ويمنيهم بالخير والمغفرة.

الآية ٧١ ـ وإن يريدوا خيانتك، ونقض عهدك فاعلم أنهم قد خانوا الله من قبل ذلك بنقضهم الميثاق المأخوذ على الناس جميعا ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (الأعراف: ١٧٢) وإذا كان كذلك فلا يهمنك أمرهم فالله أمكنك منهم وسلطك عليهم فهزمتهم، وهذا كلام مسوق لتسلية النبي ﷺ بطريق الوعد له والوعيد عليهم، والله عليم بكل النيات حكيم في فعل ما تقتضيه الحكمة البالغة.

أو هم خانوا الله في رفضهم قبول دعوة الإسلام وفي محاربتهم للمؤمنين فأمكن الله منهم المسلمين في غزوة بدر.

الرابطة الإسلامية أقوى الروابط

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾.

المفردات:

(هاجروا):

تركوا دار الكفر وذهبوا إلى دار الإسلام.

(آووا) :

أنزلوا وأسكنوا يقال آواه أنزله دارا وأسكنه إياها.

(ولايتهم) :

الولاية مصدر وليه يليه أي مالك أمره وقام به.

(تكن فتنة في الأرض) :

تحصل فتنة عظيمة والمراد ضعف الإيمان وظهور الكفر.

المعنى:

الآية ٧٢ ـ ما مضى كان في الكلام على الكفار وأسرهم وكيفية معاملتنا لهم، ضاربين بقرابتهم عرض الحائط مستبدلين بها قرابة الإسلام، ولذا تكلم القرآن هنا على رابطة الإسلام.

إن الذين آمنوا بالله ورسوله إيمانا صادقا كاملاً وهاجروا في سبيله، تاركين أوطانهم الحبيبة إلى نفوسهم، وأموالهم، كل ذلك لله، وجاهدوا في سبيله، وبذلوا النفس والنفيس أولئك هم المهاجرون الذين تركوا مكة وعزهم وشرفهم ونسبهم فيها إلى يثرب التي قطنها الرسول الكريم.

إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا المهاجرين وأنزلوهم ديارهم وشاركوهم في أموالهم، ونصروا رسول الله ومنعوه مما يمنعون منه أزواجهم وأولادهم ﴿**فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (الأعراف: ١٥٧) أولئك هم الأنصار هؤلاء المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض يتولون أنفسهم بالرعاية والعناية والسهر على المصالح فهم جسد الأمة الإسلامية، إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، فرابطة الإسلام بينهم أقوى رابطة والإيمان هو الصلة المحكمة، وهكذا المسلمون في كل زمان ومكان اجتمعوا على الإيمان بالله، والتقوى وعلى محبة الرسول الأكرم ولذا يقول الله

فيهم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠) فالأخـوة في الإسلام إذا ما كانت لله حقا كانت هي الدعامة الوحيدة لتماسك بناء الأمة، وقيل المراد بالولاية هنا الميراث ونسخت الآية بآية المواريث، والذين آمنوا بالله ورسـوله ولم يهاجروا بأن اعتـرضتهم عقبات لم يستطيعوا التغلب عليها، هؤلاء ليس لكم ولاية عليهم وليس بينكم توارث وإن كانوا ذوى قربى حتى يهاجروا. هكذا كانت الهجرة في مبدأ الإسلام.

ولكن إن استنصـروكم في الدين، وطلبوا إليكم أن تمدوا إليهم يد المسـاعدة لهم على أعدائهم بقـدر الطاقة فانصروهم إلا على قـوم بينكم وبينهم معاهدة ومـيثاق، والله بما تعملون بصير.

الآية ٧٣ ـ والذين كفروا بعضهـم أولياء بعض ليس لكم أن تولوهم أو تتخذوهم أصدقاء مهـما كانوا من القرابة والصلة، إن لم تفعلوا هذا وتقومـوا بهذا الأمر تحصل فتنة في الأرض وفسـاد كبير، وذلك بضعف الإسـلام وكسر شوكتـه وظهور الكفر، وعلو رايته.. يا سبحان الله أنت عالم الغيب والشهـادة وأنت الخبير البصير فلقد ظل الإسلام كمـا هو حتى اتخذ المسلمون بطانـتهم من غيرهم ووالوا أعداء الـدين بحجة السياسة مرة أو لحاجة أخرى فأصـبحوا ولا حول لهم ولا قوة، وظهر الفساد في البر والبحـر بما كسـبت أيدينا، نعم، وسنظل على ذلك حـتى نعود إلى الديـن والقرآن، نفعل ما يريده ونتجنب ما ينهي عنه.

الآية ٧٤ ـ والذين آمنوا وهاجـروا وجاهدوا في سـبيل الله والذين آووا الـرسول وعـزروه ونصروه وهم المهـاجرون والأنصـار أولئك هم المؤمنون حـقا، فـالهجـرة والنصرة دليل على صـدق الإيمان وكمال الإسـلام، ولهم مغفـرة من الله ورضوان، ولهم رزق في الدنيا والآخرة كريم، أي حسن وكبير.

الآية ٧٥ ـ هؤلاء هم السابقـون المقربون، ومن أتى بعدهم فهـذا حالهم والذين آمنوا من بعـد ذلك أي بعد أن قـويت شوكـة المسلمين وامـتد بهم الزمن وهاجـروا وجاهدوا في سبيل الله معكم فأولئك منكم وأنت منهم بعضكم أولياء بعض، وأولوا

الأرحام وذوا القرابات في الإسلام بعضهم أولى ببعض، فقد جمعوا بين الأخوة في الله والأخوة في النسب هذا الحكم في كتاب الله، وقيل المراد ميراث ذوى الأرحام، وقد كـان المهاجـرون والأنصار يتـوارثون في بداية الإسلام حـتى نزلت آية المواريث ومنها هذه الآية ﴿واللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النساء: ١٧٦).

وليس في الآيات تكرار فالأولـى لبيان أن رابطة الإســلام أقوى من رابطة النسب والثانية لبيان مكانتهم وأنهم هم المؤمنون حقـا، والثالثة لبيان أن الذين جاءوا بعدكم وآمنوا بعد ظهور الإسلام فأولئك منكم.

والله أعلم.

خاتمة

هذه سورة الأنفال واكبت مسيرة المسلمين إلى غزوة بدر الكبرى وحرضتهم على الجهاد والقتال، وأمرتهم بالثبات والصبر، وتكلمت عن تقسيم الغنائم، ونظام الأسرى، ونظام الحرب والسلم، وفي كل ذلك تربى في المسلم ملكة التقوى ومراقبة الله، وتدعوه إلى الأخوة والمودة والعطاء، وتربط بين السلف والخلف، وترسم مسيرة الإسلام إلى يوم الدين.

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

المحتــويــات

الفصل الثالث:

الفصل الرابع:

رقم الإيداع ٢٢٥٨ / ٢٠٠١
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 09 - 0686 - 7

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت.٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)